بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي

تأليف

عبد الباقي مفتاح

تقديم

الدكتور عبد الإله بن عرفة



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

بحوث
حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي

تأليف

عبد الباقي مفتاح

تقديم

الدكتور عبد الإله بن عرفة



Title : Researches on Ibn 'Arabi's works and concepts

الكتاب : بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر ابن عربي

Classification: Sufism
Author : ʿAbdul-Bāqi Miftāḥ
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 256
Size : 17* 24
Year : 2011
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

التصنيف : تصوّف
المؤلف : عبد الباقي مفتاح
الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات : 256
قياس الصفحات: 24 *17
سنة الطباعة : 2011
بلد الطباعة : لبنـــان
الطبعة : الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

تقديم

في زمن العولمة وتدفق المعلومات واختلاطها وعدم تبين الصالح من الأصلح، والطالح من الأطلح، وفي الوقت الذي يعرف فيه العالم الإسلامي هجوماً شرساً على رموزه ومقدساته وحضارته، وفي الوقت الذي دخلت فيه الإسلاموفوبيا إلى ميدان العلم بعد أن كانت صوراً نمطية في بعض الأوساط التي تمجد الكراهية، وصارت الأفكار العنصرية تتبوأ مكانة مرموقة لدى المؤسسات الرسمية ووسائل الإعلام الغربية، كان لا بد من إعادة إنتاج التراث الحضاري الإسلامي وفق قراءة متأنية ونابهة. ويأتي هذا السفر ضمن هذه الرؤية الجديدة ليقدم للقارئ المستوفز لهذه النباهة مفاتيح لقراءة أحد أعلام هذا التراث ممن تبوأ مكانة كبرى في تاريخ هذه الأمة، والذي تضاربت الآراء حوله بسبب عدم إدراك جُلّ ما يرمي إليه. فأنصفه المنصفون وافتتن به المغرضون وجلُّهم جاهلون لمكتوباته وأفكاره وآرائه في مسائل دقيقة تستعصي على الإدراك. وزاد من تعقيد هذا الأمر ما دُسَّ على الشيخ من آراء في بعض كتبه، بل نُسبت إليه كتب ليست له على الإطلاق. فالتفسير الذي يباع في المكتبات ليس له وإنما هو للقاشاني، كذلك كتاب آخر بعنوان شجون المسجون وفنون المفتون، ليس له وإنما لأحد جاء بعده، وكتاب آخر بعنوان رسالة الأخلاق أو تهذيب الأخلاق، وهو ليحيى بن عدي. وقد أخطأ في هذا العلامة محمد كرد علي سنة 1924، رئيس المجمع العلمي العربي على أنه من تأليف الجاحظ. ثم بعد طبع الكتاب بعث بطريرك الروم الأرثوذكس في دمشق غريغوريوس حداد برسالة إلى كرد علي يخبره فيها أن في خزانته كتاباً باسم «تهذيب الأخلاق» منسوباً ليحيى بن عدي، وأنه مطابق لفظاً ومعنى للكتاب الذي نسبه كرد علي إلى الجاحظ. ثم ظهر بعد ذلك أن نفس الكتاب كان قد طبع في

القاهرة أربع مرات، قبل نشر كرد علي للمخطوطة، نُسِبَ في المرتين الأوليين إلى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وفي المرتين الأخريين إلى يحيى بن عدي، وأن هذه الطبعات لا تختلف عن بعضها إلا كما تختلف النسخ من نفس الكتاب. وقد اضطر كرد علي إلى الاعتذار وأن يكتب «نحن نرجح أن الرسالة ليحيى بن عدي لبعض عبارات لا يقول مثلها الجاحظ شيخ المعتزلة، ولا ابن عربي شيخ المتصوفة...». ومع كل هذا، فإن الكتاب ما زال يصدر في القاهرة لحد الآن منسوباً إلى الشيخ الأكبر، ثم هناك رسائل كثيرة تنسب لابن العربي وهي ليست له. وقد نبه الباحث عبد الباقي مفتاح على مثل هذا ضمن الكتاب الذي نقدم له اليوم.

في هذا الزمن لا بد من إنتاج المُحاور الحضاري الذي يستطيع أن يناظر الخصوم، وأن يُقدِّم المعارف الحضارية الإسلامية كما هي لا كما تتلقفها العقليّات السَّطحية التَّبسيطية التي تُقزِّم الكبير وتُضخِّم الصغير وتَقْلِبُ الحقائق.

وإن ما لا نحتاج إليه اليوم، الذي وصل فيه الضعف والانقسام في العالم العربي الإسلامي أقصى درجاته، هو فتح هذه الفتن الداخلية بين الفرق والمذاهب الإسلامية. إنها مؤامرة تحاك ضد المسلمين ويساهم في إذكائها بعض الفتانين من المسلمين ممن لا هَمَّ لهم إلا التكفير والتبديع واحتكار الحقيقة. لقد قرأنا عن عدة تقارير رسمية لم تعد سرية بأن هدف القوى العظمى هو زرع الفتن في العالم الإسلامي وخلق كيانات صغيرة تبقى متناطحة مع بعضها لتشغل الأمة عن النهوض. فهذا برنار لويس Bernard Lewis، المؤرخ الصهيوني المعروف ومنظر نظرية صراع الحضارات قبل هينتنغتون، يقول بأن نجاح مخطط التفتيت للأمة الإسلامية يبدأ بتشجيع خلق أكثر من ثلاثين كياناً انفصالياً، على أساس ديني ومذهبي وعرقي ولغوي، تضاف إلى التجزئة التي أحدثتها اتفاقية «سايكس - بيكو» سنة 1916. وبعد أن تحدث عن تفاصيل مخطط تفتيت العالم الإسلامي من باكستان إلى المغرب على أسس دينية ومذهبية وعرقية، وخلص إلى الهدف الصهيوني من وراء هذا التفتيت قال: «... ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا نهاية لها.. ونظراً لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل».

إن الحوار مع الآخر يقتضي أن نجند كل طاقاتنا لكي نكون فعلاً على مستوى المُحاور الحضاري. بل يعتقد البعض منا أن إجراء هذا الحوار مع الغرب يمكن أن يتم برفض كل ما ينتجه الغرب من أفكار.والحقيقة أن ذلك لم يتم، بل يجب أن نعيد إنتاج تراثنا من جديد، ولعل في التجربة الصوفية والروحية عموماً كنوزاً غير مطروقة بعد، تضاهي وتملأ الخواء الروحي الذي يمرفيه الغرب المادي اليوم ويجر إليه العالم معه. إن تراث ابن العربي والغزالي وابن سبعين وابن رشد وابن طفيل وغيره كفيل بأن يحقق طفرة جديدة إذا تمت إعادة إنتاجه وفق احتياجاتنا وأسئلتنا الراهنة والمستقبلية. فالبديل الحضاري لا يمكن أن يتم ما لم يتحقق هذا الشرط في إعادة امتلاك هذا التراث وإعادة إنتاجه. وما لنا نعيد دائماً الحديث عن إشكالية التراث والمعاصرة؟ هل يتساءل القارئ الغربي مثلاً حين يدخل إلى مكتبة معينة حول جدوى وجود كتب أرسطو أو أفلاطون أو سوفوكل أو سيرفانتس بجوار كتب هايدغر وهيسرل وأندريه جيد وجان بول سارتر وألبير كامو وأوسكار وايلد وت. هـ. إليوت، وغيرها. قطعاً إنه لا يتساءل مثل ذلك السؤال بل هو يعتقد أنه مؤتمن على هذه الأعمال الإنسانية التي لا تَخْلَقُ بمرور الأيام والقرون، بل يقتنيها ويقرأها، يريد أن يكون له الحق في امتلاك جزء من تراث الإنسانية وذاكرتها عبر شرائه لهذه الكتب. ونفس الشيء يقال بالنسبة لكل التراث الفني والمعماري وغيره. لقد استطاعت الدولة المتقدمة أن تعيد إنتاج التراث الغربي خاصة والإنساني عامة لتقدمه لمواطنيها على أنه جزء مما ينبغي امتلاكه واستهلاكه وإعادة إنتاجه وتوزيعه بمختلف الوسائط. فلكل إنسان الحق في امتلاك الجوكندا، سواء كصورة في بطاقة بريدية يرسلها إلى أحبته وأقاربه أو على غلاف كتاب أو طابع بريدي أو غير ذلك. إن إعادة إنتاج التراث عبر وسائط مختلفة وجعله في متناول كل المواطنين هو الرهان الأعظم لربط الماضي بالحاضر، وكسر هذه الهوة بين ماضي أمة وحاضرها ومستقبلها. فما لنا لا نعمل على إعادة إنتاج تراثنا المشرق عبر كل الوسائط الجديدة وإعادة توزيعه في الفضاء الثقافي العام حتى يمتلكه الجميع أو يشعر بامتلاكه ويعيد صياغته وفق أسئلته وانتظارا ته، ويؤثث به مجاله الثقافي؟

إن شخصية ابن العربي الحاتمي شخصية مركزية في التراث الإنساني لا بسبب ما قد يعتقده البعض خطأ من أن صاحبنا يقول بالاتحاد والحلول أو برفع

التكليف أو بتكافؤ الأديان، بل لكونه الترجمان الحقيقي عن المعارف الإسلامية في عمقها وسطوتها. كما لا وجود لنص واحد من مكتوبات الشيخ الأكبر يورد فيها بصراحة عبارة «وحدة الوجود». ثم حتى على افتراض وجودها، وهو أمر لم يرد لا في الفتوحات ولا في الفصوص وهما أعظم أعماله على الإطلاق، فإن معناها يتجاوز التبسيطات الجاهلة التي نسمعها من بعض متعلمة الوقت. ولمن أحب أن يتعرف أكثر على هذا المذهب، فإننا ننصحه بقراءة كتاب مفيد لعبد الغني النابلسي بعنوان «الوجود الحق والخطاب الصدق» ففيه عيّنة عن كل أشباه الحجج التي يرومها المتحالفة في كل زمان، وهذا الزمان.

ومن القضايا الأساسية التي أود أن أشير إليها في هذا التقديم، الفروق المصطنعة التي يقيمها بعض الباحثين في التصوف، وحتى ممن يدعون الانتماء إلى هذا المشرب بين ما يسمونه التصوف السني والتصوف الفلسفي. ولعمري إنها مكيدة أخرى من مكائد سوء الفهم وأحبولة من أحابيل التدجيل الجديد وتلبيساته أتتنا عبر بعض مدارس الاستشراق الغربي فأوهمهم أن هناك تصوفاً سنياً وآخر فلسفياً. وأن الأول شرعي والثاني ليس كذلك. فمن أين أتوا يا ترى بهذه البدعة الجديدة التي لم نسمع عنها من قبل؟ بل الأغرب من ذلك أنك إذا سألت بعضهم، ومن هم هؤلاء الصوفية السنيون ذكروا لك فيمن ذكروا الغزالي والشيخ عبدالقادر الجيلاني ومولاي عبد السلام بن مشيش والشاذلي وأبو العباس المرسي وابن عطاء الله وابن عباد الرندي والشيخ زروق والجزولي وغيرهم. فإن ذكرت لهم ما كانوا عليه من التعظيم لهؤلاء الذين يحسبون على التصوف الفلسفي أبدوا استغرابهم. وإذا أتيت بأحد نصوصهم واحتججت بها على أن نفسها عال يضاهي نفس من يحسبونهم على التصوف الفلسفي، قالوا لك إنهم وإن قالوا ذلك الكلام فهم لم يقصدوا تلك المعاني المغرقة في التجريد. فسبحان الله، فها هي الصلاة المشيشية لمولاي عبد السلام بن مشيش وهي في شروحها بالعشرات ونفَسُها لا يقِلُّ عن الصلاة الفيضية للشيخ الأكبر أو كلام ابن سبعين في رسالة أنوار النبي، أو غيرها حول الحقيقة المحمدية.

وإذا كان ولا بد من إيقاع مقابلة بين التصوف السني وغيره، فالأولى أن يكون مع الطرقية المنحرفة أو المبتدعة التي ترى بعض مظاهرها في أشكال من

التعبد الشعبي البعيد عن نقاء التصوف وتزكية النفس التي يدعو إليها الإسلام. وهو أمر يجب معالجته بالهدوء وتوجيه الناس وجهة حسنة والأخذ بأيديهم إلى الخير، وإعادة الاعتبار لمؤسسات الصلاح والأضرحة وجعلها منابر للعلم والتربية الحقيقية، بدل مظاهر الشعوذة والخرافات التي تصاحبها. إن مشاعر الناس الدينية حقيقية رغم أن مصارفها خاطئة، ويستغلها البعض ممن لا دين له ولا ضمير لكسب المال والنفوذ.

والحقيقة أن هناك خلطاً واضحاً في أذهان هؤلاء الذين أرادوا تسييس التصوف ومأسسته على مساق معين فأخطئوا وسحبوا الخطأ على من اعتقد في أقوالهم. أما التصنيفات الصوفية لمذهبهم ورجالاتهم فقد عبر عنها الشيخ زروق، محتسب الصوفية وحامل لواء الشريعة والحقيقة في كتابه قواعد التصوف لدى إيراده للقاعدة 59 حيث يقول:

« تعدد وجوه الحسن، يقضي بتعدد الاستحسان، وحصول الحسن لكل مستحسن. فمن ثم كان لكل فريق طريق.

فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي، ومن نحا نحوه.

وللفقيه تصوف، رامه ابن الحاج في مدخله.

وللمحدث تصوف، حام حوله ابن العربي [المعافري في سراجه].

وللعابد تصوف، دار عليه الغزالي في منهاجه.

وللمتريض تصوف، نبه عليه القشيري في رسالته.

وللناسك تصوف، حواه «القوت» و«الإحياء».

وللحكيم تصوف، أدخله الحاتمي في كتبه.

وللمنطق تصوف، نحا إليه ابن سبعين في تآليفه.

وللطبائعي تصوف، جاء به البوني في أسراره.

وللأصولي تصوف، قام الشاذلي بتحقيقه.

فليعتبر كل بأصله من محله. وبالله التوفيق».

هذا كلام محرر نفيس ولا عبرة بهذه الأنواع العشرة فقط، بل إن الحقائق بعدد أنفاس الخلائق. وقد بيَّنَ هذا الفقيه الصوفي هنا أصل كل واحد من هؤلاء الأعلام ولم يذهب مذهب هؤلاء الذين يضعون فروقاً مصطنعة بين تصوف سني

وآخر فلسفي، كما لو أن من نُعتوا بكونهم من أصحاب التصوف الفلسفي لم يكونوا تابعين لسنة المصطفى على نفس القدر. وهيهات هيهات، فالأمر بخلاف ذلك، بل إن السنة شرط في التصوف ومن لا سنة له فلا تصوف له. وقد نسب إلى الإمام مالك قوله «من تصوَّفَ ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومن تفقَّه ولم يتصوَّف فقد تفسَّق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق». ولا مفهوم للتصوف إلا أنه الإحسان الذي عرّفه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، أو قوله «إن الله كتب الإحسان على كل شيء».

ثم إن هناك شبهة أخرى في هذا التقسيم بين تصوف سني وآخر فلسفي مؤداها أن التصوف السني مبني على التربية والسلوك، وأن التصوف الفلسفي مبني على الأفكار المجردة والتأمل الفكري والعقلي بدون سلوك. ثم حتى على افتراض هذا الزعم البعيد، أليس العقل أحد الإدراكات التي ينبغي العناية بها، أم أن الإنسان يجب أن يتشظى إلى إدراكات نافعة وأخرى ضارة؟ ثم أليس في الدين عقلانية مثل ما فيه من إيمان؟ ونحن نساءل من زعم هذا الزعم، هاتوا الدليل على أن ابن العربي الحاتمي وابن سبعين والحلاج والسهروردي لم يكونوا أهل سلوك. ولنكتف بذكر نبذ مما ذكروه عن أنفسهم. ونمثل لذلك بما جاء لدى الحاتمي. فلقد بدأ موسوعته العرفانية الفتوحات المكية بإيراد عقيدته السنية في مستهل هذا الكتاب وختم بالباب 560 المعنون « في وصية حكمية ينتفع بها المريد السالك والواصل ومن وقف عليها إن شاء الله تعالى». وهذا الباب كله وصايا نبوية أو للصحابة والحكماء، مبناها على السلوك وتحقيق العلم الشرعي. وكأنه يقول لنا إن كل ما ذكرته بين هذه المقدمة المشتملة على عقيدة أهل السنة والجماعة التي أدين بها الله تعالى، وهذا الباب الأخير من وصايا النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام يجب أن يرجع فيه إلى هذين الطرفين، فالحكم لهما. فإن المطلق يُرَدُّ إلى المقيد، والمتشابه يرد إلى المحكم، والعام يرد إلى الخاص، والمجمل يرد إلى المفصل، والمبهم يرد إلى المبين، وهكذا الحال في كل أمر مشكل.

والحق أن الأبحاث التي يتناولها الأستاذ عبد الباقي مفتاح في هذا الكتاب تبين بشكل واضح البنية القرآنية لمكتوبات الشيخ، فهو الترجمان الأعظم عن الحقائق القرآنية. ومن لم يستطع أن يفهم كلام الشيخ الأكبر فليترك أمره إلى الله

وليعتقد في صاحبه اعتقاداً حسناً مما يجب أن يعتقده كل مسلم في أخيه المسلم، لا أن يتقحَّم المجاهل ويسفِّه العلماء بكلام أوهن من بيت العنكبوت.

والأبحاث التي جمعها صاحبها في هذا الكتاب تهدف إلى تجسير الهوة بين القارئ ومكتوبات الشيخ، وتحيله على المفاتيح القرآنية والوجودية لهذه المكتوبات حتى لا يدخل إلى هذا العالم الفسيح ويتيه فيه، فلا بد من مرشد يقوده إلى البناء العام والهندسة الروحانية لهذه الكتب التي اتخذت القرآن مرجعها الأول والأخير سواء من حيث حروفه أو آياته أو سوره. وقد كنت تحدثت مع السيد عبد الباقي مفتاح حول مشروع إعادة إصدار الفتوحات المكية وإعطاء بعض المفاتيح الأساسية التي تنير للقارئ درب القراءة، لكن الجهة التي كانت تنوي تمويل هذا المشروع لم تعاود الحديث حوله، لكن بقي لنا من المشروع البحث المتعلق بالبنية الكلية للفتوحات المكية، وهو من المباحث المهمة. وقد أورد فيه الأستاذ عبد الباقي مفتاح بعض المفاتيح التي تمكن القارئ من التبصر بما يقرأ. فكثيراً ما سمعنا وقرأنا عن باحثين ينعتون الشيخ الأكبر بالتناقض. وهذا الفهم الخاطئ راجع لكونهم لم يفهموا أن الشيخ يتكلم من زوايا مختلفة، وأن كلامه في باب المعارف ليس هو كلامه في باب المنازل أو المنازلات. وحيث إن هذا المفتاح غائب عن القارئ فهو متى ما صادف مثل هذا التناقض الشكلي حكم على كلام الرجل بالتناقض. لهذا كان هذا الكتاب نافعاً حتى إذا ما صادف المرء كلاماً في موضوع معين وضعه في سياقه الذي يجب أن يوضع فيه. وفي الأخير يخرج بمحصلة لمجموع الآراء التي يسوقها الشيخ حول قضية معينة في مراتب مختلفة. ثم لا يجب أن ننسى أن الشيخ وهو يكتب يريد من قارئه أن يسلك معه في إفناء كل مرتبة وأن لا يقف عندها لأن المقصود بحق هو الله.

ثم لدينا بحث آخر حول شروط الفهم الصحيح لكتب الشيخ وهو يتقاطع في بعض نقاطه مع مبحث البنية الكلية للفتوحات ويسرد الباحث مجموعة من الشروط العلمية والكفايات السلوكية والإيمانية التي يجب أن تتوفر في مريد الحق الذي يقتحم مكتوبات الشيخ. وهو مبحث نافع. ومن بين المفاتيح المعرفية الأساسية التي يوردها الباحث معرفة علم الحروف. وهذا العلم مركزي في مكتوبات الشيخ رغم أنه لا يظهر على السطح بشكل واضح، بل إن الشيخ الأكبر

نسج ما يكتب انطلاقاً من هذا العلم وأخفاه حتى لا يقف عليه إلا من ألهمه الله إلى انتزاع الدر من أصدافه. وعلينا أن لا نبالغ في إيراد تلك الأعداد حتى نترك لكلام الشيخ جماليته وجلاليته، فلا بد للحسناء من نقاب ولا بد للشمس من حجاب. ويمكن للقارئ الذي يجهل أصول ذلك العلم، وهي الغالبية العظمى، أن يقرأ كتب الشيخ الأكبر من دون ما حاجة إلى معرفة أصول علم الحروف ومأخذه القرآني.

ومن المباحث التي تناولها هذا الكتاب أيضاً موضوع الحكمة وعلاقته بالفنون. وهو بحث كان قد أنجزه بمناسبة تنظيم موسميات مراكش سنة 1999. ثم بحث آخر بعنوان: قواعد مملكة الولاية عند الشيخ الأكبر. وهو بحث كان قد ألقاه بالفرنسية في مدينة البندقية سنة 2004. وفيه يفكك الباحث البناء الهندسي لهذه المملكة ويشرح بنيته الخفية في كتب الشيخ وخاصة في الباب 73 من الفتوحات المكية الذي فصل فيه بشكل رائع طبقات الأولياء وأعدادهم وأصنافهم بشكل غير مسبوق ولا ملحوق. بل إن من أتى بعده قد اقتبس تلك التقسيمات. والمبحث الآخر كان قد شارك به الباحث في الندوة الدولية التي عقدها المعهد الثقافي الفرنسي بطنجة بمناسبة مهرجان «ليالي البحر المتوسط» بعنوان «ابن عربي والسماع» يوم الخميس 26 يونيو 2003. ولا شك أن انتشار الملتقيات الفنية والعلمية حول السماع والموسيقى الروحية سيفيد حتماً من مثل هذه المباحث التي تؤسس لهذه الموسيقى وتخرجها من إطارها الفولكلوري الاحتفالي المحض لتزج بها في حل إشكالات الفراغ الروحي الذي يعاني منه العالم اليوم، وتفتح أمامه آفاق منابع الحكمة.

ويحتوي هذا الكتاب أيضا على بحث متميز حول مفهوم الهوية عند الصوفية كما عبر عنها الشيخ الأكبر والأمير عبد القادر الجزائري، وما تستلزمه من كيفية النظر والتعامل بين (أنا) و(الآخر) ؛ كما يشتمل على بحث آخر فيه شرح عميق وواضح للحوار الملغز الذي جرى بين الفيلسوف الشهير قاضي قرطبة ابن رشد وابن العربي. وبعده تتوالى ثلاثة مقالات، أولها حول نظرة الشيخ الأكبر لأحد أعلام التصوف في الشرق خلال القرن الثالث الهجري وهو ذوالنون المصري، يتلوه مقال حول إمام الصوفية في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري وهو الشيخ شعيب أبو مدين، وأخيرا بحث في التعريف بأشهر متكلم في العلوم الأكبرية في بلاد الشام خلال أواخر القرن الثاني عشر الهجري أي الأمير عبد القادر

الجزائري، مع توضيح لبعض ملامح تصوفه وكتابه (المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف).

ثم إننا ننصح القارئ أن يستفيد كذلك من مقدمة كتب مفاتيح فصوص الحكم الذي أصدره الباحث في مراكش عن دار القبة الزرقاء سنة 1997، وأضاف إليه بعد ذلك قسماً ثانياً بيّن فيه السورة القرآنية المناسبة لكل فصّ مع إضافات أخرى، وأصبح عنوانه «المفاتيح الوجودية والقرآنية لفصوص الحكم لابن العربي» وطبع في دار البراق ببيروت سنة 2004. وقد ترجم الكتاب في إيران إلى اللغة الفارسية، ثم إلى الفرنسية.

وأخيراً، لا بأس أن نعرف بكاتب الكتاب مما لا بد منه.

الباحث:

هو عبد الباقي بن أحمد مفتاح من مواليد 1952 في بلدة قمار بولاية وادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري. تخرج الباحث من الجامعة سنة 1975 وقام بالخدمة الوطنية لمدة سنتين تقريباً، ثم التحق بسلك التعليم مدرساً للعلوم الفيزيائية والرياضيات إلى حين تقاعده.

أخذ الطريق سنة 1973 عن شيخ الطريقة الهبرية الدرقاوية الشاذلية سيدي محمد بلقايد التلمساني (1911 - 1998) الذي أوصاه بفتح زاوية بقمار. وتم ذلك سنة 1988 بعد أن شيدها مجموعة من المريدين.

وهو يقيم لحد الآن في بلدته يشتغل بالذكر والمذاكرة والعلم وقراءة القرآن والتأليف، بعيداً عن ضوضاء المدن منعزلاً في كثبان الصحراء حيث الخلوة والصفاء.

لقد تعرفت على الباحث منذ تسعينات القرن الماضي حينما كنت أدرس في جامعة السربون بباريس وقد عرفني به الصديق جعفر الكنسوسي، الذي كان يحضر دروس الأستاذ علي شودكيفيتش في المعهد التطبيقي للدراسات العليا ضمن جامعة السربون. وكانت تلك الدروس تتناول كتب الشيخ الأكبر. وقد حضرت السنة الأخيرة من تلك المحاضرات قبل أن يتقاعد الأستاذ شودكيفيتش. وهو الذي عرّف الصديق جعفر الكنسوسي بالأستاذ عبد الباقي مفتاح من خلال المراسلات المستمرة التي كانت بينهما.

ولا أبالغ في شيء إن قلت بأن الباحث من أكبر المتخصصين في مكتوبات الشيخ الأكبر. وقد جمعتني وإياه أسفار كثيرة في بلاد المغرب بمناسبة المؤتمرات والندوات العلمية التي كانت تقام، فكنا نتذاكر في معالم الطريق ورقائقه ودقائق العلوم بلا كلل ولا ملل، وحصلت بيننا أخوة روحانية صادقة وخالصة لوجه الله.

وأخيراً، فقد رأيت من المفيد أن أترجم للشيخ الأكبر في هذا التقديم حتى يستطيع القارئ أن يتبين المراحل التي مرّ بها والظروف التي ألّف فيها كتبه. وهي ترجمة رغم إيجازها إلا أنها استوعبت كل محطات حياة الشيخ من دون إخلال. ومن أهم الدراسات التي أنجزت حول ابن العربي الحاتمي تلك التي قام بها الباحثة الفرنسية المسلمة كلود (هند) عداس بعنوان «ابن عربي أو البحث عن الكبريت الأحمر» باللغة الفرنسية سنة 1989، ثم كتاب الأستاذ عبد الباقي مفتاح «ختم القرآن محيي الدين بن عربي» الصادر سنة 2005. ومن الكتب الأدبية والإبداعية التي تناولت سيرة وحياة الشيخ الأكبر، رواية «جبل قاف» التي صدرت سنة 2002 لصاحبها عبد الإله بن عرفة، مقدم هذا الكتاب.

ابن العربي الحاتمي (560/1165 - 638/1240):

محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله ابن العربي، أبو عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر من أئمة العلماء في كل فن وعلم. تآليفه تعد بالمئات، أغلبها في التصوف.

ولد في مرسية يوم الاثنين 17 رمضان 560 هـ. وكان أبوه من كبار قادة جيش ابن مردنيش حاكم شرق الأندلس. وفي عام 568 تغادر أسرته مرسيه التي سقطت في يد الموحدين وتستقر في إشبيلية حيث شب الفتى وبدأ يأخذ العلم هناك. فقرأ القرآن بكتاب الكافي في القراءات السبع على أبي بكر ابن خلف وأبي الشراط القرطبي، وسمع علي أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للداني. وسمع على ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي وعبد المنعم الخزرجي. ويذكر في كتابه محاضرة الأبرار (ج1 ص5) أنه لم يدع كتاباً إلا قرأه، ولا فناً من الفنون إلا وأتقنه. كما كان يحدث بالإجازة المطلقة عن الإمام أبي طاهر السلفي.

كانت التيارات والمذاهب الصوفية الأكثر انتشاراً في الغرب الإسلامي تنتسب إلى مجموعة من الشيوخ الرواد. وقد أخذ الحاتمي عن جلهم. فهناك

مدرسة ابن مسرة وابن برجان وابن قَسِيّ قائد ثورة المريدين وصاحب كتاب خلع النعلين الذي أخذه ابن العربي من ولد ابن قسي في تونس. وقد وصلته هذه المدرسة عبر ابن الخراط الأزدي، وابن غالب وغيرهما. كما أخذ من شيوخ مدرسة ابن العريف الصنهاجي صاحب كتاب محاسن المجالس عبر ابن طريف وعبد الله القلفاط وأيوب الفهري. وثالث مدرسة أثرت فيه كثيراً هي مدرسة ابي مدين دفين العباد في تلمسان عبر تلاميذه يوسف الكومي وعبد الله المورروري وعبد العزيز المهدوي وأحمد السلاوي وابن سيدبونة وابن خميس الكناني وموسى السدراني. وأخيراً مدرسة ابن المجاهد زاهد الأندلس الذي توفي وعمر الشيخ حينها 14 سنة فأخذ مبادئ هذه المدرسة علي يد أبي عمران المرتلي وابن قسوم ويوسف الشبربلي وابن طريف. وهكذا جمع ابن العربي الحاتمي في تكوينه الروحي بين جميع التيارات والمدارس المنتشرة في ذلك الوقت في الغرب الإسلامي. وقد ترجم لمعظم هؤلاء الشيوخ في رسالة روح القدس والدرة الفاخرة. كان الحاتمي كثير التنقل والرحلة في طلب العلم وزيارة الشيوخ.

وهكذا عبر بحر الزقاق في عام 589، وقد عاين في إحدى مرائيه المشهورة بالجزيرة الخضراء حياته وما سيقع له. ويحل بسبتة ثم يصل تلمسان عام 590، وقد توفي الشيخ أبو مدين قبل ذلك بأشهر قليلة عام 589، فيقرر زيارة خليفة الشيخ في تونس عبد العزيز المهدوي. ومن تونس يعود إلى إشبيلية ويفجَأه القدر في والده الذي كان من رجال عالم الأنفاس، ثم تلحقه والدته نور المرأة الصالحة. وفي ضواحي روطة من بلاد الأندلس يلتقي بالخضر للمرة الثالثة. ثم يؤلف أحد أول كتبه وهو كتاب المشاهد القدسية. وفي عام 591 يرحل الحاتمي إلى فاس حيث يزوج أختيه أم السعد وأم العلاء. وفي هذه المدينة يصل إلى ما يسميه مقام النور حيث يرى من أمامه كما يرى من خلفه، أي يصير وجهاً بلا قفاً. ويأخذ في فاس عن الشيخ محمد بن عبد الكريم التميمي ويجيزه في كتابه المستفاد. وفي هذه السنة يستنبط الحاتمي انتصار الموحدين في معركة الأرك من الآية الكريمة (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ويسمي هذه الواقعة بحضرة الفتح. ثم يغادر إلى إشبيلية وعساكر المنصور الموحدي على أبواب مدريد ليعود إلى فارس عام 593 حيث يلتقي بقطب الزمان الأشَلّ القبائلي، ويؤلف أحد كنوز الأدب العربي زيادة على قيمته الصوفية،

وهو كتاب الإسراء إلى المقام الأسرى. وفي فاس يعلم الحاتمي أنه ختم الولاية المحمدي وهي أعظم مرتبة وهي أعلى من القطبانية. وهناك ختمان للولاية وهما من الأفراد، الأول هو ختم الولاية العامة وهو عيسى ابن مريم عليه السلام عندما ينزل آخر الزمان؛ والثاني: هو ختم الولاية التي تحصل من الإرث المحمدي، ولا يوجد في الأولياء من هو أعلم بالله منه. وقد ألف الإمام المحدث الحكيم الترمذي (القرن الثالث) مصنفاً بعنوان كتاب ختم الأولياء ضمنه 157 سؤالاً في المعارف الإلٰهية وتحدى بأسئلته كل من يدعي الإمامة في هذه المعارف. ولم يجرؤ أحد على رفع ذلك التحدي حتى مرت ثلاثة قرون وجاء الحاتمي وأجاب عن تلك الأسئلة بالتفصيل في الباب 73 من كتابه الفتوحات المكية، وفي كتاب مستقل. وقد أشار الحكيم الترمذي إلى أن المجيب عن تلك الأسئلة هو الختم المحمدي.

ثم يتوجه لآخر مرة صوب الأندلس حيث يودع شيوخه وأصدقاءه وأحبابه ويشهد في قرطبة جنازة الإمام ابن رشد برفقة ابن جبير صاحب الرحلة. كما يؤلف كتابه مواقع النجوم في 11 يوماً لصاحبه الوفي بدر الحبشي. ويقطع بحر الزقاق متجهاً نحو مدينة سلا حيث يلتقي ببعض الصالحين ويودع شيخه الكومي. ومنها يتوجه إلى عاصمة الموحدين مراكش. وفي منتصف الطريق بعدما قطع نهر أم الربيع عند بلدة غيسر الحالية يتحقق الحاتمي بمقام القربة وهو أعلى مقام في الولاية، خلافا لما ذهب إليه الإمام الغزالي حين قال «من تخطى رقاب الصديقين وقع في النبوة»، حيث كان يعتقد أن الصديقية هي آخر مرتبة قبل النبوة. وقد خالف الحاتمي هنا الغزالي في هذه المسألة وذكر أن ليس هناك رجل بين أبي بكر الصديق والنبي عليه الصلاة والسلام ولكن هناك مقام بين الصديقية والنبوة وهو مقام القربة. ومن أئمتها الخضر وجميع الأفراد والأقطاب. ويلتقي في مراكش بأبي العباس السبتي الذي لخص قاعدته ابن رشد حين قال «الوجود ينفعل بالجود».

ويغادر المغرب الأقصى ويزور بجاية حيث يرى في إحدى المبشرات نكاحه مع النجوم والحروف فيعبرها له أحد رؤوس هذا الفن بكونه سيصل مقاماً عالياً في علوم الفلك وأسرار الحروف لم يبلغه أحد من قبله. ويصل تونس عام 598 ويبقى في ضيافة صديقه عبد العزيز المهدوي، ثم يغادر باتجاه القاهرة التي يصلها وقد حل بها الوباء والمجاعة فينزل بخانقاه سعيد السعداء في شهر رمضان،

والتي بناها صلاح الدين الأيوبي للزهاد والغرباء والحجاج. ومنها يقصد إلى الخليل وبيت المقدس ثم المدينة المنورة، ومنها يحرم إلى مكة المكرمة ويؤدي فريضة الحج ويجاور بالمسجد الحرام حيث يتحقق فعلياً بختميته التي عاينها أول مرة في فاس. وفي مكة يبدأ تحرير كتابه الفتوحات المكية الذي سيكمله بعد ثلاثين عاماً من هذا التاريخ. كما ألف كتباً أخرى كرسالة روح القدس وتاج الرسائل. ويرحل مرة ثانية إلى بيت المقدس ثم بغداد والموصل منها إلى قونية حيث يلتقي بأوحد الدين الكرماني. وفي أثناء كل ذلك لم يفتأ عن التأليف، ويبقى يتنقل في المشرق من القاهرة إلى مكة فالعراق والشام ثم بغداد وحلب ومرة أخرى مكة حيث يؤلف ديوانه ترجمان الأشواق ويضع عليه شرحاً سماه ذخائر الأعلاق بعدما أرجف بعض الفقهاء من معانيه الغزلية فنبههم بهذا الشرح على حقائقه العرفانية.

ويلتقي بأكابر العلماء والأمراء والملوك من أيوبيين وسلاجقة. وكل واحد منهم يتحبب إليه ويقربه ويكرمه. وكان ينفق كل ما يأتيه على الفقراء والمساكين. فيحل بملطية عام 617 وقد زحف المغول على فارس. ويرزق بابنه الثاني محمد المدعو سعد الدين في ملطية. وفي عام 620 يستقر نهائياً في دمشق، والعالم الإسلامي يعاني من تحرشات الصليبيين وهجمات المغول. وفي عام 624 يتولى الأشرف حكم دمشق ويسلم الكامل بيت المقدس للأمبراطور فردريك الثاني. ويصدر الحاتمي على إثر هذه الشناعة، فتوى يحرم فيها دخول بيت المقدس ما دام بيد النصارى. وفي عام 627 يرى النبي عليه الصلاة والسلام في إحدى المبشرات فيناوله كتاب فصوص الحكم ويأمره بإخراجه إلى الناس. وقد قال الحافظ الذهبي في هذه المسألة «ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلاً». وقد لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة حيث وضعت عليه عشرات الشروح زادت على المائة وآخرها كان للباحث الأكبري المرموق الذي نقدم له اليوم عبد الباقي مفتاح بعنوان «مفاتيح فصوص الحكم» عام 1997 بمراكش في المغرب. وفي عام 629 ينهي الصياغة الأولى لكتابه الفتوحات المكية. وفي أثناء كل هذا لم يتخل عن التدريس والتأليف وقد أجاز الكثيرين. وأشهر تلامذته بدر الحبشي وابن سودكين وصدر الدين القونوي. وفي عام 635 يبدأ بجمع أشعاره في ديوان ضخم سماه ديوان المعارف الإلٰهية.

وفي ليلة 22 ربيع الثاني عام 638 هـ توفي الشيخ الأكبر في تربة قاضي

قضاة دمشق زكي الدين طاهر بن زكي سفح جبل قاسيون، وشهدت جنازته دمشق عن آخرها في موكب مهيب.

ترك الشيخ المئات من المؤلفات أشهرها كتاب الفتوحات المكية، وقسمه إلى ستة فصول، كل فصل يستمد من اسم إلٰهي، و560 باباً. ويعتبر هذا الكتاب موسوعة لا مثيل لها أثْرَتِ الحياة الروحية والفكرية في الإسلام، وترجمت الكثير من الأبواب إلى مختلف لغات العالم. ثم كتاب فصوص الحكم وقد لخص فيه مذهبه الوجودي، وقسمه إلى 27 فصاً. وكتاب التجليات الإلٰهية، ومشاهد الأسرار القدسية، وديوان المعارف الإلٰهية، وترجمان الأشواق، والإسراء إلى المقام الأسرى، وكتاب عنقاء مُغْرِب، وإنشاء الدوائر، وكتاب التنزلات الموصلية، وكتاب مواقع النجوم، والكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، وغير ذلك من الرسائل والكتب والتي خصص لها د. عثمان يحيى دراسة مستفيضة وفي غاية الأهمية بالفرنسية في مجلدين ضخمين بعنوان «مؤلفات ابن عربي تاريخها وتصنيفها»، ترجمها إلى العربية الصديق الأعز الأخْيَر، الدكتور أحمد الطيب، رئيس جامعة الأزهر سابقا ومفتي الديار المصرية حاليا. وقد ضاع الكثير منها وخصوصاً تفسيره الكبير في 64 مجلداً وصل به إلى قوله تعالى من سورة الكهف، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ ﴾، وسماه الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل. وقد نزع فيه منزعاً لطيفاً وغير مسبوق حيث كان يفسر كل آية من مقام الجمال أولاً ثم من مقام الجلال ثانياً ثم من مقام الكمال ثالثاً من غير أن يتكرر التفسير.

وأغلب كتب الشيخ مستمدة من القرآن، وقد صرح في بعضها بذلك، وأغفل بل أخفى وأبهم البنية الكلية للكثير من كتبه، فكتاب التجليات مثلاً مرجعه لسورة البقرة قسمه إلى 109 فصلاً، كل فصل مستمد من آية أو أكثر من سورة البقرة. ولهذا يحق للمرء أن يقول بأن الحاتمي هو رجل القرآن. وقد قال عنه أحد شيوخ الإمام زروق لما سأله عنه بأنه «أعلم بكل فن من أهل كل فن». وقد شغل الناس في كل عصر وزمان حتى لقب بالشيخ الأكبر ومربي العارفين والكبريت الأحمر وغير ذلك من الألقاب التي تدل على جلالة قدره. وقد نافح عنه كبراء هذه الأمة من أمثال الفيروزآبادي والإمام السيوطي والإمام النووي والإمام السبكي وأمير المؤمنين في الحديث العز بن عبد السلام وعبد الغني النابلسي والشعراني

والأمير عبد القادر الجزائري... واللائحة طويلة. ناهيك عن سلاطين بني عثمان الذين عظموه غاية التعظيم حتى بنى ضريحه السلطان سليم الأول لما دخل دمشق بعد مرور ثلاثة قرون على وفاة الشيخ، وصلى أول جمعة بالمسجد الذي بناه بجانب الضريح. كما أن الكثيرين من نخب الشرق والغرب في زماننا قد تأثروا بالشيخ الأكبر من أمثال الأمير عبد القادر الجزائري الذي سكن في نفس البيت الذي كان يسكن فيه الشيخ في دمشق. كما أسلم العديد منهم من أمثال الشيخ عبد الواحد يحيى René Guénon نابغة الزمان في الإلٰهيات، ومصطفى فلسان Valsan, وعلي شودكيفيتش وإبراهيم تيتوس بورخاردت، وغيرهم كثير. وكتبهم العديدة المترجمة إلى جل لغات العالم خير دليل على ما نقول. ولم يشذ عن القاعدة في معرفة قدر الحاتمي إلا بعض مترسمة الفقهاء ممن لم يفهموا كلامه.

ولا شك أننا اليوم في حاجة إلى هذا الفيض الأكبري الذي هو نفحة من نفحات المصطفى عليه الصلاة والسلام لإظهار الحجة والقيام بالإشهاد الحضاري لهذه الأمة على سائر الأمم.

عبد الله الشريف بن عرفة

الرباط في الاثنين 25 محرم الحرام 1431هـ

الموافق11 يناير 2010م

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيّدنا محمد رحمة العالمين
وعلى آله الأطهار وصحابته وأتباعه الأخيار

تحية للشيخ الأكبر

مَنْ هذا الصبي الأندلسي الذي ما طرّ شاربه، وقد خرج من خلوته الأولى تفيض ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، ويحاوره مختبرا الفيلسوف قاضي قرطبة ابن رشد، ثم يعبّر عن إعجابه وتعجبه من حالته قائلا:« هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أربابا، فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها، الفاتحين مغالق أبوابها، والحمد لله الذي خصّني برؤيته»(1)؟

مَنْ هذا الفتى الطائي أستاذ ومستشار ملوك الإسلام في المغرب والمشرق الناشر من سورة الأعراف عوارف عتيق حكمة مداوي الكلوم الإدريسية(2)؟

مَنْ هذا الإمام المحدّث السُني الظاهري الذي يطير بجناحي الظاهر والباطن فيطّلع على أرض السّاهرة (3)، ويشرح رقوم الألوية السبعة للمقام المحمدي المحمود من السور الحواميم السبعة؟ (4).

مَنْ هذا المُتَبتّل الذي يبيت عند ربه قائما وتاليا، وعند وقوفه بمنزل الشعراء ليشرب لبنا سائغا (5) يمتطي براق همة يعرج به إلى سماء يوسف الزهرائية، فيلج في سَمِّ خياط قميصه إلى أرض السمسمة التي من وسعها يبدو فيها العرش المحيط كحلقة في فلاة، ويسيح في مدائنها وبحورها ناظما من درّ حصبائها في سلك التوحيد أزيد من خمسين ألف بيت شعر كالسلسبيل الدافق والتسنيم العابق (6)؟

مَنْ هذا العملاق الرباني الساجد فوق قمة جبل قاف (7) مستقبلا الكعبة عند منبع ماء الحياة، وفي وسط جبينه الأغر نقطة باء البسملة (8) مركزا لتجمُّع الأضداد مُنسجِمَةً، ومنها تنبثق أشعة دوائر العرفان، كل نُقطة من محيطاتها عين يَشْرَبُ بها عباد الله يفجرونها تفجيرا؟

مَنْ هذا الذي قيل عنه أنه أعلم بكل فنّ من أهل كل فنّ؟
أهو الكبريت الأحمر في كيمياء السعادة؟ (9)
أم هو معنى حرف الواو غاية نفَس الرحمٰن؟ (10)

أم هو عنقاء مغرب يُغرّد فتوحات فصوصه وإشارات تجلّياته وعبادلة تنزلاته على منازل أغصان سُور القرآن المتفرعة من أحدية ساق شجرة الإنسان المحمدي الكامل، زيتونةٍ مباركةٍ لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار؟ (11)، ويُنشد بترجمان أذواقه معربا عن حقيقتها:

أنـــا القـــرآن والـــسبع المثانـــي وروح الـروح لا روح الأوانـي (12)

شمسه أشرقت من مغربنا عُشّ أهل الأسرار المطوية في أعماقهم آيات الكبرياء، وطافت بمعارج العلوم في مشرقنا فأخيت أهل الأنوار ليبصروا آيَاتِ إزار العظمة المنشور في الآفاق (13)، ولم يزل فيضان إشعاعها منذ أزيد من ثمانية قرون في مزيد إمداد وامتداد في أرقى الأوساط الروحية والعلمية والثقافية في جل بلدان العالم، فلم تزد أدوار الزمان إكسيره إلا لمعانا كما أنّ محاولات المنكرين طمس شذا رحيقه المختوم لم يزده إلا مِسْكًا وزُعْفُرانا (14)... ذلك مصداق لقوله في بيت شِعْرٍ نظمه متحدثا بنعمة ربّه عليه بمحض العبودية - وهو مكتوب على جدار مدخل مقامه الشريف بدمشق - (15):

لكـــلِ عَـــصْرٍ وَاحِـــدُ يـــسمو بـــه وأنـــا لباقـــي العـــصر ذاك الـــواحد

إنه الشيخ الأكبر الذي عَرَّفَ باسمه منشدا:

أنـــا المحيـــي لا أكنّـــي ولا أتـــبّلد أنـا العربـي الحاتمـي محمـد (16).

أَنَّى لفصاحة البلاغة أن تُعرب عن موجة نور من محيط فتوحات بلا ساحل، وهو الذي يقول عن مجرّته العظمى (الفتوحات المكية): [... وهذا الكتاب مع طوله واتساعه وكثرة فصوله وَأبوابه مَا استوفينا فيه خاطرا واحدا من خواطرنا في الطريق. فكيف الطريق!] (17). لكن سأكتفي بالإشارة إلى ثلاثة ألوان من أطياف أشعته:

* لون أول أبيض: الشريعة هي عين الحقيقة منطلقا ومنهَجًا مع التفتح الواعي الواسع على الاجتهاد في الفروع وفي الأصول. فالرسوم الشرعية عقيدة وعلما وعملا هي التجسيد الكامل للحقيقة. وقد فصّل الشيخ ذلك في جُل مكتوباته كالباب 560 باب الوصايا الذي ختم وتوج به الفتوحات، وهو مرآة لسيرته المحمدية طول حياته كما عبّر عنها بقوله (18):

ورثـــتُ محمـــدا فـــورثتُ كُـــلا ولـــو غيـــرا ورثـــتُ جُـــزءا

فَأَرْوَيْـــنَا نُفُوسًـــا عَاطِـــشَاتٍ فَلَـمْ تُـرِ بَعْـدَ هـذا الـشُربِ ظمْـأى

والغاطس النبيه في المحيط اللامتناهي للجواهر الأكبرية يكشف أنّ هذا المحيط هو القرآن الأحمدي العظيم لأهل الجمع، الفرقان المحمدي لأهل الوجود. وقد صرح بهذا فقال (19):

[فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه. أُعطيتُ مفتاح الفهم فيه والإمداد منه. وهذا كله حتى لا نخرج عنه. فإنه أرفع ما يُمنح. ولا يعرف قدره إلا من ذاقه وشهد منزلته حالا من نفسه، وكلمه به الحق في سرّه].

* لون ثانٍ أصفر يسرّ الناظرين: وُسْع السماحة، وإنصاف الوسطية، وموضوعية الحوار، وتواضع الأدب الكامل مع جميع عباد الله، لتحققه بقوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ - البقرة: 115 - ولتخلقه بقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾. فكلمة «الناس» تشمل كل العباد بمختلف نحلهم ومشاربهم. وفي هذا الموضوع يقول (20):

[... ما أعرف منزلا ولا نحلة ولا ملة إلا ورأيت قائلا بها ومعتقدا لها ومتصفا بها باعترافه عن نفسه. فما أحكي مذهبا ولا نحلة إلا عن أهلها القائلين بها، وإن كنا قد علمناها من الله بطريق خاص..].

ورغم هذا التبحر، نجده لا يستنكف عن الاستفادة والاعتبار من أبسط المخلوقات تحققا بقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾. مثلا في كتابه (روح القدس) الذي ذكر فيه بعض شيوخه من الرجال والنساء يذكر أنّ من شيوخه الفَرَس والبازي والنحلة، وأيضا ميزاب رآه في حائط بمدينة فاس، وظله الممتد من شخصه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾. - الفرقان: 45 -

* لون ثالث أخضر: شمولية الرحمة المُشَيَّدة بالحبّ الفائضة بالبشرى والتيسير تحققا بالآية: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ - الأعراف: 156 - وميراثا من المخصوص بأعلى مقامات الحب المُخاطب من قِبل الحق تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ - الأنبياء: 107 - فدينه الخاتم المهيمن هو دين الحبّ الذي قال عنه شيخنا (21):

أدين بدين الحبّ أنىٰ توجّهت ركائبُهُ فالدين ديني وإيماني

خلاصة القول:

في شيخنا الأكبر يتجلى حقاً كمال العرفان وقطبية الإنسان وعالمية الإسلام. وفي عصرنا الذي زالت فيه الحدود من كل نوع، لا نجد من يترجم عن إنسانية الإنسان الرباني، خليفة الرحمٰن وعالمية وسماحة دين الله الخاتم الجامع، أحسن من محيي الدين، فهو ابن كل عصر، لأنّ سلافه العتيق كان قبل الكروم والعصر، وهو القائل:

ولي في كتاب الله من كل سورة نصيبٌ وجُلّ الخير من سورة العصرِ(22)

ورحم الله الشاعر التركي الذي أنشد:

طيب محيي الدين مسك في الورى فاح لكن كل أنف لا يشم

وعلوم خرجت من فمه كل فهم بهداها لا يلم

قوسه أين الذي يرمي به غرض التحقيق يا قوم هلموا

مراجع

ف - كتاب الفتوحات المكية لابن العربي في 4 مجلدات - دار صار بيروت -

(1) ينظر الحوار بين ابن العربي وابن رشد في الباب 15 ف (1ص152 - 153).

(2) عن وصف الشيخ بالفتى وكلامه حول الفتوة ينظر الأبواب146/42/ 147 من الفتوحات. وينظر كتاب ليلى خليفة بالفرنسية: (الفتوة عند ابن عربي). وقد تكلم الشيخ عن مداوي الكلوم قطب رجال الأنفاس الذي يشير به إلى إدريس عليه السلام في الباب 14 ف، وفصّل علومه وعلوم خلفائه الستة في الباب 15 ف . وهذا الباب له نسبة خاصة مع سورة الأعراف.

(3) فصّل الشيخ مشاهده في أرض الساهرة حيث الحشر والنشر في الباب 14 الأخير من كتابه(مشاهدة الأسرار القدسية) وفي الباب 64 ف.

(4) خصّص الشيخ الأبواب من 338 إلى 344 ف للسور الحواميم السبعة، لكل سورة باب حسب ترتيبها التصاعدي، وتكلم عن علاقتها بألوية المقام المحمدي في الباب 338 ف منزل سورة الأحقاف.

(5) اللبن عند الشيخ يرمز للزيادة من العلم كما فصله في الباب 249ف (ج 2ص550) وقد كتب في بيان المشارب الأربعة للعارفين في رسالة عنواها: (مراتب علوم الوهب).

(6) ينظر كلام الشيخ عن أرض السمسمة في الباب الذي خصصه لها: 8ف (ج1ص126 ...). وعن علاقتها بالخيال والشعر وسماء كوكب الزهرة حيث روحانية يوسف عليه السلام ينظر الباب 167 ف (ج2 ص275) وكتاب الإسراء (سماء الشهادة). كما ينظر في مقدمة ديوانه الكبير (ديوان المعارف) كيف بدأ الشيخ نظم الشعر في واقعة تتعلق بسورة الشعراء.

(7) حول جبل قاف ينظر الباب 334 ف (ج3 ص130). وقد نشرت رواية حول سيرة الشيخ الأكبر بعنوان (جبل قاف) للأستاذ عبد الإله بنعرفه.

(8) حول باء البسملة ونقطتها ينظر الباب 5 ف (ج1 ص102)، وله رسالة

خاصة حولها.

(9) خصص الشيخ الباب 167 ف لمعرفة كيمياء السعادة. والكبريت الأحمر يدخل في صنعة الإكسير، ولهذا يُرمز به إلى أعلى مقامات الكمال العرفاني، ولُقب به الشيخ الأكبر، وللشيخ عبد الوهاب الشعراني كتاب عنوانه: (الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر). وللأستاذة كلود عدّاس كتاب بالفرنسية حول سيرته عنوانه (ابن عربي أو البحث عن الكبريت الأحمر).

(10) أشار الشيخ إلى العلاقة الخاصة بين مقامه وأسرار حرف الواو في الفصل 11 من الباب 198 ف (ج2ص425). وينظر كلامه حول الواو في الباب 2 ف (ج1ص75) وفي رسالة (الميم والواو والنون).

(11) في هذه الجملة إشارة إلى كتب الشيخ التالية: (عنقاء مغرب في ختم الولاية وشمس المغرب) و(الفتوحات المكية) و(فصوص الحكم) و(إشارات القرآن في عالم الإنسان) و(كتاب التجليات) و(كتاب العبادلة) و(كتاب التنزلات الموصلية و(الفصل الرابع من الفتوحات المؤلف من 114 باب، لكل سورة باب حسب ترتيبها التصاعدي) و(كتاب منزل المنازل الفهوانية) و(كتاب الشجرة والطيور الأربعة أو رسالة الإتحاد الكوني).

(12) كلمة " ترجمان أذواقه" تشير إلى ديوانه" ترجمان الأشواق"وينظر ما ذكره الشيخ حول البيت في خطبة الفتوحات (ج1ص 9 - 10).

(13) يصنف الشيخ الأولياء إلى نوعين: أهل الأسرار ويشير إليهم بالمغاربة، كالملامتية والأفراد وأمثالهم، وأهل الأنوار ويشير إليهم بالمشارقة كالظاهرين بالأحوال والكرامات. ينظر استعماله لهذا الاصطلاح مثلا في تعريفه لكل حرف في الباب 2 ف (ج1ص68 - 73)، وفي كلامه على علاقة المغرب الخاصة بالاسم الأعظم في جوابه عن السؤال 136 من أسئلة الحكيم الترمذي (ج2 ص121).

(14) للزعفران عند الشيخ علاقة متميزة بلون كسوة الاسم الأعظم حسبما ذكره في جوابه عن السؤال 137 من أسئلة الحكيم الترمذي في الباب 73 ف (ج2 ص 122).

(15) هذا البيت ذكره الشيخ في بداية الباب 311 ف المتعلق بسورة المزمل. أنشده عقب رؤيا سُرّ بها تبشره بتحققه بكمال محض خالص العبودية.

(16) هذا البيت في ديوانه ص46 المطبوع ببيروت - عام 1416 هـ - دار

الكتب العلمية.

(17) ينظر كلامه هذا في آخر الباب 189 ف (ج3ص382).

(18) هذا البيت في ص 335 من ديوانه المذكور أعلاه.

(19) ينظر كلامه هذا في الباب 366 ف (ج3ص 334 - 335) وهو لمنزل سورة الكهف.

(20) كلامه هذا في آخر الباب 383 ف(ج3ص523) وهو لمنزل سورة الفاتحة.

(21) هذا البيت في ديوانه (ترجمان الأشواق) ص 44 - دار بيروت 1401 هـ.

(22) هذا البيت في صفحة 312 من ديوانه المذكور أعلاه.

(23) في العديد من المواقع صرّح أو أشار إلى نيله مقام الختم المحمدي الخاص. ينظر مثلا جوابه عن السؤال 13 من أسئلة الحكيم الترمذي (ج2ص49). وذكر نيله مقام القربة خلال توجهه لمراكش عام 597 في الباب 161 ف (ج2ص 260 - 262).

(24) ترجمة الأبيات من التركية إلى العربية للعارف الأكبري عبد الغني النابلسي.

البنية الكلية لكتاب الفتوحات المكية للشيخ الأكبر ابن العربي

تركيبة الفتوحات، كتركيبة الكون، مبناها على ثلاث حضرات كبرى كثيرا ما تكون متداخلة مع بعضها البعض، إنها: حضرة الأسماء الحسنى، وحضرة القرآن العظيم، وحضرة الحروف وأعدادها.

الأسماء الحسنى

كتاب الفتوحات يتشكل من ستة فصول تستمد من الأسماء الحسنى الأمهات. فأول تلك الأسماء وينبوع كمالاتها هو (الحي) وهو الساري في كل باب من أبواب الفتوحات كسريانه في كل شيء من مظاهر الوجود، لأن كل باب مظهر من مظاهر الحياة العرفانية. لكن له في بعض الأبواب مزيد من الظهور، خاصة الباب الأول والباب قبل الأخير. ففي الباب الأول بيان للروح الذي أخذ منه الشيخ علوم الفتوحات، أوَ ليست الحياة أخص صفت هذا الروح؟ وفي الباب 559 قبل الأخير خلاصة لكل باب من أبواب الفتوحات من حيث مسقط حقائقها الآفاقية في الإنسان الكامل الذي هو عين روح ذلك الباب الأول، وليس هو سوى روح القرآن العظيم الذي عبر عن حقيقته على لسان الشيخ قائلا:

أنـــا القـــرآن والـــسبع المثانـــي وروح الـــروح لا روح الأوانـــي

فكأن أبواب الفتوحات تضاهي مجموع مظاهر الوجود ظاهرا وباطنا بينما الباب 559 يضاهي الإنسان الكامل روح الوجود الكوني.

والباب الأول هو فاتحة الفصل الأول فصل المعارف المستمدة من الاسم الثاني من بين الأسماء الأئمة، وهو الاسم (العليم). فهذا الفصل يتألف زيادة على الباب الأول من 72 بابا تشتمل على العلوم الأساسية التي تهيئ السالك إلى ولوج ميدان العرفان السامي. وللعدد 72 دلالات، منها دلالته على عدد البسملة [1] التي

---

(1) بسم الله الرحمن الرحيم = 12+13+26+21 =)72 بحساب الجمل المشرقي الصغير). باعتبار ألف المد في (الله) و(الرحمن) وتضعيف الراء في (الرحمن الرحيم).

هي فاتحة أم الكتاب الجامعة لأمهات كل المعارف، ومنها دلالته على ضعف العدد 36 الذي يرمز إلى كمال دائرة المعرفة الإلٰهية بنصفيها التنزيهي والتشبيهي حسبما فصله الشيخ في بداية الباب 73، كما يرمز أيضا العدد 36 إلى تمام دائرة الوجود الكوني لأن عدد وجوه البروج في فلكها الأطلس المحيط هو 36 لكل برج ثلاثة وجوه (ينظرالفصل 19 من الباب 198). وأما في حضرة التوحيد القرآني فالعدد 36 هو عدد الآيات التي ظهرت فيها كلمة التوحيد حسبما فصلها وشرحها الشيخ في بدايات الباب 198. وضعف هذا العدد أي 72 هو الجامع لكل هذه الدلالات من حيث بعدها الظاهر وبعدها الباطن، أو من حيث مظهر المبنى ومظهر المعنى.

والملاحظ أن الأبواب الأولى من هذا الفصل الأول، خاصة الإشارات الحرفية في الأبواب الأربعة التالية للباب الأول، تتميز بالغموض الشديد بالنسبة لمن لم يكن متعمّقا في مصطلحات وأسلوب الشيخ الأكبر، وليس له رصيد علمي وعرفاني يسمح له بإدراك تلويحاته ورموزه. وكأنّ الشيخ جعل هذه الأبواب الأولى سدّا يمنع الذين ليس لهم طموح عرفاني حاد من الولوج في ميدان الفتوحات المفضي إلى آفاق عرفانية غير محدودة. لكن يمكن للقارئ أن يتجاوز هذه الأبواب المستعصية ويشرع مباشرة في قراءة الأبواب الأخرى التي تتلوها من هذا الفصل الأول إذ هي تتسم عموما بالوضوح والبيان.

وبعد أن يستوعب طالب المعرفة أبواب هذا الفصل الأول يصبح حينئذ مهيئا للولوج إلى مقامات المعاملات في أبواب الفصل الثاني، وهي التي يتحقق بها المريد السالك مستمدا من ثالث الأسماء الأئمة أي (المريد). والكمال العرفاني يستلزم أن لا يتحقق المحقق بحقيقة مقام إلا ويكون في وسعه التحقق بتركها أي بعدم الانحصار فيها والوقوف معها، ولهذا، في ترتيبه لجل تلك المقامات، لا يذكر الشيخ مقاما في باب إلا ويتلوه بباب خاص بترك ذلك المقام. هذا ويمكن اعتبار البابين الأولين من الفصل الثالث الخاص بالأحوال كباب واحد يشترك فيه الفصلان الثاني والثالث، وهو في معرفة المسافر وأحواله وفي معرفة السفر والطريق. وبهذا الاعتبار يكون عدد أبواب هذا الفصل الثاني 117، وهو عدد الأخلاق الإلٰهية كما فصلها الشيخ في الباب 73 خلال جوابه عن السؤال 48 من أسئلة الحكيم الترمذي، وهي تتناسب مع المائة وأربع عشرة سورة من القرآن العظيم مع التوراة والزبور والانجيل أي 114+3 =117.

ونشير إلى أن من أروع وأوسع أبواب هذا الفصل الباب 177 في مقام المعرفة، والباب 178 في مقام الحب، والباب 167 في معرفة كيمياء السعادة الذي قارن فيه بكيفية بديعة معراج السالك التابع لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - عبر مراتب الوجود وبين المعراج الفكري لصاحب النظر والاستدلال العقلي.

وحيث أن لكل مقام أحواله، فالفصل الثالث (من الباب 190 إلى الباب 269) يتألف حسب الاعتبار السابق من 79 بابا، 78 منها تفصّل الأحوال التي يتقلب فيها أهل السير بين جمال وجلال وكمال، لكل باب حال. ومن آثار الأحوال الربانية الكرامات التي هي مظهر القدرة الإلٰهية، فهي تستمد من الاسم (القدير) أي الاسم الرابع من الأسماء الأئمة السبعة. والعددان 78 و79 يدلان عند الشيخ الأكبر على عدة أمور منها ما ذكره في جوابه عن السؤال 75 من أسئلة الحكيم الترمذي في الباب 73، وهو: كم بين حظ محمد صلى الله عليه وسلم وحظوظ الأنبياء عليهم السلام؟ فيجيب: [وأما بينه وبين كل واحد منهم فثمانية وسبعون حظا ومقاما إلا آدم فإنه ما بينه وبين رسول الله صلى الله وسلم عليهما إلا مابين الظاهر والباطن... والحظوظ محصورة من حيث الأعمال في تسعة وسبعين....] ولهذا كان عدد درجات جنات الأعمال 79 أيضا (جوابه عن السؤال 74). وفي جوابه عن السؤال 84: كم أجزاء الصديقية؟ يقول كذلك أنها بضع وسبعون جزءا على عدد شعب الإيمان. وفي الفصل 27 من الباب 198 يربط الشيخ بين هذه الشعب وفواتح السور النورانية أي الحروف المقطعة الثمانية والسبعون الموزعة كفواتح لتسع وعشرين سورة على عدد المنازل الفلكية، أولها(الم) من سورة البقرة وآخرها (نون)من سورة القلم. ومن لطيف الاتفاق أن العدد 78 هو مجموع العددين بحساب الجمل الصغير والكبير للاسم الأعظم اسم الجلالة (الله) [1].

وأما باعتبار عدد أبواب هذا الفصل 80 كما هي عليه مفصلة، فهذا العدد يشير إلى تمام كمال الجمعية المالكة لكل الأحوال، لأن للجمعية حرف الميم وعدده 40، وتمام كمالها في ضعفه أي 80.

بعد أن يتحقق السالك بمعارف الفصل الأول، ويتحلى بمقامات معاملات

---

(1) الله = 12 بالصغير و66 بالكبير.

الفصل الثاني، ويملك أحوال الفصل الثالث، يكون أهلا للدخول إلى حضرة سماع المكالمة الإلٰهية بتجلي الاسم الخامس أي (السميع)، وذلك بواسطة سور القرآن العظيم في منازل الفصل الرابع الذي يتألف من 114 بابا، لكل سورة باب حسب ترتيبها الصاعد، أي بدءا من سورة الناس في منزل الباب 270 وانتهاء بسورة الفاتحة في منزل 383 وهو في معرفة منزل العظمة الجامعة للعظمات وهو من الحضرة المحمدية الاختصاصية. وفي آخر كل من هذه الأبواب يذكر الشيخ قائمة ببعض علوم منزله، ومرجع كل علم في آية من سورة المنزل. والعدد 114 هو عدد اسمه تعالى (جامع)، فالمتحقق بأبواب هذا الفصل يتحقق بالجمع القرآني.

والكمال عند الشيخ يستلزم جمع الأضداد في عين الوحدة، وبالتالي فالكمال العرفاني يحصل بالتفصيل الفرقاني في عين الجمع القرآني. هذا التفصيل الفرقاني هو موضوع المنازلات الخطابية المشكلة للأبواب الثمانية والسبعين المؤلفة للفصل الخامس المستمدة من الاسم السادس أي (البصير) الذي بتجليه في بصيرة العارف يتحول الخطاب إلى شهود ورؤية. ومنازلة كل باب تعبّر عن معنى معيّن يتجلى في قلب العارف من آية قرآنية معينة. وترتيب سور آيات هذه المنازلات مبني وفق تصميم خفي دقيق توضيحه يحتاج إلى بحث دقيق خاص.

وأخيرا لم يبق من الأسماء الأئمة السبعة إلا الاسم (المتكلم)، وذلك عبر هجّيرات الأقطاب في الفصل السادس الأخير المؤلف من 99 بابا على عدد الأسماء الحسنى أسماء الإحصاء، وهو الفصل الذي سماه الشيخ بفصل المقامات، أي مقامات الأقطاب المتجلية في هجّير كل واحد منهم، وهو عبارة عن آية قرآنية معينة هي روح مقام القطب ومحل شهوده. وقد بدأ هذا الفصل بالتعريف بالأقطاب المحمديين ومنازلهم (الباب 462) ثم بالاثني عشر قطبا الذين يدور بهم فلك العالم (الباب 463)، ثم انتقل إلى التعريف بهجّيرات واحد وتسعين قطبا، لكل قطب باب، على عدد كلمة (كمال)، ختمها في الباب 554 بهجير ختم الولاية المحمدية الخاصة؛ لكنه، لسر خاص أخفاه، عاد في الباب 556 إلى ذكر هجّير قطب أخير. وبذلك يكون مجموع عدد الهجيرات 92 أي على عدد اسم (محمد) صلى الله عليه وسلم، فهي تمثل مظاهر الكمال المحمدي. وأما الباب 555 فخصصه لمعرفة السبب الذي منعه من ذكر بقية الأقطاب من زمانه هو إلى يوم القيامة. وجعل الباب

557 لمعرفة ختم الأولياء على الإطلاق ويعني به عيسى- عليه السلام -عند نزوله آخر الزمان. ثم خصص الباب الواسع الرائع 558 للتعريف بمائة حضرة من حضرات الأسماء الحسنى، أولها الحضرة الجامعة للاسم الأعظم الله، والتسعة والتسعون الأخرى لباقي الأسماء. وبإدراك هذه الأسماء الحسنى تعلقا وتحققا وتخلقا يتم تتويج السالك، العارف الجامع بين قرآن الجمع وفرقان الوجود، بتاج كمال العبودية حسبما بيّنه في جوابه عن السؤال 86 من أسئلة الحكيم الترمذي: على كم سهم ثبتت العبودية؟ فيجيب الشيخ: على تسعة وتسعين سهما على عدد الأسماء الإلٰهية التي من أحصاها دخل الجنة، لكل اسم الهي عبودية تخصه.

وفي الختام، في الباب 560 الأخير، يختم الشيخ الأكبر صرح الفتوحات العظيم، بوصايا شرعية مستمدة من القرآن والسنة، كطابع لهذا الكتاب الرباني الفريد، وكتأكيد على أن كل ما ورد فيه ليس سوى نتيجة العمل الخالص بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وفي هذا المعنى يقول في الباب 88: [فأصل رياضتنا ومشاهدتنا وجميع أعمالنا التي أعطتنا هذه العلوم والآثار الظاهرة علينا إنما هو من عملنا بالكتاب والسنة.... وفيضنا روحاني وإلٰهي لكوننا سلكنا على طريقة إلٰهية تسمى شريعة فأوصلتنا إلى المشرع وهو الله تعالى لأنه جعلها طريقا إليه]. ولا تحصى نصوصه المؤكدة على ضرورة الالتزام الكامل الدقيق ظاهرا وباطنا بظاهر الشريعة وعقائدها وأحكامها. وقد كانت حياته الشخصية كما تظهر من سيرته نموذجا كاملا لهذه الالتزام.

والملاحظ أن الحقائق الكبرى التي يطرحها الشيخ في ثنايا أبواب الفتوحات تزداد عمقا وكثافة وأصالة وصراحة بالمرور من فصل إلى الفصل الذي يتلوه. فهي مثلا في أبواب الفصل السادس الأخير أعمق وأكثر صراحة منها في أبواب فصل المنازلات الخامس. وهي في هذا الأخير أكثر وأبرز منها في الفصل الرابع.

وأحيانا يطرح الشيخ مسألة ولا يعطي جوابها إلا بعيدا داخل أبواب أخرى.

ويبدوا أحيانا للقارئ السطحي أن في الكثير من كلامه تناقضا في العديد من المسائل. وهذه الرؤية السطحية خاطئة، لأن الشيخ لا يناقض نفسه أبدا، وإنما الوسع العرفاني الذي يريد أن يرفع إليه القارئ يجعله يتكلم على نفس المسألة في مستويات مختلفة من الإدراك، بل حتى في نفس المستوى يتكلم عنها من زوايا

للنظر مختلفة، فاختلافها لا يعني بتاتا تناقضها، بل يعني في كثير من الأحيان تكاملها، لأن الحقيقة المطلقة غير منحصرة في جانب واحد من الرؤية، ولا في مستوى واحد من الإدراك، وإنما هي في وحدتها تتجلى في أطياف كثيرة عبر مختلف مراتب الوجود الكوني والإنساني. وكثيرا ما كرّر الشيخ جواب أبي سعيد الخراز لما سئل: بما عرفت الله تعالى؟ فقال بجمعه بين الضدين، وتلا قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾. فهذه الجمعية العرفانية الواسعة هي التي يريد الشيخ أن يرفع إليها تحققا قارئ فتوحاته.

وبالتالي فالفتوحات ليست كتاب مطالعة لأفكار قد يقبلها أو يرفضها كما هو شأن الباحثين الأكاديميين، وإنما هي نبع رحيق تسنيم ينهل منه طالبوا العرفان أطيب زاد يعرجون به إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

حضرة القرآن العظيم

يقول الشيخ في الباب 366 المتعلق بسورة الكهف: [فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه. أعطيت مفتاح الفهم فيه والإمداد منه. وهذا كله حتى لا نخرج عنه. فإنه أرفع ما يمنح. ولا يعرف قدره إلا من ذاقه وشهد منزلته حالا من نفسه].

وفي مقدمة تصانيفه المستمدة كلها من القرآن كتاب الفتوحات المكية. فقد ذكرنا أن أبواب الفصل الرابع ترجع للسور، لكل سورة باب؛ كما أن لكل منازلة من أبواب الفصل الخامس آية خفية من سورة معينة ؛ وهجّير كل قطب من أبواب الفصل السادس آية جلية. وكذلك مقامات وأحوال الفصلين الثاني والثالث كلها تستمد من الآيات المذكورة في أبوابها. ونفس الشيء نجده في أبواب فصل المعارف الأول، فكل باب منه يتناسب مع سورة معينة، فمثلا الباب 22 في معرفة منزل المنازل يتناسب مع سورة الحجر، والباب 27 لسورة النور وهو في معرفة أقطاب صل فقد نويت وصالك، وأسرارهم التي عدَّدها في آخر الباب مرجعها لآيات منها.

وبمعرفة المفاتيح القرآنية للفتوحات، يتجلى تصميمها كصرح قرآني عظيم في غاية الإتقان والحسن والكمال. وهذه البنية القرآنية هي من الدوافع التي جعلت

الشيخ يصرح بأن ترتيب الفتوحات وما فيه منبعث من إلهام إلٰهي، فيقول في الباب 88: [فالله تعالى رتب على يدنا هذا الترتيب فتركناه ولم ندخل فيه برأينا ولا بعقولنا]. ويقول أيضا في الباب 373 الذي مرجعه لسورة هود: [فوالله ما كتبت منه حرفا إلا عن إملاء إلٰهي وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روع كياني، هذا جملة الأمر، مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا أنبياء (...) وإنما هو علم وحكمة وفهم عن الله فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله، وما خطه وكتبه في لوح الوجود من حروف العالم وكلمات الحق... وإنما قلنا ذلك لئلا يتوهم أني وأمثالي أدعي نبوة، لا والله ما بقي إلا مبشرات وسلوك على مدرجة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة].

حضرات الحروف وأعدادها

حروف القرآن العظيم هي لبنات كلمات آياته البينات التي تكلم بها الحق عز وجل. وبالتالي فصفات هذه الحروف تمثل تجليات لحقائق الحضرة الإلٰهية، ولها مظاهرها في الآفاق الكونية عبر مراتب الوجود لاسيما في عالم الإنسان المخلوق على صورة الرحمٰن، وبالخصوص في دوائر الولاية، حسبما فصله الشيخ في الباب الثاني والباب 73 والباب 198. وبالتالي فإن لكل كائن من الموجودات، التي ليست هي سوى مظاهر لكلمات الله التي لا تنفد، علاقة عميقة بالحروف المناسبة له ولمرتبته الوجودية، وصفاته تستمد من صفات تلك الحروف في مظاهرها اللفظية والفكرية والرقمية. ومن هنا جاءت الأهمية الكبرى عند الشيخ لعلم أسرار الحروف وعلاقتها بالأعداد المعبرة عن الانسجام الوجودي. وللإشارات العددية في الفتوحات مجال واسع متنوع يظهر أحيانا حتى في أعداد أبيات الشعر التي يفتتح بها كل باب، وفي رقم الباب نفسه.

وجل مكتوبات الشيخ الأكبر تتمحور حول المواضيع الأربعة التالية:

- المواضيع المتعلقة بمعرفة الوجود الحق من خلال تجلياته الذاتية والصفاتية والفعلية.
- المواضيع المتعلقة بكلام الحق عز وجل في مظهره القرآني الجمعي الإجمالي، وفي مظاهره الفرقانية التفصيلية وتطبيقاتها الشرعية.
- المواضيع المتعلقة بمراتب الوجود والسنن الكونية.

- المواضيع المتعلقة بالحضرة الجامعة التي هي حضرة الإنسان الكامل، ومدارج السلوك المفضية إلى التحقق بهذا الكمال عبر مقامات الولاية.

وهذه الأقسام الأربعة وجوه مختلفة لحقيقة واحدة لا نهاية لكمالاتها، لأن كل الآيات المبثوثة في الآفاق ليست سوى انعكاسات لحقائق الجمعية الإنسانية المعبر عنها بالإنسان الكامل، أو بكلمة الله العليا، وعلى هذا تكون الآيات الآفاقية والإنسان الكامل المظهر الأتم للآيات القرآنية التي هي مجالي الأنوار الأسمائية الحسنى. وبعبارة أخرى: إزار العظمة المنشور في آيات الآفاق، ورداء الكبرياء المطوي في الإنسان الكامل هما نسيج آيات القرآن بأنوار الأسماء الحسنى الطالعة من شمس الذات.

أما صور التراكيب الرابطة بين كل هذه التجليات، والمؤلفة بينها، فلها مظهران: مظهر كيفي يكمن في الصورة الرقمية اللفظية لأحرف وكلمات الكتاب الحكيم، ومظهر كمي يكمن في قيمها العددية.

إن البداية تتمثل في صدور كلمة «بسم الله الرحمٰن الرحيم» في صورة الأمر التكويني:« كن» المتوجه على الأعيان الثابتة في العلم القديم والآن الدائم لتظهر الممكنات في عوالم الحكمة والقيود. ولولا نور اسم الذات «الله» المهيمن على سائر الأسماء الأخرى، ومقتضى الرحمتين العامة في الرحمٰن، والخاصة في الرحيم، ما كانت الأشياء لتظهر لذواتها متميزة عن بعضها. وقد عبر أهل المعرفة عن هذا النور الأول ومنبع الرحمتين بالحقيقة المحمدية، التي هي عين حقيقة القرآن العظيم:

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾- 81 الزخرف -

ويمكن القول بأن معاني الكلمات وخصائص الحروف المركبة لها هي المظهر الكيفي لتلك التجليات، وأن القيم العددية الموافقة لها هي المظهر الكمي لها. والمظهر الكيفي يستمد مدده من نور الاسم « المدبر»، وأما المظهر الكمي فيستمد مادته من نور اسمه تعالى «المفصل». قال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ - 2 الرعد -. ومرجع الكيف إلى الأمر الواحد المذكور في الآية 50 من سورة القمر: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾. ومرجع الكم إلى تعدد

الصور بتجدد الخلق كما في الآية 29 من سورة الرحمٰن: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وفي الآية 15 من سورة ق: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

إن الحروف المركبة لكلمات الوجود هي عبارة عن المعلومات الإلٰهية، أي الأعيان الثابتة في الآن الدائم حيث لا فرق بين الحرف وعدده الموافق، إذ كل منهما مرآة للآخر في مظهري الكيف والكم. ثم إن هذه الحروف العاليات التي هي عين الكائنات تتنزل بالنَفَس الرحماني من حضرة الثبوت في العلم الإلٰهي إلى مختلف مستويات الظهور العيني في سلسلة مراتب الوجود.

وبناء على هذا، فإن لعلم الحروف ثلاثة مستويات أساسية:

ففي مستواه الأعلى هو عين معرفة الأشياء كلها من حيث حقائقها وأعيانها الثابتة في العلم القديم المحيط.

وفي مستواه الأوسط هو معرفة تسلسل مراتب الظهور العيني الخلقي عبر دوائر الحكمة والقدرة.

وفي مستواه الأدنى هو معرفة خواص الأسماء والأعداد فيما هي معبرة عن طبائع الذوات، وهي معرفة تمكن من التأثير بالخاصية في تلك الذوات والحوادث المتعلقة بها.

ومن هذا التطابق، توجد في اللغات المقدسة التي تكلم بها الحق تعالى - وفي مقدمتها لغة الكتاب الجامع والنبي الخاتم أي العربية القرآنية - علاقة عضوية في غاية اللطافة والعمق والمتانة بين الاسم والمسمى من جهة، وبين الحروف والكلمات وأعدادها من جهة ثانية، ومن جهة أخرى بين معاني الكلمات ورمزية وخواص وطبائع الحروف المركبة لها، إلى درجة أنه لا مطمع في إدراك ما يكمن في بواطنها من الحقائق دون اعتبار قيمها العددية وخواصها الطبيعية المرتبطة بطبائع الأفلاك، ودلالاتها اللفظية من حيث النَفَس، والرقمية من حيث الرسم والشكل، والصورية من حيث الفكر والخيال.

ففي الباب 198مثلا المتعلق بنَفَس الرحمٰن بيان للأسماء الحسنى المنسقة للتناسب بين مراتب الوجود، والحروف اللفظية، والحروف الرقمية، ومظاهر الإنسان الكامل، والمنازل الفلكية، بحيث تبدو هذه المنازل كمساقط لدرجات السلم الوجودي العمودي على أقسام الكرة الفلكية، وتبدو مخارج الحروف اللفظية

في نفس الإنسان كصور لحضرات الأحرف العلوية في مدارج نَفَس الرحمٰن.

وبهذا الاعتبار يظهر الحرف والعدد كرحيق التسنيم الناتج عن تداخل أنوار الأسماء الإلٰهية المنعكسة على مرآة الوجود. والقواعد النحوية والصرفية للغة العربية وحروفها وكلماتها، خصوصا القرآنية منها، مطابقة تمام المطابقة لحقائق الوجود وتراكيب مختلف النشآت. حتى انه من تراكيب الحروف مع أعدادها يستخرج أهل هذا العلم كل الحوادث التي تجري في العالم الكوني والإنساني. وقد استنبط الشيخ الأكبر سنة استرجاع المسلمين القدس من الصليبيين - أي سنة583هـ - من الآية الأولى من سورة الروم، وسنة انتصار جيش الموحدين على المسيحيين في الأندلس - أي سنة591هـ - من الآية الأولى من سورة الفتح (ينظر حضرة الاسم الفتاح من الباب 559من الفتوحات).

فعلم الحروف هو علم ميزان حقائق الوجود، الذي يمكّن من العثور على مفاتيح كل المعارف من خلال فحص العناصر المكونة للكلمات وحروفها. وهو علم علماء كبار الأولياء الذين أوتوا منطق الطير السرياني، وهو اللغة المشتركة بين العلوم الإلٰهية ومعارف النشآت الكونية والإنسانية وأسرار الحقائق القرآنية، ومدارج السلوك عبر معارج الولاية في مقاماتها وأحوالها. وبه تظهر الروابط بين مبادئ الظهور وأصول التكوين وتناسبها مع الحروف والكلمات وأعدادها، ومع دوران الدراري والنجوم في أفلاكها، ومع العناصر وطبائعها، كل ذلك في نسق من الانسجام الوجودي المطلق الذي لانهاية لجماله وعظمته وكماله. وكما قيل: تحت خمار الغيرة للحرف تتأجج نار الحب بين الهو والذات.

وقد تكلم الشيخ في كثير من تآليفه عن أسرار الحروف والأعداد، وخصص لها في الفتوحات الباب الثاني، وذكر بعض مسائلها في الأبواب: 198/26/20 وأجوبته عن أسئلة الترمذي في الباب73: (الاسئلة39 - 40 - 41 - 42) فهو مثلا يقول في الباب109 [إن عدد المقامات وأسرار كل اسم بقدر ما لحروفه من العدد. ولا يعتبر فيه إلا اللفظ العربي القرشي لأنه لغة أهل الجنة، سواء كان أصلا وهو البناء أو فرعا وهو الإعراب. وغير العربي والمعرب لا يلتفت إليه. وهو قولهم لكل موجود من اسمه نصيب.]

- ويقول أيضا (ب131): [فالعدد حكمه مقدم على حكم كل حاكم.]

- ويقول إن منازل الفلك28 لأن الحروف 28 وليس العكس كما يتوهم بعض الناس، لأن الحروف صور لكلام الله القديم والمنازل الفلكية حادثة، والحادث تابع للقديم وليس العكس (ب198 فصل20).

- ولذلك أيضا فالملائكة خزنة جهنم هم 19 على عدد الحروف الرقمية للبسملة (ب271). وكذلك خزنة العالم في الدنيا وفي الجنة (7سموات +12 برج).

- وأفلاك التكوين تسعة (7سماوات +فلك الكواكب+فلك البروج) لأن تفصيل كلمة التكوين الإلٰهي: كن (كاف واو نون) يعطي 9 حروف (ب20).

ولحساب أعداد الحروف عدة طرق أشهرها:

- الحسابان المشرقي والمغربي. ولا يختلفان إلا في أعداد ستة حروف تقع في النصف الثاني من ترتيبها الأبجدي أي في المنازل الفلكية الواقعة بين برجي الميزان والحوت. وهو الشطر الفلكي المناسب لعالم الأرواح والغيب أو الليل وفصلي الخريف والشتاء. وهذا الاستقطاب شرق غرب ظهرعند الكرسي - أو فلك المنازل المكوكب أو سور الأعراف - عندما تتثنى الكلمة العرشية النازلة بالأمر الواحد إلى مظهرين. ويبدو أن هذا الاستقطاب قد ظهر في عالم الإنسان عند مرور الأبجدية من 22حرفا. كما هي في اللغة العبرية - إلى 28حرفا كما هي في اللغة العربية.

*فالحساب المغربي لأهل الأسرار والآيات الغيبية في الأنفس والأرواح من رداء الكبرياء، وفي الشطرالباطن من دائرة الوجود.

*والحساب المشرقي لأهل الأنوار والآيات الظاهرة في الآفاق الكونية من إزار العظمة، وفي الشطرالظاهر من الوجود.

*والحساب الكبير - سواء منه المشرقي والمغربي - وفيه الآحاد والعشرات والمئات، يتعلق خصوصا بمظاهر التفصيل الكوني في حضرات الصفات والأسماء والأفعال.

*والحساب الصغير - المشرقي والمغربي - وليس فيه سوى الآحاد من 1 إلى9 يتعلق خصوصا بمظاهر الإجمال الإنساني في حضرات الذات.

وقد فصّل الشيخ الفرق بين دلالات الحسابين الكبير والصغير في الباب الثاني من الفتوحات فقال ما خلاصته: [وفائدة الأعداد عندنا في طريقنا الذي تكمل

به سعادتنا أن المحقق والمريد إذا أخذ حرفا أضاف الجزم الكبير إلى الجزم الصغير. مثل أن يضيف إلى القاف الذي هو 100 بالكبير وواحد بالصغير - فيجعل أبدا عدد الجزم الصغير فيرده إلى ذاته، وأما عدد الجزم الكبير فيرده إلى الواردات المطلوبة له...] ثم بيّن دلالات كل عدد من أعداد الجزمين.

من ناحية أخرى:

- حساب الحروف الرقمية يتعلق خصوصا بالصورة والعرض والظرف. وحساب الحروف اللفظية يتعلق خصوصا بالروح والجوهر والمظروف. والضرب أو الجمع بين الحسابين في نفس الكلمة أو في نفس الجملة يتعلق بعلاقة الروح بصورتها أو المظروف بظرفه.

وفي هذا المقام أنشد الشيخ الأكبر:

إن الوجـود لحـرف أنـت معـناه ... ولـيس لـي فـي الكـون إلا هـو

الحرف معنى ومعنى الحرف ساكنه ... ومـا تـشاهد عـين غيـر معـناه

ونعطي مثالا في غاية البساطة عن دلالة أعداد تتعلق بالفتوحات وهي 6 و560 و561. فعدد فصول الكتاب ستة، والشيخ يقول أن الستة هي أول عدد تام أي يساوي تماما مجموع أجزائه 6=3+2+1، فهي أصل كل تمام في الوجود. والأسماء الأمهات المتوجهة على إيجاد العالم ستة وهي: العالم المريد القادر القائل الجواد المقسط (الباب الرابع). والعدد ستة هو عدد أيام الخلق وعدد الجهات، وهو أيضا عدد الحضرات التي اختص بها أهل المجالس والحديث من الأولياء، حسبما فصلها الشيخ في جوابه عن السؤال الخامس من أسئلة الترمذي (الباب 73) وهو: أين مقام أهل المجالس والحديث؟ والشيخ يشير بتلك الحضرات الست إلى الصلوات الخمس مع الوتر. والعدد ستة هو عدد آخر الحروف حسب ترتيب مخارجها، أي الواو الحامل لكل قوى الحروف حسبما فصله الشيخ في كتابه (الميم والواو والنون)، وهو بالتالي من الرموز الأساسية للإنسان الكامل الجامع لحقائق الوجود وغاية نفس الرحمٰن، فهو روح الكون والروح منبع الحياة، كما أن للواو الرفع في الحركات فهو رمز لحياة الأرواح العلوية أو للمقامات الملكية لاسيما الروح جبريل عليه السلام ذو الأجنحة الستمائة وهوالنازل على الأنبياء بروح الشرائع.

وأما العدد 560، عدد أبواب الفتوحات، فهو عدد كلمات سورة الفتح التي خصص لها الشيخ الباب 336 تحت عنوان: في معرفة منزل مبايعة النبات القطب. وهو عدد كلمة (تسنيم) أي شراب المقرّبين في الآية 27 من سورة المطففين. وهو أيضا عدد كلمة (رفرف) التي تشير عند الشيخ إلى المقامات العلوية أو مدارج الجنان أو المراتب الملائكية كما يلوّح إليه في عنوان الباب 381 المتعلّق بسورة آل عمران وعنوانه: في معرفة منزل التوحيد والجمع ويحتوي على خمسة آلاف مقام رفرفي. يشير بهذا إلى آيتها 125: (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين). وبإضافة 29 - أي عدد الحروف مع لام ألف - إلى 560 يصبح المجموع 589 وهو عند الشيخ العدد الثابت للأولياء في كل زمان لا يزيد ولا ينقص، أي الأولياء الموزعون بأعداد معيّنة على35 طبقة ثابتة فصّلها في الباب 73. ثم إن العدد 560 هو عدد كلمة (النَفَس الرحمٰني) الذي ظهرت فيه مراتب الوجود وقد خصص الشيخ له ولرجاله عدّة أبواب أوسعها الباب 198. وأخيرا فالعدد 560 هو عدد جملة (جامع العلوم الأكبريه).

وباعتبار ألف المدّ في كلمة (الرحماني) يكون عدد كلمة (النفس الرحماني 561) أي عدد أبواب الفتوحات باعتبار الخطبة والمقدّمة بابا مستقلا. وصورة هذا العدد في المرآة 165 الذي هو (لا إلٰه إلا الله)، أي أن كل ما في الفتوحات ما هو إلا صورة لبعض حقائق هذه الكلمة المشرفة. وأخيرا فإن العدد 561 هو عدد الجملة: (لا إلٰه إلا الله إسلام قلب محمد) إذ أن عدد كل من الكلمات (إسلام) و(قلب) و(محمد) بتضعيف الميم الثانية يساوي 132 الذي هو ضعف 66 عدد اسم الجلالة الأعظم (الله).

شعر الشيخ في الفتوحات المكية

يقول الشيخ في إحدى قصائد ديوانه:

الشعر بين محمود ومذموم ... لذا أتى ربنا فيه بتقسيم

في كل واد تراه جائلا أبدا ... يهيم فيه لإيصال وتفهيم

لو يعلم الناس ما القرآن جاء به ... فيه لقالوا به في كل منظوم

من فتوح العبارة تدفق الشعر غزيرا فياضا من روح الشيخ على لسانه فنظم

أزيد من خمسين ألف بيت. وفي الفتوحات وحدها نحو 7100 بيت. وله مجموعات شعرية مستقلة كديوان (ترجمان الأشواق) وجزء الزينبيات وديوان: (إنزال الغيوب على سرائر القلوب).

وقبل وفاته بنحو أربع سنوات، جمع الشيخ جل أشعاره في ديوان ضخم واحد عنوانه (ديوان المعارف الإلٰهية واللطائف الروحانية في بعض ما لنا من النظم)، وجعل له مقدمة رائعة يذكر فيها سبب نظمه للشعر، ويبدؤها بقوله:

[الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، وأنزل المقادير والأوزان، وأبدع الأرواح وخلق الأبدان، ورتب الأمور في جميع الأكوان، على أحسن نظام وأبدع إتقان، عطف بآخره على أوله، وألحق أبده في نفي النهاية بأزله، وجعله متجانس الصور متماثل السور، فكأنه قريض على رُويّ التوحيد، ينطق بلسان التحميد، فهو كلماته التي لا تنفد، وسلطانه الذي لا يبعد، جعل الوجود سبحانه كبيت الشعر في التركيب والنظم، وخصه بما خص به الشعر من الحكم، فجعله قائما على سببين، محفوظا بوتدين: سبب خفيف وهو عالم الأرواح، وسبب ثقيل وهو عالم الأشباح، ووتد مجموع وهو حال التركيب والإنشاء، ووتد مفروق وهو حال تحلل الأجزاء، فمدار جميع الخلائق على هذه الحقائق (...) النظم هو الجوهر الثابت، والنثر هو الفرع النابت، لا يظهر نثر إلا في عالم الكون، لا في حضرة العين، وإذا حُقق هذا الأمر، فما ثم نثر؛ أليس الشعر عين المقادير والأوزان؟ فانظر فيه تجده في وجود الأعيان. أين أنت من قوله ﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾، ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾، ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ (...) وما منع النبي ﷺ من الشعر لهوانه، ولا لانحطاط مكانته ومكانه، لكن لما كان مبنيا على الإشارات والرموز، فإنه من الشعور، والمطلوب من الرسول البيان للكافة بأوضح العبارات. لهذا لم يجيء به الرسول. فما قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ ﴾ إلا لأجل قولهم إنه شاعر، فأخبر الله تعالى أن الذي جاء به من عند الله وعلمه، إنما هو ذكر وقرآن مبين، ما هو شعر كما زعمتم، وما في هذا ذم للشعر ولا حمد، وإنما جاء ليبين ما أرسل به فهو إنباء وحقيقة.

وكان سبب تلفظي بالشعر أني رأيت في الواقعة ملكا جاءني بقطعة نور

بيضاء كأنها قطعة نور الشمس فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: سورة الشعراء. فابتلعتها، فأحسست بشعرة انبعثت من صدري إلى حلقي إلى فمي حيوانا لها رأس ولسان وعينان وشفتان، فامتدت من فمي إلى أن ضربت برأسها الأفقين، أفق المشرق والمغرب، ثم انقبضت ورجعت إلى صدري. فعلمت أن كلامي يبلغ المشرق والمغرب، ورجعت إلى حسي وأنا أتلفظ بالشعر من غير روية ولا فكرة ومازال الإمداد علي هلم جرا. فلأجل هذا المشهد الأسنى، قيدت ما تيسر على ذكري في هذا الديوان، والذي فاتني أكثر، فكل ما فيه بحمد الله إنما هو إلقاء إلٰهي ونفث قدسي روحي، وورث علوي وإحساني. فالمشكور خالقه لا كاسبه، والعبد الضعيف مقيده وكاتبه (...) وربما يقع في هذا النظم ذكر قوم من العارفين وغيرهم على طريق المدح والتزكية والغزل والتشبيب، وليس المراد الشخص المذكور وإنما المراد اسم ذلك الشخص من الأسماء الإلٰهية المحجوبة بحُجب الأنوار كعبد العزيز وهو حال العبد في مشهد العزة الإلٰهية وشبه هذا، (...) قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (...) فإذا أثنيت فإنما أثني على الحال والمقام الذي لا يقبل التعبير، فإن الكلام على المقامات وما تعطيه هو شأن المحققين، ليس الكلام في الناس من شانهم. وكذلك إذا وقع في ديواني هذا ما يتعلق بالغزل والتشبيب والخمور ومجالس الأنس والنساء وأسمائهن والغلمان، فليس المقصود بذكري ما يذهب إليه الشعراء من الغزل في أعيان المذكورين، وإنما قصدي علوما إلٰهية وأسرارا ربانية. وقد شرحت بعض ما ذكرته في جزء لنا سميناه (الذخائر والأعلاق)، شرحنا به ما قصدناه بالغزل في جزء لنا فيه يسمى (ترجمان الأشواق) (...) وليس في كلامي كله منثورة ومنظومة واو ولا كلمة ولا حرف زائد ولا حشو أصلا، فما أقصد منه حرفا ولا ترتيبا خاصا إلا لمعنى. وإني لا أرى المنطقَ إلا الله ولا يفعل شيئا عبثا ولا أمرا لغير حكمة. وإن لم يفهم ذلك الغير فلا أبالي. وإذا سُئلت عن شيء من ذلك بينتُه. وقد سُئلت وأبنت عن ذلك غير مرة، ولا يعطى طريقنا غير هذا. وبهذا يزيد أهل الله عن كل من عبّر عن شيء، وإلا فبماذا يتميز عن عامة الناس؟ و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾. وقد حصلت له هذه الواقعة في خلوة دخلها حسبما ذكره في الباب 358 من

الفتوحات المتعلق بسورة الشعراء والذي افتتحه بقوله:

[إنّ المقاديـــــر أوزان مـــــنظمة تأتـي بهـا ظلـل مـن فـوقها ظلـل
مـن الغمـام ومـن غيـر الغمـام يُـرى عـند التنـزل فـي أعجازهـا كلـل
تحـوي على كـل معنى ليس يظهره إلا الخطابـة والأشـعار والمـثُل
فمـنه مـا هـو محمـود فمـرتفع ومـنه مـا هـو مذمـوم فمنـسفل
ومـن ينازعنـي فـيما أفـوه بـه فالـناس كلهـم أعـداء مـا جهلـوا]

وما تلك الشمس التي اقتبس من شعاعها شعرة الشعر إلا شمس فتوح العبارة من المقام المحمدي الذي ورثه وعبّر عنه في خطبة الفتوحات. حيث خاطبه رسول الله ﷺ قائلا: [فإنّ فيك شعرة مني لا صبر لها عنّي، هي السلطانة في ذاتيتك، فلا ترجع إليّ إلاّ بكليتك، ولابدّ لها من الرجوع إلى اللقاء، فإنها ليست من عالم الشقاء، فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلا سعد]. وهذا هو مقام خاتم الولاية المحمدية الذي نبّه الشيخ على صلته بتلك الشعرة في قوله عنه (ب 382): [ومنزلته من رسول الله ﷺ منزلة شعرة واحدة من جسده ﷺ. ولهذا يشعر به إجمالا، ولا يُعلم به تفصيلا إلا من أعلمه الله به أو صدّقه إن عرّفه بنفسه في دعواه ذلك].

ذكر الشيخ هذا في الباب 382 المتعلق بسورة البقرة التي هي خاتمة القرآن وفيها آية الكرسي سيدة آي القرآن. فللمناسبة بينها وبين ختمية وسيادة الخاتم المحمدي ذكر ذلك في منزلها، وإليها يشير بقوله في هذا الباب: [ولّما وصلت في جماعة الواصلين من أهل زماني إلى هذا الباب الإلٰهي، وجدته مفتوحا ما عليه حاجب ولا بواب، فوقفت عنده إلى أن خُلع عليّ خلعة الوراثة النبوية. ورأيت خوخة مغلقة، فأردت قرعها، فقيل لي: لا تقرع فإنها لا تفتح. فقلت: فلأي شيء وُضعت؟ قيل لي: هذه الخوخة التي اختص بها الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولّما أكمل الدّين أغلقت، ومن هذا الباب كانت تخلع على الأنبياء خلع الشرائع. ثم إني التفت إلى الباب، فرأيته جسما شفافا يكشف ما وراءه. فرأيت ذلك الكشف عين الفهم الذي للورثة في الشرائع وما يؤدي إليه اجتهاد المجتهدين في الأحكام. فلازمت تلك الخوخة والنظر فيما وراء ذلك الباب، فجليت لي صور المعلومات على ما هي عليه، فذلك عين الفتح الذي يجده العلماء في بواطنهم، ولا يعلمون من أين حصل لهم، إلا إن كوشفوا على ما كشف لنا]. فانظر كيف قرن الشيخ وصول

الواصلين بتحققهم بخاتمة سور القرآن.

وفي غالب الأحيان، يقول الشيخ بأنّ قصائده تنساب على لسانه من غير فكر ولا روية يقظة أو مناما، كالقصيدة التي نظمها في مدح الأنصار بأمرمن النبي ﷺ (ب 49) أو كالأبيات الأربعة التي افتتح بها الباب 132 في معرفة مقام الاستقامة وقال عنها: [جاءت هذه الأبيات لزوم ما لا يلزم من غير قصد، وكذلك أمثالها، فإنّما أنطق بما يجريه الله فينا من غير تعمل ولا روية].

كذلك في الباب 353 المتعلق بسورة لقمان، يذكر واقعة علمية يقول إثرها [ولما فرغ هذا الإلقاء الإلٰهي والتعريف الرباني وسكن عندي ما كنت أجده من ألم هذا التجلي في هذه الصورة وسُرّي عني، نظمت نظم إلهام لا نظم رويّة ما أذكره:

لـــنا حبـــيب نـــزيه لا أســـميه وهـو الحبيب الـذي حار الـورى فيه

إلى آخر الأبيات...

وقد عبّر الشيخ بالشعر عن الحقائق والمشاعر والأذواق والإشارات التي لا يسمح النثر بها، فاستعمل كل أنواع البحور والموشحات بمختلف أشكالها. يؤكد هذا المعنى في الباب 273 المتعلق بسورة الشمس، فيقول عن القصيدة التي افتتح بها الباب: [اعلم أيدنا الله وإياك أنّ هذه القصيدة وكل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها إجمال ما يأتي مفصّلا في نثر الباب والكلام عليه، بل الشعر في نفسه من جملة شرح ذلك الباب، فلا تكرر في الكلام الذي يأتي بعد الشعر. فلينظر الشعر في شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه. ففي الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس في الكلام عليه بطريق النثر، وهي مسائل مفردات تستقل كل مسألة في الغالب بنفسها، إلا أن يكون بين المسألتين رابط فيطلب بعضها بعضا].

والقصيدة التي افتتح بها هذا الباب المتعلق بسورة الشمس تحتوى على 56 بيتا. بينما عدد كلمات السورة بلا بسملة 58. فجاء عدد الأبيات وسطا بينهما من حيث اعتبار البسملة كآية من السورة أو عدم اعتبارها. وهذا العدد هو ضعف 28 عدد المنازل الفلكية المتعلقة بالشمس والقمر واختار في تلك القصيدة قافية (ها)، إشارة إلى الحرف الذي تنتهي به آيات السورة. فلكل كلمة عند الشيخ دلالات دقيقة. وحتى عدد أبيات القصيدة، وأحيانا حتى عدد كلماتها وحروفها، له دلالات. لكن هذا الجانب يدخل ضمن الخفي من تلويحات الشيخ. فمثلا نجده يفتتح الباب 69 من

الفتوحات الخاص بالصلاة بـ: 17 بيتا، لأنّ 17 هو عدد الركعات المفروضة يوميا. ويفتح الباب 70 الخاص بالزكاة بسبعة أبيات إشارة إلى بركة الزكاة المذكورة في الآية 261 من سورة البقرة: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾.

مثال آخر: بعد أن أنهى الشيخ الباب 415 من الفتوحات بكلمته المعتادة ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾، أضاف جملة هي: [واجعل بالك في كل منظوم في أول كل باب من أبواب هذا الكتاب، فإنّه يتضمن من علوم ذلك الباب على قدر ما أردت أن أنبّه فيه عليها، تجد في النظم ما ليس في الكلام في ذلك الباب، فتزيد علما بما هو عليه ما ذكرته في النظم وعلى الله قصد السبيل] ثم يدخل في الباب التالي 416 الذي عنوانه (في معرفة منازلة عين القلب) وهو راجع لسورة الإسراء حسب الترتب الخفي لأبواب الفصل الخامس من الفتوحات. ومعلوم أنّ عين القلب هي واسطة الرؤية أو الرؤيا. فيفتح الشيخ هذا الباب بستة أبيات مؤلفة من ستين كلمة. والملاحظ أنّ الآية 60 من الإسراء هي التي تتكلم عن الرؤيا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾. كما أن كلمة " لنريه " في آياتها الأولى ترد بعد نحو ستين حرفا من بدايتها.

وفي كتابه الكبير حول ذي النون المصري (ت: 266هـ) وعنوانه: (الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري)، نظم الشيخ قصيدة في مدح ذي النون تتألف من 38 بيتا. فلماذا اختار لها هذا العدد؟ الجواب هو أن العدد 38 هو مجموع أعداد حروف (ذو النون) بحساب الجمل الصغير وباعتبار تضعيف النون الأولى. كما نجد في ديوانه الكبير قصيدة رثاء ومدح للشيخ أبي مدين (ت: 589هـ)، تتألف من 51 بيتا، لأن هذا العدد هو مجموع أعداد حروف لقبه واسمه، (أبي النجا شعيب أبي مدين = 4+18+11+4+14=51). وقد ذكر الشيخ في الباب 24 أن لقب أبي مدين هو: (أبو النجا).

ونظرا لعلاقة الشعر بالخيال، فقد خصّص الشيخ فقرة رمزية خيالية حول الشعر في الباب الثامن من الفتوحات الذي يصف عوالم المثال والبرزخ والخيال في أرض الحقيقة أو السمسمة التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام فقال:

[ورأيت في هذه الأرض بحرا من تراب يجري مثل ما يجري الماء. ورأيت حجارة صغارا وكبارا يجري بعضها إلى بعض كما يجري الحديد إلى المغناطيس، وليس في قوته أن يمتنع. فإذا ترك وطبعه جرت بعضه على بعض على مقدار من المساحة مخصوص، فتنضم هذه الحجارة بعضها على بعض، فينشأ منها صورة سفينة. ورأيت منها مركبا صغيرا وشينبين، فإذا التأمت السفينة من تلك الحجارة، رموا بها في بحر التراب وركبوا فيها وسافروا حيث يشتهون] إلى آخر ما وصفه... فأشار ببحر التراب إلى بحور الشعر، وأشار بالحجارة إلى الكلمات والحروف، وأشار بالسفينة إلى القصيدة.

وكما قارن الشيخ في مقدمة ديوانه الكبير بين بُنية بيت الكون، كذلك قارن بينها وبين بُنية الإنسان. فهو يقول: إن السالك العارج بروحه في السماوات يكشف في كل سماء عن أنواع من العلوم. والشعر مخصوص بالسماء الثالثة التي لها كوكب الزهرة وقطبها يوسف ﷺ، فهي سماء الحسن والجمال. ويقول في ذلك ما خلاصته (الباب 167): [من علوم هذه السماء علم التعبير للمرائي والتمثل والخيال وأرض السمسمة التي خلقها الله من بقية طينة آدم ﷺ، وسوق الجنة، وعلوم الإتقان والحسن والترتيب الحكيم. ومن هذه السماء يكون الإمداد للشعراء والنظم والصور الهندسية في الأجسام. ومنها ظهرت في هذه النشأة الجسمية الأخلاط الأربعة على النظم الأحسن فجعل مما يلي النفس المدبرة الصفراء، ثم يليها الدم، ويليه البلغم ويليه السوداء، كما ظهرت الأربعة الأصول التي يقوم عليها بيت الشعر كما قام الجسد على الأربعة الأخلاط. فالوتد المفروق يعطي التحليل، والوتد المجموع يعطي التركيب، والسبب الخفيف يعطي الروح، والسبب الثقيل يعطي الجسم، وبالمجموع يكون الإنسان (...) وكذلك السماع الطبيعي مبناه على أربعة أمور محققة. فإن الطبيعة مربعة معقولة من فاعلين - يعني الحرارة والبرودة - ومنفعلين - يعني اليبوسة والرطوبة -. فأظهرت الأركان الأربعة، أي النار والهواء والماء والتراب. ولكل خلط من أخلاط الجسم الأربعة نغمة مخصوصة تحركه وهو علم الألحان والأوزان بالبمّ والزير والمثنى والمثلث كل واحد من هذه يحرك خلطا ما بين حركة فرح وحركة بكاء وأنواع الحركات..].

ملحق

في ما يلي أعداد الحروف في حساب الجمل المشرقي الكبير، وما بين قوسين هو عددها بحساب الجمل المغربي الكبير، ولا يوجد اختلاف بينهما إلا بالنسبة لستة حروف. وأما أعداد الحروف في حساب الجمل الصغير، سواء المشرقي أوالمغربي فيكفي إزالة الأصفار من العشرات والمئات والألف، بحيث لاتبقى إلا الآحاد من واحد إلى تسعة، مثلا: بالحساب الكبير: أ - 1 / ي -10 / ق - 100 / غ (بالمشرقي) - 1000. وبالحساب الصغير كل من هذه الحروف الأربعة يساوي واحد. مثال آخر، بالحساب الكبير ج=3/ ل- 30 / س- 300 بالمغربي. وبالحساب الصغير كل من هذه الحروف الثلاثة يساوي ثلاثة.

أ-1 /ب=2/ج=3/د=4/ه=5/و=6/ز=7/ح=8/ط=9/ي=10/ك=20/ل=30 /م=40/ ن=50/س=60(300)/ ع=70/ف=80/ص=90(60)/ق=100/ر=200 /ش=300(1000)/ت=400/ ث=500/خ=600/ذ=700/ض=800(90) / ظ=900(800)/غ=1000(900).

مفاتيح الفهم السليم للشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

الملاحظ أن في الكثير من الدراسات حول الشيخ الأكبر، تنسب إليه مفاهيم مناقضة تماما لنصوصه الصريحة الكثيرة، فضلا عن تلويحاته وإشاراته، ومعاكسة تماما لسيرته من بدايتها إلى نهايتها. ولهذا الفهم السيئ أسباب يمكن تصنيفها إلى نوعين:

الأول: ضعف الكفاءة العلمية الذي يبدي نصوص الشيخ وكأنها مجموعات من الألغاز المطلسمة التي لا جدوى من محاولة حلها، أو الأقوال المتناقضة والشاطحة.

الثاني: ضعف الكفاءة الروحية الذي يتسبب في سوء الفهم للمفاهيم الأكبرية نتيجة ضيق الإدراك أحيانا، أو عدم القدرة عن التجرد من الأفكار والمواقف المسبقة، وحتى سوء النية والتعصب أحيانا أخرى، لاسيما أنّ الحقائق العليا التي عبّر عنها الشيخ الأكبر، وتجاربه الروحية الفريدة، هي نتيجة سلوك روحي متميز وأذواق وجدانية نادرة، لكنها لا تتناقض أبدا مع العقل السليم ولا مع الشرع القويم، بل هي جملة وتفصيلا مؤكدة وموضحة لظواهر الشريعة مع حقائقها الرفيعة التي لا يتحقق بها إلا الراسخون في العلم.

وسبب هذين الضعفين، العلمي والروحي، هو فقدان المفاتيح اللازمة لولوج الميدان الأكبري السامي الشاسع. وبالحصول عليها تفتح لها أبوابها عن كنوز عرفانية لانهاية لآفاقها النورانية.

فلنذكر أهم هذه المفاتيح مبتدءا بالتي تتعلق بالكفاءة العلمية، ويمكن تلخيصها في المفاتيح الستة التالية:

- **المفتاح الأول:**

هو التمكن الجيد من اللغة العربية وأساليبها البلاغية والدلالات المختلفة لنفس الكلمة، ومميزات كل حرف. ولكن هذا الجانب الظاهري لا يكفي، بل ينبغي

أيضا المعرفة العميقة الواضحة لمصطلحات التصوف من إشارات ورموز وتلويحات. فبدون الفهم الدقيق لها تبقى النصوص الأكبرية مطلسمة، أو تفهم فهما خاطئا، خصوصا أشعاره التي تفوق أبياتها خمسون ألف بيت. وقد نبه هو نفسه على هذا في مقدمة ديوانه الكبير (ديوان المعارف) وفي شرحه لديوانه ترجمان الأشواق، حيث أعطى نماذج لشروح المصطلحات الصوفية، وكذلك في جوابه عن السؤال 153 من أسئلة الحكيم الترمذي (1). ولبيان ضرورة هذا المفتاح أكتفي بذكر مثالين:

- المثال الأول:

من أطول أبواب الفتوحات الباب الثاني في معرفة أسرار الحروف، والباب 73 الذي افتتحه بـ: 28 بيتا على عدد الحروف، وفصّل فيه مميزات أكثر من 100 طبقة للأولياء، والباب 198 في معرفة النَفَس ويحتوي على 50 فصلا منها 28 في مراتب الوجود لكل مرتبة حرفها المناسب. هذه الأبواب الكبرى الأساسية للفتوحات لا يمكن فهمها بعمق ودقة بدون الرسوخ في علم القراءات أي المميزات اللفظية والرقمية لكل حرف. مثلا: الأحوال والمقامات وآيات القرآن الخاصة بكل طبقة من طبقات الأولياء، لا يمكن إدراك فهمها العميق إلا بعرفة صفات الحروف المناسبة لها.

- المثال الثاني:

في كتاب (منزل القطب والإمامين) يقول: أن اسم أحد الإمامين هو عبد الرب وأن له خمسة أسرار، فلماذا حصر الشيخ أسراره في الخمسة بالذات؟

الجواب: هو أن لاسم الرب في اللغة خمسة معاني هي: المربي، المصلح، السيد، المالك والثابت. وبالفعل عندما نتأمل تفاصيل الشيخ لتلك الأسرار الخمسة نجدها متفرعة من هذه المعاني الخمسة لاسم (الرب) (ينظر تفصيلها في كتاب: القسم الإلٰهي بالاسم الرب).

المفتاح الثاني:

وهو أهم المفاتيح الأساسية للفهم العميق للنصوص الأكبرية، هو الرسوخ الممتاز في القرآن العظيم حفظا وفهما. وقد حاولت في مقدمة كتاب (مفاتيح فصوص الحكم) أن أبين أن جل كتب الشيخ لا يمكن فهمها الفهم الصحيح الدقيق

إلا بمعرفة مفاتيحها وأصولها القرآنية التي قد تكون خفية في كثير من النصوص. ولكن لا يكفي التمكن من فهم القرآن من الناحية اللغوية والبلاغية والفقهية والتفسير المأثور، بل ينبغي مع ذلك التمكن من إدراك دلالاته وإشارته العرفانية.

وقد بيّن الشيخ مصدر علومه فقال:

(فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآنو خزائنه ،أعطيت مفتاح الفهم فيه والإمداد منه، وهذا كله حتى لا نخرج عنه، فانه أرفع ما يمنح ،ولا يعرف قدره إلا من ذاقه وشهد منزلته حالا من نفسه وكلمه به الحق في سره. فإن الحق إذا كان هو المكلم عبده في سره بارتفاع الوسائط فإن الفهم يستصحب كلامه منك، فيكون عين الكلام منه عين الفهم منك لا يتأخر عنه. فان تأخر عنه فليس هو كلام الله. ومن لم يجد هذا فليس عنده علم بكلام الله عباده)(3).

فكل تآليف الشيخ تستمد حقائقها من آيات القرآن وأسماء الله الحسنى وتجلياتها في الآفاق والأنفس. والكثير من تآليف الشيخ لا يمكن فهم خفاياها وإشاراتها وإدراك أعماقها وتراكيبها إلا بإرجاعها إلى مصدرها القرآني. وفي بعضها يوضح الشيخ ذلك المصدر، وفي البعض الآخر لا يصرح به ويترك مفتاح فهمها القرآني مكتوما خفيا حتى لا يكتشفه إلاّ من هو أهل له.

وكثيرة هي الكتب التي خصصها الشيخ لتفسير سور أو للتفسير الكامل للقرآن بكيفية واضحة. وأما الكتب التي لم يصرح الشيخ بمفاتيحها القرآنية فنذكر منها الأمثلة التالية:

1) كتاب التجليات

هذا الكتاب الذي قال عنه الأمير عبد القادر الجزائري في كتابه (المواقف) أنّ من القليل في حقه أن يكتب بماء العيون (4)، فهو يتألف من 109 فقرة، في كل فقرة وصف لتجل. وفي مقدمته يعرّف الشيخ هذا الكتاب قائلا: (هذا التنزيل من منازل الطلسم الثالث وهو واحد من ثلاثة عشر). ما هو حل هذا اللغز؟ مؤلف كتاب (كشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجليات) (5) أعطى لهذا اللغز تأويلا يتعلق بمراتب الوجود، وهو في نظري بعيد عن مراد الشيخ وفيه تكلف. والحل الصحيح في رأيي هو أنّ الشيخ يشير إلى مفتاح المرجعية القرآنية للفقرات 109

المؤلفة للتجليات، فكل فقرة لتجل ترجع لآية معينة من سورة البقرة المفتتحة بـ (الم). فالطلسم الثالث يعني هذه الحروف الثلاثة (الم) وهو واحد من 13 لأنه يوجد 13 سورة مفتتحة بحروف ثلاثة (6). وبدون معرفة هذا المفتاح الخفي لا يمكن بتاتا إدراك الكثير من معاني الكتاب وتسلسل فقراته ومستنداتها في آيات البقرة. واختياره للعدد 109 له دلالات عديدة لا يسع المجال لشرحها هنا.

2) كتاب الفناء في المشاهدة

مفتاح فهمه في سورة البينة. فكل الكتاب عبارة عن تأملات إشارية حول آيات هذه السورة.

وإليها أشار في المقدمة بإعادة ذكره لمشتقات كلمة الرضا ستة مرات، كتلويح إلى آيتها الأخيرة " رضي الله عنهم ورضوا عنه". ثم أشار إلى بدايتها: "لم يكن"، بقوله: "فإذا فني ما لم يكن وهو فان ".

3) كتاب العبادلة

يحتوي على قسمين كبيرين. والتأمل الدقيق لقسمه الأول الذي يتألف من خمسين بابا يبيّن أن مرجع كل باب إلى آيات من سورة معينة، أكثرها من النصف الأول للقرآن. وكل باب من أبواب القسم الثاني مرجعه لتجليات اسم من الأسماء الحسنى عبر آيات القرآن. وهذا الكتاب لا يزال في حاجة إلى دراسة جادة دقيقة تعتمد على ما ذكرناه هنا.

4) كتاب منزل القطب والإمامين

مفتاح فهمه في المعوذتين. ففقرة مناجاة منزل القطب هي تعبير عن سورة الناس. ومناجاة منزل الإمام الروحاني التي ختم بها الكتاب هي تعبير عن سورة الفلق. وللمعوذتين في الفتوحات البابان 270 - 271.

5) كتاب التراجم

يحتوي على مقدمة و69 بابا، في كل باب عدة لطائف وإشارات. ومفتاح فهمها هو أن كل باب يناسب سورة. وترتيب الأبواب تابع لترتيب السور بدءا من الحاقة (الباب الأول: ترجمة القهر) وعروجا عبر منازل السور، لكل سورة باب وانتهاء بسورة البقرة (ترجمة الحجاب) والفاتحة(تجمة الرداء). واخترنا كلمة (عروجا) لأن البداية كانت مباشرة من المنزل الموجود فوق منزل سورة المعارج.

وكثيرا ما يسمي الشيخ السير عبر سور القرآن بالمعراج، وهو أعلى من المعراج عبر المراتب الكونية.

6) كتاب الشاهد

يحتوي على 27 بابا، وهي قريبة جدا في عباراتها من أبواب كتاب التراجم، لكنها غير مرتبة حسب السور. ولنفس السورة عدة أبواب.

7) كتاب منزل المنازل

فيه تصنيف - غيرمصرّح به - لسور القرآن إلى تسعة عشر صنفا حسب فاتحة السورة، ولكل سورة اسم رمزي. وهو نفس ما نجده في الباب 22 من الفتوحات، وهو الباب المناسب لسورة الحجر. فصنف السور المفتتحة بالحمد اسمه (منزل المدح) والمفتتحة بالحروف المقطعة اسم منزلها (منزل الرموز) وهكذا إلى آخرها متسلسلة وفق ترتيبها في المصحف.

8) كتاب مشاهد الأسرار القدسية

يحتوي على 14 بابا. والمتأمل فيها بعمق يجدها صادرة من السور المفتتحة بالحروف المقطعة. ولنا كتاب مستقل في شرح هذه المشاهد وبيان أصولها القرآنية. فمثلا في بابه السادس الذي عنوانه (مشهد نور المطلع وطلوع نجم الكشف) يعدد 31 مطلعا، والرابع والعشرون منها قوله (وطلع القلب وشهد له النظر). هنا أيضا إذا لم يكشف المطالع المفتاح القرآني لكتاب المشاهد والحديث النبوي الذي تشير إليه هذه الجملة يبقي المعنى الصحيح مطلسما.

وهذا المفتاح هو أن هذا الباب السادس يرجع لسورة (يس) قلب القرآن ذات الموقع الشمسي، فذكر في مشهدها31 مطلعا على عدد أيام الشهر الشمسي، وقوله: (طلع القلب وشهد له النظر) يشير إلى قلب يس وهو آيتها 58: "سلام قولا من رب رحيم " للحديث الوارد فيها وهو: (بينما أهل الجنة في نعيم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم السلام عليكم ياأهل الجنة فذلك قوله تعالى: "سلام قولا من رب رحيم"، فينظر إليهم وينظرون إليه حتى يحجبهم عنه فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم) (7). فقوله: (طلع القلب وشهد له النظر) يشير إلى انقلاب نظر أهل الجنة من الجنة إلى الحق تعالى خالق الجنة. والعارفة ست العجم البغدادية التي شرحت هذا الكتاب لم تبيّن

مفاتيحه القرآنية، ولهذا جاء كتابها أقرب إلى الاستلهامات منه إلى شرح مراد الشيخ(8)، والله أعلم.

9) كتاب " العظمة "

غاب عن الأستاذ عثمان يحيى هذا المفتاح فظن أنّ موضوع الكتاب يتعلق بأسرار الحروف (9)، بينما هو تفسير إشاري في غاية الحسن والإبداع لحروف آيات الفاتحة وكلماتها وأعدادها بحساب الجمل، لكل آية منها فصل، بأسلوب الإشارة والتلويح. وبدون معرفة هذه المرجعية يبقى الكتاب مطلسما جملة وتفصيلا.

10) الفصل الأول من الفتوحات المكية: فصل المعارف

يحتوي على 73 بابا. وجل أبوابه تستمد من آيات سور معينة. ففي الباب 27 مثلا يتكلم الشيخ عن أسرار (صَلِّ فقد نويت وصالك) ويعدّ منها أحد عشر علما. لماذا يعتني الشيخ بعدّها؟ الجواب هو أنه يريد تنبيه القارئ المتأمل على سورة هؤلاء الأقطاب، وبالتأمل فيها نجدها مطابقة لآيات من سورة (النور)، فهي سورتهم وتحققهم بها هو الذي جعلهم أقطاب (صَلِّ فقد نويت وصالك) وهم الرجال المذكورون في آياتها (35 / 36 / 37 /...): ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ...﴾.

11) الفصل الرابع من الفتوحات المكية: فصل المنازل.

يتألف من 114 بابا، تتخلل بعضها فقرات تبدو غير مفهومة، وفي آخر كل باب قائمة لعناوين من العلوم يحتوي عليها منزل الباب، لا يمكن معرفة كيفية تسلسلها ولا الكيفية التي تم بها استنباطها. مثلا في الباب 326 وهو في معرفة التحاور والمنازعة يقول: (فرفع لي المنزل بكماله فرأيت فيه 23 علما منصوبا، ونظرت إلى الألوهية في تلك الأعلام كلها فوجدت نظرها إليها من أربعين وجها، وقيل لي ما جمعها إلا رسول الله ﷺ. ومن هذا المنزل كانت سيادته على جميع العالم. فمن ورثه فيه من أمته حصل له من السيادة بقدره في هذه الجمعية). فماذا يعني الشيخ بـ: 23 علما؟ وبوجوه الألوهية الأربعين؟ بدون معرفة المرجعية القرآنية الخفية لأبواب هذا الفصل تستحيل الإجابة عن هذين السؤالين. والجواب هو أن هذا الباب 326 هو منزل سورة المجادلة المؤلفة من 23 آية، وتلك هي أعلامها،

وتكرر فيها اسم الألوهية (الله) أربعين مرة. والمفتاح القرآني لهذا الفصل الرابع من الفتوحات هو أنّ لكل باب سورة بدءا من سورة الناس (وهو الباب 270) وصعودا حسب ترتيب السور في المصحف وانتهاء بالفاتحة (وهو الباب 383). والعلوم التي يذكرها في آخر كل باب مصدرها آيات سورة الباب... وبدون معرفة هذا المفتاح الرئيسي لا يمكن أصلا معرفة سر تسلسل أبواب هذا الفصل، ولا أعماق الحقائق التي يفصّلها في كل باب، ولا المرجعية التي استنبط منها الشيخ أسماء تلك العلوم الكثيرة التي يعددها في آخر كل باب.

وكمثال آخر لألغاز الشيخ في هذا الفصل نجده في بداية الباب 338 من الفتوحات يقول: (إن لله في المقام المحمود الذي يقام فيه رسول الله ﷺ يوم القيامة باسمه الحميد سبعة ألوية، في كل لواء 99 اسما من أحصاها هناك دخل الجنة، غير لواء واحد منها مرقوم فيه 770 اسما، يحمده ﷺ بهذه المحامد كلها، وكلها تتضمن الشفاعة من الله)، فما هي مرجعية هذا الكلام والأعداد؟ هنا أيضا يستحيل الجواب إن لم يعلم القارئ أن هذا الباب هو لمنزل سورة الأحقاف أول الحواميم السبعة المفتتحة بالحرفين قلب (أحمد) و(محمد) أي (حم). فلكل منها لواء حمد. وعدد حروف (حاميم) هو 99، وعدد فاتحة السورة الخامسة من السبعة هو (حم عسق = 770) (10).

12) الفصل الخامس من الفتوحات :فصل المنازلات

يحتوي على 78 بابا، على عدد شعب الإيمان أو الحروف فواتح السور. وقد أخطأ بعض الباحثين في اعتباره أنّ مرجعية كل باب تعود إلى سور معيّنة هي السور التسعة والعشرون المفتتحة بالحروف المقطعة التي عددها 78. والحقيقة في رأيي أنّ كل باب يستمد حقا من آية من سورة معينة، لكنها لا تقتصر على السور المفتتحة بتلك الحروف، وإنما لكل باب سورة حسب ترتيب معين مقسم على أقسام. ولذلك التقسيم رمزيته المتعلقة بمعنى المنازلات، المماثلة عناوينها في كثير من الأحيان لعناوين منازلات كتاب التراجم للشيخ أيضا. ولنا بحث خاص في بيان سور كل أبواب هذا الفصل. مثال:

- الباب 399 في معرفة منازلة منزل من دخله ضربت عنقهو ما بقي أحد إلا دخله. هذا الباب مرجعه إلى الآيتين 26 /27 ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ

ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿﴾ من سورة الرحمٰن.

- الباب 405 في منازلة من جعل قلبه بيتيو أخلاه من غيري ما يدري أحد ما أعطيه فلا تشبهوه بالبيت المعمور فانه بيت ملائكتي لا بيتي... هذا الباب مرجعه للآية 57 من سورة القصص وهي: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿﴾ ﴾.

- الباب 408 لسورة الفرقان، والباب 416 للإسراء، والباب 426 للأعراف، والباب 432 لفاتحة الكتاب.

13) كتاب فصوص الحكم:

هذا الكتاب المحوري له أيضا مرجعيته القرآنية. وقد حاولت تفصيل ذلك في كتاب (المفاتيح الوجودية والقرآنية لفصوص الحكم لابن العربي) حيث بينت استمداد كل فص من الفصوص السبعة والعشرين من إحدى السور الواقعة بين سورتي: (الفجر) و(الناس)، كما بينت سر تسلسل أبواب الفصوص وتناسبه مع تسلسل مراتب الوجود والأسماء الحسنى المتوجهة على إيجادها كما فصلها الشيخ في الباب 198 من الفتوحات المكية.

- **المفتاح الثالث:**

معرفة الأحاديث النبوية والأحكام الشرعية. ففي الكثير من نصوص الشيخ تلويحات خفية اليها. وأكتفي بمثال واحد: التأمل في بعض أجوبة الشيخ على أسئلة الحكيم الترمذي - وعددها 155 في الباب 73 من الفتوحات - يظهر أن فهمها الكامل لا يتم إلا بإرجاعها لأحوال وأقوال المصلي خلال الصلاة. مثلا: في جوابه عن السؤالين الخامس والثامن حول مقام أهل المجالس والحديث يقول أن لهم 6 حضرات و36 مجلسا روحانيا، ويفصّل ما يحصل لهم فيها، فما دلالة كل ذلك؟ لقد حاول الشيخ أحمد سكيرج، وهو من أقطاب الطريقة التيجانية بالمغرب، أن يجيب عن بعض هذه الأسئلة ونقل طرفا من جواب الشيخ حول مقام أهل المجالس، وبرّر العدد 36 المذكور بأنه عدد جملة (مقام أهل المجالس) بحساب الجمل المغربي الصغير. ويبدو لي أنّ تبريره هذا بعيد تماما عن مراد الشيخ، وذلك بسبب عدم معرفة المفتاح المناسب لهذا اللغز (11). والجواب هو: الحضرات

الست هي الصلوات اليومية الخمسة وسادسها الوتر، ومجموع جلسات المصلي خلالها بما فيها جلسات الاستراحة بين كل ركعتين هو 36 جلسة. وبمعرفة هذا المفتاح يُفهم كل ما فصّله الشيخ حول هذه الحضرات.

- المفتاح الرابع:

معرفة العلوم الفلكية القديمة االأصيلة، فالعديد من النصوص الشيخ لا يمكن فهمها بدون تلك المعرفة. فهذه المعرفة مثلا ضرورية لازمة لفهم كل جمل كتاب (أيام الشأن) ولجُل فقرات كتاب (التنزلات الموصلية) وتسلسلها، وللعديد من الفقرات في بعض أبواب الفتوحات. وقد فصل في كتاب (التنزلات الموصلية) مناسبة كل صلاة من الصلوات اليومية الخمسة مع سماء من السماوات السبع، ولا يمكن فهم ذلك كله إلا بالرجوع إلى مبادئ علم الفلك الروحاني. وهذه ثلاثة أمثلة:

- المثال الأول: في آخر كتابه (التنزلات الموصلية) يذكر الشيخ ما يسميه بحقائق تدبير الكون لكل كوكب من السيارة السبع، فيقول مثلا أن كمياتها بالنسبة للكوكب المشتري هي: 105120 فلماذا هذا العدد؟

الجواب: هذا العدد هو عدد ساعات دورة فلكية واحدة للمشتري أي 12 سنة، لكل ساعة منها حقيقة معينة متميزة.

- المثال الثاني: في آخر كتاب (أيام الشأن) يعطي أمثلة عن تفاوت مدة كل نوع من الأيام فيقول: (وأما يوم المثل الذي هو من سبعة آلاف سنة، ويوم الرب الذي هو من ألف سنة، ويوم معارج الهُو الذي هو 50 ألف سنة). فما معنى قوله أن يوم المثل من 7 آلاف سنة؟

الجواب: يشير بيوم المثل إلى مدة حكم برج السنبلة في العالم وهو 7 آلاف سنة، وسماه يوم المثل لأن الإنسان المخلوق على مثل سورة الرحمٰن خلق بمطلع برج السنبلة (12). ففي كلامه تداخلت الآية 11 من الشورى (ليس كمثله شيء) (13) مع الحديث (خلق الله آدم على صورته) مع المعلومة الفلكية.

- المثال الثالث: في الباب 278 من الفتوحات وهو في معرفة منزل الألفة يقول أن هذا المنزل هو منزل سفر الأبدال السبعة وأن لهم سفران: سفر إلى اليمن يقيمون فيه 24 يوما، وسفر إلى الشام يقيمون فيه 6 أيام.

كيف يفسر هذا الكلام؟

الجواب: هو أنه ينبغي أولا معرفة سورة هذا الباب وهي سورة قريش. ثم معرفة الآية التي يشير إليها الشيخ وهي ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾. فرحلة اليمن الصيفية تدوم 24 يوما لأن أقسام برج الصيف 24 قسما (9 للسرطان مع 8 للأسد مع 7 للسنبلة) وأقسام برج الشتاء 6 أقسام (3 للجدي مع 2 للدلو مع 1 للحوت). ولكل قسم حكم في العالم يدوم ألف سنة أي يوم واحد من حكم الاسم الرب لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ - الحج47. والشرح الكامل للسفرين المذكورين يحتاج إلى بسط ليس هنا محله.

- المفتاح الخامس:

معرفة علم أعداد الحروف ورموزها وما يناسبها من بروج ومنازل فلكية، واستعمالات الشيخ لها تصريحا وتلويحا تعد بالمئات.

وحول هذا المفتاح ينظر ما ذكرناه في فصل حضرات الحروف واعدادها من المقال السابق.

ولبيان استعمال الشيخ لعلم الحروف وأعدادها نكتفي بثلاثة أمثلة:

- *مثال أول: في تعريفه لحرف اللام يقول أن فلكه الثاني حركته 11000 سنة، عنصره الأعظم النار والأقل التراب (20). لا يمكن فهم هذا الكلام بدون معرفة توزيع الحرف اللفظية والرقمية في دائرة الفلك. فالحرف اللفظي اللام يقع في برج الثور، وهو الفلك الثاني الذي يدوم حكمه في العالم 11000 سنة. وأما اللام الرقمي فيقع في منزلة الصرفة التي ثلثاها في برج الأسد وعنصره النار والثلث الباقي في برج السنبلة وعنصره التراب.

- *مثال ثان: في الباب 24 من الفتوحات يقول أن عدد الأنفاس الرحمانية في العالم البشري هو حاصل ضرب 330 في 530 (21). فلماذا هذان العددان؟

- الجواب: هو أن العدد 330 هو عدد اسم (الرحمٰن) الرقمي، والعدد 530 هو عدده اللفظي حيث يعتبر تضعيف الراء وعددها 200.

- *مثال ثالث: السؤال 132 من أسئلة الحكيم الترمذي هو (ما الاسم الذي أبهم على الخلق إلا على خاصته)؟ يجيب الشيخ: (هو اسم مركب من عشرين وثلاثين بينهما أحد وأربعون حسا ومعنى، وقد يتركب حسا لا معنى من ثمانية وثمانين ومائتين وستة...) (22). يشير الشيخ بذلك إلى كلمة (كامل = 30/40/1/20)،

أي يشير إلى الإنسان الكامل والاسم الأعظم الكامل، ثم يشير إلى كلمة (حروف- 80/6/200/8) بتعويض كل حرف بعدده المعروف في حساب الجمل.

- المفتاح السادس:

يستعمل الشيخ أحيانا مصطلحات لا يعرفها إلا المطلع على الفلسفة، ومنها المقولات العشرة التي كثيرا ما نبه الشيخ على أهميتها في العلم المنطقي خصوصا، ويشير إليها أحيانا بدون تصريح كقوله عند كلامه عن اللوح المحفوظ أن علومه تجمعها عشر سور هي سور الأصل والمحمول والدهر والأحوال والمقدار والنسب والتوصيل والآثار الوجودية والانفعالات الكونية والإلٰهية (23).

*وأما القسم الثاني المتعلق بالكفاءة الروحية اللازمة لفهم النصوص الأكبرية فمفاتيحه الأساسية هي الخمسة التالية:

- المفتاح الأول: الاستعداد الفطري والمكتسب: فليس في استعداد جميع الناس إدراك أو ذوق المفاهيم الصوفية عموما والأكبرية خصوصا. وهذا الشرط لازم لكل مهنة وفن وعلم. ويعطي الشيخ مثلا لضعف الاستعداد عند ذكره لحواره مع الفيلسوف الفقيه الشهير ابن رشد - والشيخ حين ذاك صبي بينما ابن رشد شيخ في قمة مكانته العلمية - فيقول عنه: " إنه غير مراد لما نحن فيه " أي ليس في استعداد ابن رشد الدخول في طريق القوم، وهذا رغم إعجاب وثناء كل منهما على الآخر (24).

- المفتاح الثاني: إخلاص القصد أي صدق النية وهو أن يدرس العبد كتب الشيخ معتمدا على الله تعالى في أن يكشف له الحق فيها لا غير. وبمقدار ما يكون القصد معلولا يكون الفهم سقيما أو مشلولا، وبمقدار ما يكون الطالب صادقا يكون الإدراك صحيحا وميسورا (25).

- المفتاح الثالث: الاعتقاد الصحيح والمتمثل في أن كلام الشيخ كله بارز من حضرة القرآن العظيم في إطار العقيدة الإسلامية النقية التي هي عقيدة السلف والصحابة وأهل السنة، وهذا شرط في غاية الأهمية فكل اتجاه في الفهم يخرج الحقائق الأكبرية عن هذا الإطار هو اتجاه باطل يقلب نورها ظلمات ويمسخ هدايتها إلى ضلالات ومتاهات، وكم حذّر وأنذر من مثل هذه الانحرافات. يقول مثلا:

لا تقتدي بالذي زالت شريعته   عنه ولو جاء بالأنبا عن الله (26)

ويقول أيضا في كتابه (مواقع النجوم):

ما نال من جعل الشريعة جانبا   شيئا ولو بلغ السماء مناره

ويقول: [فأصل رياضتنا ومجاهدتنا وجميع أعمالنا التي أعطتنا هذه العلوم والآثار الظاهرة علينا إنما هو من عملنا بالكتاب والسنة (...) وفيضنا روحاني وإلٰهي لكوننا سلكنا على طريقة إلٰهية تسمى شريعة فأوصلتنا إلى المشرع وهو الله تعالى لأنه جعلها طريقا إليه] (27). ولا تحصى نصوص الشيخ المؤكدة على ضرورة الالتزام الكامل الدقيق ظاهرا وباطنا بظاهر الشريعة وأحكامها (28) وحياته الشخصية كما تظهر في سيرته هي نموذج كامل للالتزام بالشريعة في أدق جزئياتها حسبما فصله في باب الوصايا الطويل الذي توّج به وختم به الفتوحات. وبسبب عدم الالتزام بهذه القاعدة افتري على الشيخ واتهم بأبشع الضلال من الذين لم يفهموه. فقيل عنه انه رائد فلسفة وحدة الوجود التي لا تميز بين الحق والخلق، ورماه آخرون بالقول بالحلول والاتحاد والزندقة أو الإباحية ورفع التكاليف الشرعية على العارفين، وقال آخرون أنه شيعي مُقنّع أو باطني الاعتقاد، وأنه يفضّل الولي علي النبي، وأسرف آخرون فقالوا أنه مبتلى بمرض نفسي أو أنه صاحب هوس جنسي وأن كشوفاته خيالات وأوهام شيطان، إلى غير ذلك من التخريفات الناتجة عن الفهم السقيم لكلام الشيخ أو سوء القصد أو المواقف المسبقة بلا تمعن، لأن المطلع بدقة على ما كتبه يجد ردودا صريحة على كل تلك المزاعم. فنصوصه الكثيرة الغزيرة تنفي تماما كل ما ينسبه إليه المنكرون عليه. فهو في رده على من يعتقد عقيدة وحدة الوجود التي لا تميز بين الخالق والمخلوق يقول مثلا في المسألة 16 من كتابه المسائل: (زلت أقدام طائفة عن مجرى التحقيق فقالت ما ثم إلا ما ترى، فجعلت العالم هو الله والله نفس العالم ليس أمرا آخر. وسبب هذا المشهد كونهم ما تحققوا به تحقق أهله، فلو تحققوا به ما قالوا بذلك وأثبتوا كل حق في موطنه علما وكشفا).

وقد فصّل الشيخ بكل وضوح عقيدته المطابقة تماما لعقيدة أهل السنة في مقدمة كتابه الفتوحات، وغرضه من ذلك بيان أنّ كل ما في كتبه ينبغي فهمه وفق هذه العقيدة، وإلا فهو فهم خاطئ. ونصوصه الرادة على العقائد المنحرفة والزائغة

عند غير المسلمين والمسلمين في غاية الكثرة (ينظر حول هذا الموضوع كتاب: الاتجاه النقدي عند ابن العربي للأستاذ زكي سالم، الذي نشرته مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة سنة 1426 هـ).

وقد كتبت بعون الله تعالى كتابا طبع منذ سنوات بالمغرب فيه بيان مفصل للسيرة القرآنية المثلى للشيخ الأكبر وعنوانه: (ختم القرآن محيي الدين محمد بن العربي).

وكثير هم الذين ينعتون الشيخ بالفيلسوف رغم تبرئه الصريح من الفلسفة وأهلها، لكنه يحترم الحكماء القدامى والفلاسفة المتبعين للأنبياء عليهم السلام والملتزمين بالشريعة. وهو لم يهتم كثيرا بدراسة الفلسفة ولم يذكر من أئمتها في كتبه إلا ما ندر، وذلك لأن التصوف ليس فلسفة، وإنما هو التحقق بمقام الإحسان في الدين، وأئمته لم يشتغلوا بالفلسفة لأن التصوف عندهم ما هو إلا أخلاق قرآنية وشمائل محمدية، ومنهجه الإيمان والتقوى والذكر والصفاء، بينما منهج الفلسفة يعتمد على النظر الفكري. والشيخ يرى أن الإلٰهيات لا تدرك إلا بالوحي أو الكشف الرباني، لا بالفكر الذي غايته معرفة وجود الله تعالى، وفي هذا المعنى يقول في كتاب المسائل: (ونمنع من الفكر جملة واحدة لأنه يورث صاحبه التلبيس وعدم الصدق). ويقول في رسالته إلى الإمام فخر الدين الرازي: (فالعقول تعرف الله من حيث كونه موجودا ومن حيث السلب لا من حيث الإثبات... وأعلم أنّ أهل الأفكار إذا بلغوا فيها الغاية القصوى أداهم فكرهم إلى حال المقلد - أي مقلد الرسول صلى الله عليه وسلم - فإن الأمر أعظم من أن يقف فيه الفكر... فللعقول حد تقف عنده من حيث قوتها في التصرف الفكري، ولها صفة القبول لما يهبه الله تعالى). وفي الباب الرابع عشر وهو الأخير من كتابه (مشاهد الأسرار القدسية) يصف أحوال مختلف الطوائف يوم القيامة، وأن لا نجاة إلا لمتبعي رسل الله عليهم السلام؛ وعند ذكره للفلاسفة الذين يرجحون الفكر على الشرع يقول: (وجيء بالفلاسفة ومن تبعهم وأدخلوا في السرادق، فسئلوا: فيم صرفت عقولكم؟ قالوا: فيما يرضيك. قال: ومن أين علمتم ذلك، أبمجرد العقل أو بالاتباع والاقتداء؟ قالوا: بمجرد عقولنا. فقال: لا عقلتم ولا فلحتم ولكنكم تحكمتم، يا نار تحكمي فيهم. فسمعت ضجيجهم من أطباق النيران بالويل. فقلت: من يعذبهم؟ قال لي: عقلهم،

فهو كان معبودهم، ما سألهم سواهم ولا عذبهم غيرهم).

فما الشيخ الأكبر إلا كما عرف نفسه في مقدمة الفصوص وشهد له بذلك كبار أولياء وشيوخ الإسلام (29) وهو قوله: [ولست بنبي ولا رسول ولكنني وارث ولآخرتي حارث]. فهو مسلم مجتهد لا يأخذ علمه إلا بما فتح الله عليه في القرآن والسنة النبوية، ولا يقتدي إلا بالنبي ﷺ. تجلى الله عليه باسمه العليم وجعله خاتم الولاية المحمدية في مقام القربة (30)، وقد عرّف صاحب هذا المقام الذي هو نفسه فقال: [الختم الخاص هو المحمدي ختم الله به ولاية الأنبياء المحمديين الذين ورثوا محمدا ﷺ فيكون هو الجامع علم كل ولي محمدي اله تعالى. وإن لم يعلم هذا فليس بختم. وأما الصفة التي استحق بها أن يكون بها خاتما فبتمام مكارم الأخلاق مع الله. ولا يكون في زمانه ولا بعد زمانه أعلم بالله وبمواقع الحكم منه. فهو والقرآن أخوان] (31)، وينبغي التأكيد هنا على وصف هذا الختم بالمحمدي لا غير. فمن الأخطاء الشائعة القول أن الشيخ الأكبر يعتقد بتكافؤ الأديان وإنها كلها موصلة للسعادة الأخروية وولاية الرحمٰن، فنصوصه الداحضة لهذه الدعاوي لا تحصى كقوله في صلاته على النبي ﷺ (إذ هو بابك الذي من لم يقصدك منه سُدت عليه الطرق والأبواب). ومما يستدل به أولئك أبياته المشهورة في ديوانه ترجمان الأشواق:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه فالدين ديني وإيماني

وقد حرّف البعض نصف البيت الأخير مبدلين كلمة (فالدين) بكلمة (فالحب).

والفهم الصحيح لهذه الأبيات هو كما فسرها الشيخ نفسه في ذخائر الأعلاق، وخلاصته أن في القلب صورة بيت الأوثان كما كانت الحقائق المطلوبة للبشر قائمة به والتي يعبدون الله من أجلها فسمى ذلك أوثانا، وأن قلبه مجلى لواردات العلوم العيسوية والموسوية من الدين المحمدي القائم على الحب لقوله: ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية 31 آل - عمران - أي ما ثم دين أعلى من دين قام على المحبة والشوق، وهذا مخصوص بالمحمديين فإن محمد ﷺ له من بين سائر

الأنبياء مقام المحبة بكاملها؛ فأتخذه الله محبا محبوبا وورثته على منهاجه. هذا هو شرح الشيخ لكلامه. فليس في شرحه هذا إشارة إلى تكافئ الأديان وعدم التفريق بين التوحيد والشرك.

- المفتاح الرابع: اعتقاد أن كلام الشيخ لا تناقض فيه وذلك بمعرفة المقام الذي ينطق منه، والمقامات تختلف حسب الاسم الإلٰهي الممد لها وهي مختلفة المعاني وأحكامها متناقضة أحيانا كالمعز والمذل أو الغفار والمنتقم.

والكلام عن نفس الظاهرة من حيث اسمه القادر ليس كالكلام عنها من حيث اسمه الحكيم. فبدون معرفة المقام الذي ينطق منه الشيخ والاسم الإلٰهي الذي يستمد منه لا يفهم كلامه على وجهه الصحيح، مثال ذلك قوله:

عقد الخلائق في الإلٰه عقائدا وأنا شهدت جميع ما عقدوه (32)

وهنا أيضا حرّف البعض هذا البيت مبدلين كلمة (شهدت) بكلمة (عقدت).

هذا الكلام وأمثاله صادر من مقام شهود الإرادة والقدرة الإلٰهية. فالله تعالى هو الذي أراد وقدر على كل واحد من خلقه أن يعتقد عقيدة معينة ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝ ﴾ الآية 8/7 الانفطار، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ الآية 11 - الصافات -، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ الآية 8 - فاطر - وهو لا يتناقض مع كون تلك العقائد فيها السليم والسقيم والهدى والضلال وما يؤول لصاحبه إلى السعادة أو إلى الشقاء في مقام العدل والحكمة الشرعية. ولهذا أتبع الشيخ ذلك البيت السابق بأبيات أخرى يتناساها المستشهدون بالبيت المذكور ومنها:

قد أعذر الشرع الموحد وحده والمشركون شقوا وإن عبدوه

وكذلك أهل الشك أخسر منهم والجاحدون وجود من وجدوه

والقائلون بنفيه أيضا شقوا مثل الثلاثة حين لم يجدوه

أجني عليهم من تأله حينما أهل السعادة بالهدى عبدوه

وأحيانا أخرى قد يتكلم الشيخ على نفس الحقيقة ولكن من زوايا مختلفة. فأحيانا يستند مباشرة إلى حضرة الشرع، وأحيانا أخرى يتكلم من حضرة الفكر والعقل من حيث موافقته للشرع، وأحيانا يستمد من الكشف، والكشف الصحيح لا

يناقض أبدا ظاهر الشرع ولا المنطق السليم للعقل القويم. والقارئ السطحي يرى أن في ذلك تناقضا وليس هو بتناقض بل تنوع أو تكامل. ومثل هذا الخطأ وقع فيه فيما يبدو لي الشيخ محمود محمود الغراب، حيث أنكر نسبة العديد من أهم كتب الشيخ الثابتة له بدعوى أنّ فيها ما يناقض ما في كتابه (الفتوحات المكية). وفي مقابل هذا الإنكار المفرِط نجد عشرات من الكتب المنحولة والمنسوبة إليه وهو بريء منها تماما.

- المفتاح الخامس: لفهم الشيخ يجب الالتزام بالأدب معه، والتجرد من المواقف والآراء المسبقة، وحسن الظن به وعشق المعارف، أو على الأقل الموضوعية والإنصاف حتى يكون بين وعي المطالع وروحانية الشيخ تجاوب، وإمداد بالفهم الصحيح في إطار التوكل على الله تعالى والافتقار إليه إذ لا توفيق إلا من لدنه. وكثير هم الذين حرموا فهم الكنوز الأكبرية لسوء أدبهم أو سقم نيتهم كما قال في باب احترام الشيوخ من الفتوحات: (فإن وجود الحق إنما يكون للأدباء. والباب دون غير الأدباء مغلق. ولا حرمان أعظم على المريد من عدم احترام الشيوخ ... فالحرمة أصل الفلاح) (33). قال شاعرهم:

ولــو تقــرأ علــوم القــوم ألفــا بــلا عــشق فمــا حــصلت حــرفا

وأخيرا ينبغي ذكر ملاحظتين:

- الملاحظة الأولى: وقد سبقت الإشارة إليها، وهي وجود الكثير من الكتب التي تنسب خطأ للشيخ الأكبر فينبغي الحذر من نسبة ما فيها إليه، وقد أحصى الأستاذ عثمان يحيى في كتابه حول تاريخ وترتيب تآليف الشيخ نحو 137 تأليفا منسوبا للشيخ خطأ أو مشكوكا في نسبتها إليه. ولا شك أن العديد من التآليف الأخرى التي ظن أنها للشيخ هي أيضا ليست له كما يظهر من مواضيعها وأسلوبها، كالرسائل العشر التي نشرت عام 1998 في أبو ظبي بتحقيق قاسم محمد عباس وحسين محمد عجيل. ومن المؤسف أنّ بعض الباحثين المعاصرين المهتمين بنشر تراث الشيخ، مثل المصري الشيخ سعيد عبد الفتاح والسوري الشيخ إبراهيم الكيالي، نشروا كتبا ورسائل كثيرة لا تصح نسبتها للشيخ بتاتا، وهي تشوه مذهبه. وهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة دقيقة عميقة مستقلة.

- الملاحظة الثانية: هناك أخطاء نسخية ومطبعية كثيرة جدا في كتبه تغيّر

المعنى فتعوق القارئ عن الفهم الصحيح. مثال هذا جملة نجدها في أكثر النسخ المطبوعة للفتوحات (الجزء الثالث صفحة 178 - طبعة دار صادر بيروت) وهي: (ولقد رأيت بعض أهل الكفر في كتاب سماه: المدينة الفاضلة...)، وفي النسخة المخطوطة بخط الشيخ لا وجود لكلمة (الكفر) وإنما هي لفظة (الفكر)، والفارق بين معنييهما كبير كما هو واضح.

ومن الأخطاء الكثيرة الأخرى أرقام فقرات الباب 559 من الفتوحات، كل فقرة تناسب بابا من أبواب الكتاب، فكلها - ما عدا الـ 51 الأولى - خاطئة، وإذا لم يعرف القارئ كيفية تصحيحها فلن يعرف الفقرة المناسبة لبابها، ولا السورة أو الآية التي ترجع إليها.

وأخيرا إنّ الفهم العميق لكلام الشيخ لا تكفي فيه مطالعة كتبه، ولكن يستلزم إتباع منهاجه المحمدي بالسلوك العملي، ويؤكد الشيخ على هذا فيقول في كتاب (مسائل السائل): [والناس يحشرون يوم القيامة على قدر معرفتهم بالله الحاصلة في نفوسهم، لا على قدر معرفتهم بطريق المعرفة والعلم، وهذا موضع يقع فيه من لا تحقيق عنده من أهل الطريق، والله أعلم].

الخلاصة: إنّ أمثال النماذج السابقة للألغاز الأكبرية توجد في مكتوبات الشيخ بعشرات الآلاف. وعندما يتحقق الطالب بالكفاءتين الروحية الخلقية من جهة والعلمية الأدبية من جهة أخرى، يمكن له بتوفيق الله تعالى أن يلج برفق وتأمل في الآفاق الأكبرية بمشارق أنوارها ولطائف أسرارها التي لا نهاية لها، ليجد الحق أقرب إليه من نفسه. قال الحق تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾- فصلت53.

هوامش ومراجع

ف - الفتوحات المكية لابن العربي (أربعة أجزاء) - مطبعة دار صادر بيروت - / ب - باب / ص - صفحة.

1) فII ب 73 ص. 128 - 134.

2) م د ا وي ك ل - 40+4+1+6+10+20+30 - 111 / ق ط ب - 100 +9+2 -111.

3) ف III ب 366 ص 334 - 335.

4) الموقف 358 في شرح فص شعيب من كتاب المواقف للأمير عبد القادر الجزائري.

5) كشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجليات - تحقيق عثمان إسماعيل يحيى - طبعة طهران 1408هـ 1988م - ص 146 - 147.

6) الفواتح الثلاثة عشرة هي 6 الم (البقرة - آل عمران - العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة) + 5 ألر (يونس - هود - يوسف - إبراهيم - الحجر) + 2 طسم (الشعراء - القصص).

7) ينظر هذا الحديث في تفسير الصاوي على ذي الجلالين على الآية "" سلام قولا من رب رحيم.

8) شرح المشاهد القدسية، لست عجم بنت النفيس البغدادية، تحقيق وتقديم بكري علاء الدين وسعاد الحكيم، مطبوعات المعهد الفرنسي بسوريا، 2004 م.

9) عثمان يحيى، تاريخ وترتيب تصانيف ابن العربي (Histoire et classification de l'Œuvre d'Ibn Arabi)، رقم 70: كتاب العظمة.

10) حاميم - 8 +1 +40 +10 +40 - 99.

(حاميم) عين سين قاف - (99) + 70 + 10 + 50 +300 +10 + 50 + 100 +01 +80 -770.

11) في كتابه (قرة العين في الجواب عن أسئلة مؤلف خبيئة الكون) حاول الشيخ أحمد سكيرج (1295 - 1363 هـ / 1944 م) الإجابة على الأسئلة الخمسة والثلاثين الأولى من أسئلة الحكيم الترمذي.

12) ينظر تفصيل هذه المعاني في الباب السابع من الفتوحات.

13) ينظر معنى هذه الآية عند الشيخ في الباب 499 (ف IV ص 135 - 136).

14) ف II ص193.

15) ف II ب131 ص215.

16) فII ب198 فصل20 ص440.

17) فII ب271 ص577.

18) ف I ب20 ص168.

19) فI ب2 ص80 - 81.

20) فI ب2 ص69.

21) الرحمن = 1+ 30 +200+ 8 + 40 + 1 +50 = 530.

22) فII ص 120.

23) فII ب 198 ص469.

24) ينظر هذا الحوار في (ف I ص153 - 154) وتنظر الإشارة إلى ابن رشد والثناء عليه في (ف I ص 325 - آخر الباب 66).

25) حول الصدق: ف II ب 136 - ب 137 ص 222 - 223 / II ب 188 ص 375 / II ب 216 ص505 / III ب 366 ص 328 - 329 / باب ترجمة انبعاث نور الصدق الراجع لسورة " ص" من كتاب التراجم.

26) ف II ب 181 ص 364.

27) ف II ب88 ص 161.

28) من كلامه حول الشريعة: ف II ب 146 ص 234 / II ص 366. ومن الكتاب الموضحة بإسهاب هذا الجانب الشرعي الأساسي عند الشيخ.

* كتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر لعبد الوهاب الشعراني (ت 973 هـ).

* شرح كلمات الصوفية والرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر لمحمود محمود الغراب.

* الفقه عند الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي لمحمود محمود الغراب.

* ختم القرآن محيي الدين ابن العربي لعبد الباقي مفتاح.

* فقه الشيخ محيي الدين ابن العربي في العبادات ومنهجه، لمحمد فاروق صالح البدري.

* محيط بلا ساحل لميشال شودكيفيكس بالفرنسية Un Océan sans rivage (Michel chodkiwicz).

29) جل الأولياء وشيوخ الطريق معترفون بالمكانة الكبرى المركزية في الولاية والمعرفة للشيخ الأكبر وعبر عن ذلك مجدد الطريقة الخلوتية الشيخ مصطفي البكري (ت 1162 هـ) في قوله:

يا رب أوصل حبلنا بحباله ... بالحاتمي الخاتمي كنز الغنى

وسواه في التحقيق مثل هلاله ... بدر لدى جو السماء مكمل

أما علماء الظاهر، سواء من أهل السنة أو الشيعة، فقد اختلفوا في الشيخ الأكبر بين مادح وقادح ومنهم من كتب في الدفاع عنه، وينظر تفصيل ذلك في بداية كتاب عثمان يحيى حول تاريخ وتصانيف كتب الشيخ، وكتاب " تنبيه الغبي بتبرئة ابن العربي لجلال الدين السيوطي".

30) ينظر خلاصة ما كتبه الشيخ حول مقام الختمية في كتاب (الرد على ابن تيمية) لمحمود محمود الغراب:

(ص 65 - 87) وكتاب: ختم الأولياء، لميشال شوركيفيكس، ترجمه من الفرنسية إلى العربية الشيخ أحمد الطيب (le sceau des saints :Michel chodkiwicz).

31) فـI V ص 441. 32) فـIII ص 132. 33) فـII ص 366.

السماع عند الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

بسم الله الرحمٰن الرحيم القائل:

(فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) - الزمر: 17 - 18 -

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد رحمة العالمين القائل: (إن الله جميل يحب الجمال) - رواه مسلم في صحيحه - **وعلى آله وصحبه**

قبل الشيخ الأكبر (560 - 638 هـ) نجد في التراث الإسلامي العرفاني حول السماع والموسيقى اتجاهين مختلفين:

- الاتجاه الأول: هو الاتجاه الصوفي الذي كتب فيه أعلام من الصوفية كأبي طالب المكي (ت: 325هـ) في كتابه " قوت القلوب"، وأبي بكر الكلاباذي (ت: 385هـ/995م) في كتابه " التعرف لمذهب أهل التصوف"، وعبد الله بن علي السراج الطوسي (ت: 378هـ) في كتابه " اللمع " الذي خصص فيه أبوابا فصّل فيها المسائل المتعلقة بالسماع والوجد تفصيلا وافيا في غاية الدقة والحسن. واقتفى أثره في ذلك بعض أيمّة التصوف في القرن الخامس الهجري مثل تلميذه أبي عبد الرحمٰن السلمي (ت: 412هـ) في كتابه " السماع"، والإمام عبد الكريم أبي القاسم القشيري (ت: 465هـ) في رسالته القشيرية المشهورة، والشيخ علي بن عثمان الهجويري (ت: 470هـ) "في كشف المحجوب " حيث خصص آخر أبوابه للسماع الصوفي والفرق بينه وبين سماع العامة، ثم حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت: 505 هـ) في موسوعته البديعة "إحياء علوم الدين"، وشيخ بغداد في عصر الشيخ الأكبر شهاب الدين عمر السهروردي (ت: 632هـ) في كتابه المشحون تربية وحكمة: "عوارف المعارف" الذي خصص فيه أربعة أبواب رائعة حلل فيها مسائل السماع قبولا وإيثارا، أو ردا وإنكارا، أو ترفعا واستغناء، أو تأدبا واعتناء. وقد عبر الطوسي في "اللمع " عن موقف جل الشيوخ من السماع فقال ما خلاصته:

[السماع على ثلاثة أوجه: بالطبع، أو بالحال، أو بالحق. فمن يسمع بطبعه اشترك فيه الخاص والعام، وكل ذي روح يستطيب الصوت الطيب. ومن يسمع بحاله إذا طرق سمعه مما يوافق حاله ينقدح سره على قدر صفاء وقته وقوة قادحه فيفيض ذلك على جوارحه. ومن يسمع بالحق ومن الحق فإنه لا يلتفت إلى هذه الأحوال، لأنها وإن كانت شريفة فهي ممزوجة بحظوظ البشرية، ولا يؤمن عليها الزلل حتى يكون سماعه بالله ولله ومن الله وإلى الله، وهم الذين فنوا عن الأقوال والأفعال والأحوال، ووصلوا إلى الحقائق ومحض الإخلاص وصفاء التوحيد، فخمدت بشريتهم وفنيت حظوظهم وبقيت حقوقهم، فشهدوا موارد الحق بالحق بلا علة للنفس ولا حظ للروح بالنغمة، فشهدوا من موارد السماع على أسرارهم مظاهر حكمته وآثار قدرته وعجائب لطفه وغرائب علمه - ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾- الحديد: 21 -].

وهذا التقسيم الثلاثي للسماع أي: الطبيعي والروحاني والإلهي هو نفس التقسيم الذي فصله الشيخ الأكبر في البابين 183/182 لمعرفة مقام السماع وتركه من " الفتوحات المكية " كما خصص الأبواب 236،235 و237 لما ينتجه السماع من تواجد ووجد ووجود. هذا الوجد الذي يقول عنه الطوسي ما خلاصته (1):

[إن مقصود القوم في السماع ليس كله للتلذذ بحسن النغمة، لأن الرقة والهيجان والوجد كامن فيهم أيضا عند فقدان الأصوات، والسكينة والهدوء كامن فيهم عند وجدان النغمات. فالمقصود في جميع ما يسمعون ما يناسب ما انخنس في قلوبهم من المواجيد والأذكار. ولا يصح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله وصفاته فلا يضيف إليه إلاّ ما أضاف إلى نفسه هو تعالى، ولا يكون قلبه ملوثا بحب ما سوى الله، حافظا لحدوده متعاهدا لوقته. فإذا كان كذلك يسمع ما يحثه على المعاملة والمجاهدة، ولا يسمع للتلذذ لكيلا يصير عادته فيشغله عن عبادته ورعاية قلبه].

وهذا الموقف المعتدل الحذر قريب من موقف الشيخ الأكبر حيث يقول عن السماع ما ملخصه (2):

[وأما مذهبنا فيه فإن الرجل المتمكن من نفسه لا يستدعيه، وإذا حضر لا يخرج بسببه. وهو عندنا مباح على الإطلاق لأنه لم يثبت في تحريمه شيء عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن كان الرجل ممن لا يجد قلبه مع ربه إلا فيه فواجب عليه تركه أصلا، فإنه مكر إلٰهي خفي. ثم إن كان يجد قلبه فيه وفي غيره وعلى كل حال، ولكنه يجده في النغمات أكثر، ولا أعني بالنغمات المسموعة في الشعر فقط، وإنما أعني بوجود النغمة في الشعر وفي غيره حتى في القرآن إذا وجد قلبه فيه لحسن صوت القارئ ولا يجده عندما يسمعه من قارئ غير طيب الصوت، فلا يعول على ذلك الوجد ولا على ما يجد فيه من الرقة في الجناب الإلٰهي، فإنه معلول وتلك رقّة الطبيعة. فإن كان عالما بالتفصيل ويفرق بين سماعه الإلٰهي والروحاني والطبيعي فلا يقول في سماع الطبيعة أنه سماعه بالله، فمثل هذا لا يحجر عليه، وتركه أولى ولا سيما إن كان ممن يقتدى به من المشائخ فيستتر به المدعي الكاذب أو الجاهل بحاله].

وتحذير الشيخ من الاستسلام إلى تأثير الأنغام لا يعني أنه ينكر استحسانها على الإطلاق، بل يعني وجوب معرفة مرتبتها، وهي مرتبة الطبيعة التي هي دون العقل والنفس، فهي تدخل ضمن السماع الطبيعي لا السماع الروحاني ولا الإلٰهي. بل يؤكد الشيخ أن تأثير النغمات أشد وأبلغ من تأثير الكلمات ويبين سبب ذلك فيقول عن الأنغام: [لا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه سلطانها إذا صادفت محلها لأن الحقائق الإلٰهية التي استندت إليها هذه النغمات أقوى من التي استند إليها الكلام] (3).

يعني أن الكلام يستند إلى أسماء إلاهية عددها يكاد يكون محصورا في أربعة هي: القائل المتكلم السميع الشكور. وأما الأنغام فتستند إلى عين هذه الأسماء مع أسماء حسنى أخرى مثل: الحكيم الجميل الطيب الواجد اللطيف القابض الباسط المحسان...

وإذا كان الشيخ يحذر من تأثير النغمات في السماع الطبيعي مخافة اعتبارها نتيجة تأثير سماع إلٰهي أو روحاني، فهو يقرر بأن مبنى الوجود كله على الأوزان الإلٰهية التي لا نهاية لحسنها، فيقول في مقدمة ديوانه الكبير واصفا حاله في معراجه الروحاني: [إلى أن اسمعني صريف الأقلام في صدري بالألحان، ونطقت المثاني والمثالث بحسب المطلوب من النقص والرجحان، فقلت: ما لهذا الإيقاع؟ فقيل: السماع. فقلت مالي وللشعر؟ فقيل: هو أصل هذا الأمر. النظم هو الجوهر الثابت

والنثر هو الفرع النابت. لا يظهر نثر إلاّ في عالم الكون، لا في حضرة العين. وإذا حقق هذا الأمر فما ثمّ نثر. أليس الشعر عين المقادير والأوزان، فانظر فيه تجده في وجود الأعيان. أين أنت من قوله: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾- الرحمٰن: 7 - ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ - الحجر: 21 - ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ - الرعد: 8 - ولما كان صعب المنال لم تقدر كل فطرة عليه. فتحقق أوزان تغاريد الأطيار، ومقادير حركاتها بالآصال والأسحار، وانظر في نغمات كل مكنون في الوجود تجده على وزن محفوظ وترتيب ملحوظ] إلى آخر ما فصله بأسلوب في غاية الحسن.

- الاتجاه الثاني الذي نجده في الثقافة الإسلامية قبل الشيخ الأكبر هو الذي ظهر عند بعض الحكماء والفلاسفة، خصوصاً عند فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكندي (ت: 258هـ/873م) الذي قيل عنه أنه صاحب أول مدرسة للموسيقى في الإسلام (4) - كما كان إسحاق الموصلي (ت: 258هـ /873م) صاحب أول مدرسة للغناء - وتطورت مدرسة الكندي على يد الفارابي (ت: 342هـ /953م) مؤلف كتاب «الموسيقى الكبير» الذي وضع فيه أسس التعاليم الصوتية، وبلغت المدرسة ذروتها عند الشيخ الرئيس ابن سينا (ت: 428هـ/1037م) الذي فصّل في كتابه «جوامع علم الموسيقى» بين الموسيقى كعلم وبينها كفن وصنعة.

ويمكن إدراج إخوان الصفا ضمن مدارس هذا الاتجاه الثاني حيث أنهم خصصوا للموسيقى في رسائلهم الرسالة الخامسة المؤلفة من أربعة عشر فصلاً. ومفاهيمهم في هذا الموضوع مطابقة لما فصله قبلهم الكندي والحكماء القدامى في اليونان ومصر وفارس والهند حول التناسب بين الألحان في عالم الإنسان وبين الأنغام في عوالم الأفلاك والأملاك. ففي الفصل السابع من تلك الرسالة نقرأ مثلاً: [ويقال أن فيثاغورس الحكيم (القرن السادس قبل الميلاد) سمع بصفاء جوهر نفسه وذكاء قلبه نغمات حركات الأفلاك والكواكب، فاستخرج بجودة فطرته أصول الموسيقى ونغمات الألحان... ثم بعده نيقوماخس وبطليموس واقليدس وغيرهم من الحكماء].

وعن الصلة الأصيلة بين الموسيقى والنفس البشرية تكلم أفلاطون في "الجمهورية" وأرسطو في " كتاب الشعر". وكل منهما بيّن مايحسن منها ويجب تعليمه، وما يقبح وينبغي استبعاده لسوء أثره. وتبعهما الكندي وطبقه على الموسيقى

العربية والشعر العربي، كما استخدم الموسيقى للعلاج، وفصّل في رسائله حولها أنواع تأثيراتها في النفوس، والمناسبات بين أنواع الألحان وساعات النهار، وبينها وبين البروج والكواكب السبعة، بل بينها وبين عقائد أهل كل ملة: فذكر أن أهل الهند يستعملون آلة ذات وتر واحد لاعتقادهم في الواحد المطلق. والثنوية الذين يعتقدون أن مبنى الوجود على الازدواجية صنعوا آلة بوتر ين، وشدوا سبعة دساتين أو أكثر تنتقل عليها أصابع اليد، والروم المسيحيون أهل التثليث صنعوا آلة بثلاثة أوتار وثلاثة دساتين، والحكماء - خصوصا الفيثاغوريون - يؤكدون على التربيع الطبيعي والعددي، ويقدسون العشرة لأنها مجموع الأعداد من واحد إلى أربعة، ووافقهم الشيخ الأكبر في ذلك. ومن طريف ما يذكره الكندي أن العود كان جسما مستديرا مخروطا شُقَّ نصفين فخرج منه عودان، حتى يكون مشاكلا للنصف المرئي من الفلك. وإنما كانت أوتار العود أربعة لتشاكل الأربعة وتناسبها ومناسباتها مع الرباعيات الوجودية الكثيرة زمانا ومكانا وأعيانا. ثم ركب على العود عشر طاقات لتوجد منها الأعداد العشرة، فجعلوا في الزير طاقة، وفي المثنى طاقتان، وفي المثلث ثلاث طاقات، وفي البم أربع. ثم «صبغوا» كل وتر بما يناسب أخلاط البدن حسب الترتيب التالي: فالزير للصفراء المناسبة لركن النار، والمثنى للدم المناسب للهواء، والمثلث للبلغم المناسب للماء، والبم للسوداء المناسبة للتراب. كذلك الأنغام السبعة تناظر الكواكب السبعة: فلزحل مطلق البم وسبابته للمشتري، وللمريخ وسطى البم وخنصره للشمس، وللزهرة سبابة المثلث ووسطاه لعطارد وخنصره للقمر.

والشيخ الأكبر يقرر هذه التراتيب والمناسبات ويستحسنها، ويقرر أن التناسب بين أنغام السماع ونشأة الإنسان مصدره السماء الثالثة حيث تجلى تعالى باسمه «المصور الجميل» في يوسف عليه السلام وكوكب الزهرة، وعنها يقول ما خلاصته (5): [ومن هذه السماء يعلم معنى الإتقان والحسن الملائم لمزاج خاص، ويعلم سر ترتيب الأركان التي تحت فلك القمر: نار تحتها هواء فماء فتراب، وسر ترتيب أخلاط الجسم على الإتقان الأبدع، فجعل مما يلي نظر النفس المدبرة المرة الصفراء يليها الدم ثم البلغم ثم المرة السوداء وهو طبع الموت. ومن هذه السماء ظهرت الأصول الأربعة التي يقوم عليها بيت الشعر: فالوتد المفروق يعطي التحليل، والوتد المجموع يعطي التركيب، والسبب الخفيف يعطي الروح، والسبب

الثقيل يعطي الجسم، وبالمجموع يكون الإنسان]. ويبين تناسب الأخلاط الأربعة مع الألحان فيقول (6): [كل خلط يطلب بذاته من يحركه لبقائه وبقاء حكمه فإن السكون عدم. فأوجد في نفوس العلماء حين سمعوا صريف الأقلام ما ينبغي أن تحرك به هذه النشأة الطبيعية فأقاموا لها أربع نغمات، لكل خلط نغمة في آلة مخصوصة وهي المسماة في الموسيقى بالبم، والزير، والمثنى، والمثلث. كل واحد من هذه يحرك خلطا ما بين حركة فرح وحركة بكاء وأنواع الحركات. وهذا لها بما هي نشأة طبيعية لا بما هي روحانية].

كذلك نجد عند الشيخ الأكبر تأكيدا على تناسب عميق للمنازل الفلكية بحركات كواكبها مع مخارج الحروف باهتزازات ألحانها فيقول إن في فلك المنازل ثمان وعشرون منزلة لأن عدد الحروف ثمان وعشرون، وليس العكس (7). يعني أن حروف الكلمات الإلٰهية قديمة صفة الموصوف بالقدم، وأما المنازل الفلكية فهي حادثة، والحادث تابع للقديم وليس العكس. ويفصل هذا المعنى بدقّة أكثر في باب فلك الكواكب الثابتة من كتابه " عقلة المستوفز" فيقول:

[وهذا الفلك فلك الحروف، ومن هنا نشأت في عالم الأجسام على الثمانية والعشرين منزلة من ثمانية وعشرين حرفا على المخارج المستقيمة. ثم حروف خرجت عن حد الاستقامة في الإنسان وغيره من الحيوانات، وهي بعدد ما بقي من الأقسام مقدار بمقدار لا يزيد ولا ينقص (...) وأخبرني بعض العلماء عن تلميذ جعفر الصادق - رضي الله عنه - أنه أوصلها إلى سبعة وسبعين حرفا في الحيوانات.. ولما كانت الحروف من هذا الفلك فلا تعطي خواصها إلاّ ما يعطيه حكم المنازل].

بعد هذه الجولة السريعة في ميدان السماع عند من تقدموا من الصوفية والحكماء، وصدى مفاهيمهم عند الشيخ الأكبر، تلاحظ أصالته في بيان الأصل الالهي للسماع. فكعادته في ربط الوقائع الكونية بأصولها الإلٰهية، فإن السماع عنده حقيقة إلاهية لها مظاهر عبر مراتب الوجود تنزلاً من حضرات الأسماء الحسنى إلى حضرات ديوان التسطير عند القلم الأعلى واللوح المحفوظ وما تحتهما من أقلام وألواح، ومرورا بالمنازل الفلكية إلى أن تتجلى في النفس الإنساني نطقا وسمعاً فوجدا ووجوداً.

ففي الحضرة الإلٰهية في الآن الدائم ثمّة سماع دائم متبادل بين الحق تعالى والأعيان الثابتة في علمه التي يسميها الشيخ بالحروف العاليات، وهي صور الأسماء الإلٰهية التي هي حقائق الذات العلية. فهي بلسان حالها الثبوتي تطلب بروزها لنفسها في الوجود العيني، فيسمعها - تعالى - ويلبي ندائها بقوله لها: كن، فتكون. أي بسماعها الثبوتي للأمر الالهي: كن، تجد نفسها متعينة بالوجود الحق المطلق في عين تقييده بأحكامها.

وفي هذا السماع الدائم المطلق المتبادل بين الوجود الحق المطلق ومظاهر تعيناته المقيدة الثابتة، تظهر أربعة أصول: ذات باسمها الحي، ونسبة بين الحق والأعيان الثابتة لها الاسم العليم، وتوجه بالاسم المريد، وقول بالاسم القدير القائل. ومن هذا التربيع الأصلي ظهرت كل الرباعيات الكونية، ومنها رباعيات السماع بمختلف مراتبه. ومن الاسم الرابع، أي القدير، تفرعت ثلاثة أسماء هي: المتكلم السميع البصير. وبالمجموع تكون الأسماء الأمهات الحاكمة في الكون سبعة، ومنها ظهرت كل سباعيات الوجود، ومنها سباعيات السماع.

يبين الشيخ استناد السماع الإنساني إلى ذلك السماع الإلٰهي فيقول ما خلاصته (8):

[قال تعالى: ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقال: ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ فقدمه على العلم والبصر. أول شيء علمناه من الحق وتعلق به منا: القول منه والسماع منا، فكان عنه الوجود. وكذلك نقول في هذا الطريق: كل سماع لا يكون عنه وجد، وعن ذلك الوجد وجود فليس بسماع. ولما لم يصح وجود العالم إلاّ بسماعه القول من الله لم يظهر وجود الفرق بين طرق السعادة وطرق الشقاء إلاّ بالقول الإلٰهي والسماع الكوني، فجاءت الرسل بالقول من قرآن وتوراة وإنجيل وزبور وصحف. فما ثَمّ إلاّ قول وسماع. وللسماع ثلاثة أقسام: إلاهي وروحاني وطبيعي:

- فالسماع الإلٰهي بالأسرار، وهو السماع المطلق من كل شيء وفي كل شيء وبكل شيء، حيث أن الوجود كله كلمات الله التي لا تنفد، وفي مقابلتها أسماع لا تنفد تحدث بحدوث الكلمات، وهو قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ ﴾- الأنبياء: 2 - وتلك الكلمات التي هي عين الموجودات

صور لأسماء الله تعالى على كثرتها. فلكل اسم لسان وقول، ولكل قول منا سمع، والعين واحد من القائل والسامع فإنّ الله عند لسان كل قائل، فما ثمّ قائل ولا سامع إلاّ الله. فهذا السماع الإلٰهي سار في جميع المسموعات، ويكون معه لأهله مزيد علم ومعرفة في مواد وغير مواد، وهو عام التعلق لأنّه مطلق كما أنّ وجود الحق مطلق، وأنغامه في ترتيب الأسماء الإلٰهية وفق الجمال المطلق].

ويتكلم الشيخ عن هذا الجمال المطلق فيقول ما خلاصته (9):

[يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الجميل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال). ليس في الإمكان أجمل وأبدع من العالم لأن الله أحب أن يرى نفسه في غيره فخلق العالم على صورة جماله ونظر إليه فأحبه حب من قيده النظر. وليس للحق منزه ومجلى إلا العالم لأن الحسن الإلٰهي قد حازه وظهر به. فمن أحب العالم لجماله فإنما أحب الله، فما ثمّ جميل إلا هو تعالى. ولهذا هام في جمال العالم العارفون وتحقق بمحبته المحققون لأنه مرآة الحق الجميل المتجلي في كل وجه والمطلوب من كل آية والمنظور إليه بكل عين. وأما أهل الجمال العرضي والحب العرضي فظل زائل وغرض مائل. وأمرنا الله أن نتزيّن له فقال: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾- الأعراف: 31 - وإذا تجملت لربك أحبك. وما تتجمل له إلا باتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم - إذ قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾- آل عمران: 31 - أي تزينوا بزينتي يحببكم الله فإنه يحب الجمال. وقد ذم قوما اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، وهم في هذا الزمان أصحاب سماع الدف والمزمار:

ما الدين بالدف والمزمار واللعب ... لكنما الدين بالقرآن والأدب

لما سمعت كتاب الله حركني ... ذاك السماع وأدناني من الحجب

حتى شهدت الذي لا عين تبصره ... إلا الذي شاهد الأنوار في الكتب]

- النوع الثاني للسماع عند الشيخ هو السماع الروحاني الذي يقول عنه ما ملخصه (10):

[إن متعلقه صريف الأقلام الإلٰهية في لوح الوجود المحفوظ من التبديل. فالوجود كله رق منشور والعالم فيه كتاب مسطور. فالأقلام تنطق، وآذان العقول

تسمع، والكلمات ترتقم فتُشهد، وعين شهودها عين الفهم فيها. ولما كان أصل السماع الإلٰهي عن التربيع، فكذلك هذا السماع الروحاني ظهر عن أربعة هي: ذات ويد وقلم وصريف قلم. فيكون الوجود للنفس الناطقة في سماع صريف هذه الأقلام في ألواح القلوب بالتقليب والتصريف. وتقليب العالم هو عين الآيات، وليست غير شؤون الحق التي هو فيها. ولا ينال هذا السماع إلا العقول التي ظهرت لمستوى، وينتج زيادة علم ومعرفة في غير مواد جملة واحدة. وأنغامه في ترتيب آثار الأسماء الحسنى في العالم كله، فيجد صاحبه في كل مسموع لأن المسموعات كلها نغم عنده].

وفي العديد من نصوصه يقرر الشيخ أن أصل الوجد الذي يجده الواجدون عند السماع هو هذا التناغم والتجاوب ومناغاة الحنين العلوي بين قلم الروح الأعلى المذكر ولوح النفس الكلية المؤنثة. وهو ما يعبر عنه السهروردي في الباب الرابع والعشرين من " عوارف المعارف" فيقول: [إنما يستلذ الروح النغمات لأن النغمات بها نطق النفس مع الروح بالإيماء الخفي إشارة ورمزا بين المتعاشقين، وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلي ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكورة الروح].

ولهذا السماع الروحاني عند الشيخ في العالم العلوي مرتبتان: الأولى ملكوتية فوق الطبيعة بين القلم الأعلى واللوح المحفوظ، والثانية جبروتية تحت حكم الطبيعة بين العرش والكرسي باطنا، وبين فلك البروج وفلك الكواكب ظاهرا، أي في مراتب الجنان فوق سدرة المنتهى.

يقول الشيخ عند وصفه لمعراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الباب 367 من الفتوحات المتعلق بسورة الإسراء، بعد تجاوزه سدرة المنتهى: [إلى أن ظهر لمستوى سمع منه صريف القلم والأقلام في الألواح بما يكتب الله بها مما يجريه في خلقه، وما تنسخه الملائكة من أعمال عباده، وكل قلم ملك، ثم زج في النور وأصابه الوجد فأخذ يميل ذات اليمين وذات الشمال، واستفرغه الحال، وكان سببه إيقاع تلك الأقلام وصريفها في الألواح فأعطت من النغمات المستلذة ما أداه إلى ما ذكرناه من سريان الحال فيه والحكم عليه، فتقوّى بذلك الحال وعلم ما لم يكن يعلمه قبل ذلك].

و حيث أن مرتبة هذا السماع فوق فلك الكواكب نجد الشيخ في الباب

167 من الفتوحات في معرفة كيمياء السعادة الذي فصل فيه تفصيلا رائعا بديعا الفرق بين معراج الحكيم بفكره ومعراج التابع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بروحه، نجده بعد وصفه لنزول التابع في الكرسي يقول ما ملخصه (11):

[ثم إنه يفارق هذا الموضع ويزج به في النور الأعظم فيغلبه الوجد. وهذا النور هو حضرة الأحوال الظاهر حكمها في الأشخاص الإنسانية. وأكثر ما يظهر عليهم في سماع الألحان، فإنها إذا نزلت عليهم تمر على الأفلاك، ولحركات الأ فلاك نغمات طيبة مستلذة تكسو الأحوال وتنزل بها على النفوس الحيوانية في مجالس السماع].

وقد نبه العديد من الصوفية على أن مبدأ السماع الروحاني كان في الموطن الأول للأرواح حين خاطبها الحق في عالم الذر: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ - الأعراف: 172 - فالسماع يحرك الحنين إلى ذلك الوطن الأصلي المطلق حيث القرب والصفاء، وهو ما تشير إليه معاني قصيدة مشهورة تنسب إلى كبير أساتذة الشيخ الأكبرأي سيدي شعيب أبي مدين (ت: 589هـ) ولا تزال إلى اليوم تنشد في حلق السماع الصوفي وفيها يقول (12):

نعيش بذكراكم إذا لم نراكمو ... ألا إن تذكار الأحبة ينعشنا
يحركنا ذكر الأحاديث عنكمو ... ولولا هواكم في الحشا ما تحركنا
فقل للذي ينهي عن الوجد أهلهِ ... إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
و سلم لنا فيما ادعينا فإننا ... إذا غلبت أشواقنا ربما صحنا
و تهتز عند الاستماع حواسنا ... وإن لم نطق حمل التواجد نوحنا
أما تنظر الطير المقفص يا فتى ... إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى
وفرج بالتغريد ما في فؤادهِ ... فيفلق أرباب القلوب إذا غنى
ويهتز في الأقفاص من فرط وجدهِ ... فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى
كذلك أرواح المحبين يا فتى ... تهزهزها الأشواق للعالم الأسنى
أتلزمها بالصبر وهي مشوقةٍ ... وكيف يطيق الصبر من شاهد المعنى
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا ... نعم ترقص الأشباح يا جاهل المعنى
فيا حادي العشاق قم واحد قائما ... وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا

ويــا عاذلــي كــرر علــيّ حديــثهمِ فأعينـــنا مـــنهم وأعيـــنهم مـــنا

والشيخ الأكبر يوافق الصوفية في إنشادهم الأشعار التي تحثّ على حبّ الله تعالى ودوام ذكره ولو بأساليب التشبيب والغزل اللطيف ويقول في ذلك (13):

[ولا ينبغي لواعظ أن ينشد إلاّ الشعر الذي قصد فيه ذكر الله بلسان التغزل أو بغيره، فإنه من الكلام الذي يقوله أهل الله، فهو حلال قولا وسمعا، فإنه مما ذكر اسم الله عليه. ولا ينبغي أن ينشد في حق الله شعرا قصد به قائله في أول وضعه غير الله، فإنه بمنزلة من يتوضأ بالنجاسة. فإن القول في المحدث حدث بلا شك، فإن للنية أثر في الأشياء].

وقد نظم الشيخ الأكبر أزيد من خمسين ألف بيت من الشعر من حضرتي السماعين الالهي والروحاني وجمع بعضها في ديوانه الكبير الذي ختمه بأزيد من خمسمائة وستين منظومة في الغزل والتشبيب المشيرة كلها إلى معارف إلٰهية، ومن ضمنها قصائد ديوانه «ترجمان الأشواق» مع شرحه في «ذخائر الأعلاق»، وافتتح كل منظومة بعنوان يدعوا إلى التأمل العميق. وعناوين المنظومات المائة واثنين وثلاثين الأولى فيها وصف للروح والخاطر وصفا مناسبا لمعاني الأبيات التي تتلوها. وعناوين المنظومات الأخرى، وعددها أزيد من أربعمائة وثلاثين، فيها وصف للروح والخاطر والسماع، كقوله مثلا:

- والروح همّة شريفة والخاطر تقديس والسماع ليس كمثله شيء.
- والروح تمليك والخاطر تشريك والسماع تحقيق.
- والروح طيب أعراق والخاطر كريم أخلاق والسماع حق واستحقاق.

ومن عناوين قصائد «ترجمان الأشواق»:

- والروح حيرة والخاطر غيرة والسماع تعريف.
- والروح عراقي والخاطر حلبي والسماع روح علم.
- والروح سكر والخاطر زيادة والسماع عبادة.

فهذه العناوين لكل من أزيد من 560 منظومة شعرية تستحق تحليلا دقيقا ودراسة معمّقة في بحث مستقل.

- النوع الثالث للسماع عند الشيخ هو الذي بأنغامه الأربعة الأساسية يحرك الأخلاط الجسدية الأربعة كما سبق ذكره، ولا ينتج علما أصلاً، مع الحال والوجد

الصحيح الذي يطلبه الطبع وهو سماع أكثر الناس اليوم.

وفي بعض كتبه، مثل رسالة «روح القدس» وكتاب «التدبيرات الإلٰهية»، يحذر الشيخ من انحراف السماع الطبيعي إلى السماع الشيطاني عندما يبتعد صاحبه عن أحكام الشر ع وآدابه وعن مراقبة الله له، ويعطي علامات التمييز بين السماع الرباني المحمود والسماع الشيطاني الممقوت. فمن علامات السماع العقلي الالهي خمود البشرية والفناء التام عن الحس، ويحصل له في تلك الغيبة علم يعقله هناك ويعقله إذا رجع، ويعبّر عنه على قدر ما أعطاه الله من العبارة، ويجد القلب عند الإفاقة منه سروراً. أما إذا غيّب ثم ردّ ولم يجد شيئا كالمصر وع، فهذا حال صحيح ولكن من المزاج ولا فائدة قيه، وهذا حال السماع الطبيعي. أما الحال الشيطاني فهو الذي لا يغيب صاحبه عن نفسه ولا عن حسه ويتحرك، إذ ليس في قوّة الشيطان أن يفني الشخص عن حسّه ثمّ يلقي إليه ويعقل عنه وإنما هو على أحد وجهين على البدل: إما أن يفنيه مثل الصرع ولكن لا يلقي إليه شيئا لأنّه لا يجد من يأخذ عنه. وإما أن لا يفنيه عن حسه ويلقي إليه فيحس بمواقع الخطاب في نفسه ويخبر عما وجده، لكن كونه ينسب ذلك إلى الحق باطل، ويقنع إبليس منه بأن يعتقد أنّ ذلك من الله فيستولي عليه طول عمره.

خلاصة القول:

ما بيّنه الشيخ الأكبر من حقائق حول السماع هو محصلة التكامل بين مفاهيم كانت قبله مختلفة منفصلة عن بعضها البعض، فزاوج الشيخ بينها في ترتيب شرعي عرفانيّ حكيم منسجم كامل التناسق، جامع للأحكام الشرعية وآدابها، وللأذواق الصوفية العرفانية في سلسبيل شرابها، ولعلوم دقائق الحكمة الخالدة ولبابها، في إطار الوحدة القرآنية للوجود التي روحها قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾- البقرة: 115 -.

وصدق الله العظيم في قوله ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ - المائدة: 83 -.

المراجع

ف: الفتوحات المكية ل - ابن العربي - دار صادر بيروت المجلدات I، II، III، VI ،
ب - باب ص- صفحة

1 - اللمع للطوسي - دار الكتب الحديثة بمصر 1380هـ - 1990م ص: 338... 389

2 - فII ب 183 ص 368 - 369

3 - فII ب 182 ص 367 - 368

4 - كل ما يذكر عن الكندي في هذا البحث مرجعه إلى باب (الموسيقى) من كتاب أحمد فؤاد الأهواني الذي عنوانه: "الكندي فيلسوف العرب" - العدد 26 من سلسلة " أعلام العرب" ص: 161... 188

5 - ف II ب 167 ص 275

6 - ف II ب 182 ص 367

7 - ف II ب 198ص 440

8 - ف IIب 182ص366 - 367

9 - ف IIIب 372ص 449 - 450/ IV ص 269 - 270

10 - ف II ب 182 ص367 - 368

11 - ف II ب 167 ص 281 - 282

12 - هذه القصيدة ذكرها كاملة الشيخ عبد الحليم محمود في كتابه " شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث" وقال أنها نقلت منسوبة إلى أبي مدين من كتاب " السفينة" و" قاموس الأناشيد" و" سبيل السعادة" و" أشعة الأنوار" وكلها كتب أناشيد صوفية.

13 - ف III ب 398 ص 562

مفهوم الحكمة وعلاقته بالفنون عند الشيخ محيي الدين ابن العربي

اخترت الحديث حول مفهوم الحكمة وعلاقته بالفنون عند الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي (560 - 638هـ) ليكون حلقة وصل بين موضوع هذه الموسميات وموضوع الموسميات السابقة التي جرت منذ عامين وكان مدارها حول ابن العربي هذا من ناحية، لكن السبب الأهم الذي دعاني لاختيار مفهوم الحكمة عند الشيخ الأكبر بالخصوص هو أن مفاهيم الشيخ في أي موضوع تستند دائماً لحقائق القرآن التي فتح الله بها عليه وفصلها تفصيلاً لم يسبق إليه. فتفصيله لمفهوم الحكمة نابع من أصولها القرآنية.

ولأهمية هذا المفهوم تكرر الاسم الحكيم في القرآن 97 مرة كاسم الله تعالى في أغلب المواقع أو كوصف للقرآن في بعض الآيات (1). وجاء في أغلب الآيات مقترناً بالاسمين العليم أو العزيز لأنه لا حكمة بدون رسوخ في العلم، ولأن الحكمة تكسب صاحبها العزة في جميع المواطن والأحوال كما عبر عنه الخبر النبوي: (الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك) (2). وفي آيات أخرى قليلة جاء الاسم «الحكيم» مقترناً بالأسماء التي تتعلق معانيها بالحكمة وهي: «الخبير» و«العلي» و«الواسع» و«الحميد» و«التواب» (3).

وقد تكلم الشيخ عن معنى التعلق والتحقق والتخلق بهذا الاسم «الحكيم» فقال في كتابه: «كشف المعنى عن سر أسماء الله الحسنى» ما خلاصته: [التعلق بالحكيم هو افتقارك إليه سبحانه أن يرزقك وضع الأشياء مواضعها وترتيب الأمور محالها وأزمانها وأمكنتها... والتحقق به له وجه إلى القضاء والقدر ووجه إلى الحكمة بمعرفة المناسبات بين الأشياء، فمن حصل له معرفتها في العلوم والتعليم والأعمال والدعاء فقد تخلق بهذا الاسم].

وأما كلمة (حكمة) فتكررت في القرآن 20 مرة في 12 سورة (4)، جاءت مقترنة بالعلم والكتاب كوظيفة أساسية من وظائف الرسالة والنبوة كقوله تعالى:

﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ 151 البقرة - وجاءت مقترنة بكيفية الدعوة إلى سبيل الله في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ 125 النحل - ولعلاقتها بالحكم والعلم والعزة جاءت مقترنة بالملك والخلافة كقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ 54 النساء. ومن هؤلاء سليمان وداود عليهما السلام الذي قال الله عنه: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ 251 البقرة. وقال عن معاصره لقمان الحكيم: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ 12 لقمان. ففي هذه الآية بيان على أن الحكمة العليا موهبة خير من الله وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ 269 البقرة - وما كثره الله لا تدخله القلة، ووردت الحكمة أيضاً بمعنى السنة النبوية فقال تعالى مخاطباً نساء النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ 34 الأحزاب - فمن هذه الحكمة النبوية الخبر: (من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة في قلبه على لسانه) (5). [الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أين وجدها]. [الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة وواحد في الصمت] (6) ولا يعنى بالعزلة الانطواء على السلبية أو الفراغ بل عزلة التأمل العميق والتوجه الحق (7).

من هذه الأصول القرآنية فصّل الشيخ الأكبر مفهوم الحكمة في موسوعته العرفانية العظمى «الفتوحات المكية». وخصص الباب 166 لمعرفة مقام الحكمة والحكماء، فعرّف الحكمة بقوله - مع اختصار لكلامه - [الحكمة علم بمعلوم خاص وهي صفة تحكم ويحكم بها ولا يحكم عليها، واسم الفاعل منها حكيم فلها الحكم واسم الفاعل من الحكم الذي هو أثرها حاكم وحكيم، (وبهذا سمي الوسن الذي يحكم به الفرس حَكَمَة) فكلّ علم له هذا النعت فهو الحكمة. والأشياء المحكوم عليها بكذا تطلب بذاتها واستعدادها ما تحتاج إليه فلا يعطيها ذلك إلا من نعته الحكمة واسمه الحكيم (...) وهو قوله تعالى: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ من

اسمه الحكيم (...) فالحكم يجري مع كل حال وموطن بحسب ذلك الحال وذلك الموطن. وليس هذا إلا للملامية خاصة فهم المجهولون في الدنيا لأنهم لا بد أن يحكم عليه ما يدعو إليه].

وكعادة الشيخ في جميع مكتوباته فإنه يرتب فصولها وأبوابها في تسلسل متناسق ورباط وثيق من لطيف المعاني بحكمة بالغة، فجعل الباب الذي يسبق باب معرفة الحكمة أي الباب 165 لمعرفة مقام التحقيق والمحققين وجعل الباب الذي يتلوه أي الباب 167 في معرفة كيمياء السعادة. أي أنه جعل باب التحقيق كمدخل لباب الحكمة لأن التحقيق يمثل الجانب العلمي النظري والروحاني للحكمة. أما جانبها العملي التفصيلي فيتمثل في كيمياء السلوك العرفاني بالفكر والنظر عند الفيلسوف والذكر والاستقامة الشرعية عند التابع للرسول، وهو الأكمل والأسعد والأعلى عند الشيخ، وكيمياء الاعتدال الأخلاقي والنفسي للفرد والمجتمع، وكيمياء علاج الأجسام المعدنية والحيوانية والنباتية والإنسانية وكيفية تقويمها على فطرة كمالها الأصلي. كل ذلك خصص له الباب الرائع الطويل الكثيف بأسراره اللطيف بأنواره باب كيمياء السعادة التالي لباب الحكمة. قلت الجانب الإجمالي النظري للحكمة هو التحقيق وصاحبه يسمى محققاً لأن الشيخ يعرّفه فيقول ما خلاصته:

[التحقيق هو المقام الذي لا يقبل الشبه القادحة فيه، وهو معرفة ما يجب لكل شيء من الحق الذي تطلبه ذاته فيوفيه ذلك علماً، فإن اتفق أن يعامله به حالاً فهو الذي ظهر عليه سلطان التحقيق. والله هو الحكيم المطلق وهو الواضع للأمور مواضعها فليس في الكون خطأ بنسبة الترتيب لله. فعلامة المحقق أن يرى كل الأمور على وضع الحكمة الإلٰهية، فيكون عنده لكل ما يسمى خطأ في الوجود وجه إلى الحق يعرفه. وهو العالم بما يستحقه كل أمر عدماً كان أو وجوداً. ومن كان هذا نعته فهو الإمام المبين وهو مجلى العالمين]. ثم شرع الشيخ في الباب 166 مبيناً أن الحكيم هو الذي له القدرة العملية على تطبيق علم المحقق وختمه بقوله: [وللحكماء السياسة في العالم بالطريقة المشروعة التي شرع الله لعباده أن يسلكوا فيها فيقودهم ذلك السلوك إلى سعادتهم]، ثم شرع في الباب 167 في بيان معرفة كيمياء هذه السعادة وارتباط الحكمة في مسمى الإكسير الكيميائي بأنواعه الأربعة الجسدي المعدني والنفسي والروحاني والإلٰهي فبدأ الباب بقوله:

[الكيمياء عبارة عن العلم الذي يختص بالمقادير والأوزان في كل ما يدخله المقدار والوزن من الأجسام والمعاني محسوسا ومعقولا، وسلطانها في الاستحالات أعني تغير الأحوال على العين الواحدة، فهو علم طبيعي روحاني إلهي. وإنما قلنا إلهي لورود الاستواء والنزول والمعية وتعدد الأسماء الإلهية على المسمى الواحد باختلاف معانيها].

ولعلاقة الحكمة بمعرفة الموازين نجد الشيخ في أطول أبواب الفتوحات،أي الباب 559 الخاص بالأسماء الحسنى، يخصص للاسم الحكيم فقرة افتتحها بقوله:

[إن الحكـيم الـذي ميـزانه أبـدا | بالرفع والخفض منعوت وموصوف
يـرتب الأمـر تـرتيباً يـريك بـه | علمـاً وفـيه إذا فكـرت تعـريف
بـأن الله فـرد لا شـريك لـه | في ملكه وله في الخلق تصريف
ميـزانه الحـق لا خسران يلحقـه | ولا يقـوم بـه فـي الـوزن تطفـيف]

ثم بيّن العلاقة بين الحكمة وفصل الخطاب، وهو الإيجاز في البيان أو الإسهاب في موطنه، ووضح أن ما كان عليم حكيم وأن كل حكيم عليم، وأن حالة الرضى المطلق بأحكام الله لأنها هي عين الحكمة.

ولعلاقة الحكمة بفصل الخطاب والحسن المعنوي والصوتي للنطق والبيان نجد الشيخ يتكلم على قطب حكماء الإسلام بدون أن يصرح باسمه فيجعله على قلب خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام الذي سُمي بذلك لكمال فصاحته وروعة بيانه مع دعوته للعدل في كل الموازين، ويجعل سورته من القرآن ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ لدلالة آياتها على مظاهر الحكمة كالآية 3: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾، فمنع أن يكون هناك تفاوت بل أراه الأمور على وضع الحكمة الإلٰهية. تكلم الشيخ عليه في الباب 463 من الفتوحات لمعرفة الأقطاب الاثني عشر الذين عليهم مدار العال فقال عنه ما خلاصته: (هذا القطب على قدم شعيب سورته ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ وهي التي تجادل عن قارئها. وله علم البراهين وموازين العلوم ومعرفة الحدود، حاكم على الطبيعة مؤيد للشريعة، ولا يرى الحق في شيء من تجليه دون

أن يرى الميزان بيده يخفض ويرفع، جمع له بين القوتين العلمية والعملية فهو صنع لا يفوته صنعه بالفطرة، وله في كل علم ذوق إلٰهي من العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية والإلٰهية، وكل أصناف هذه العلوم عنده علوم إلٰهية ما أخذها إلا عن الله وما رآها سوى الحق]. ويبدو أن لهذا القطب الحكيم صلة أصلية مع الإمام جعفر الصادق (ت: 148هـ) إمام أهل البيت عليهم السلام،إذ من مدرسته تفجرت ينابيع مختلف أنواع علوم الحكمة عند المسلمين. وربما يشير الشيخ بذكره الصنعة والميزان للكيمياء، وعلم الموازين الذي اشتهر به جابر بن حيان الصوفي تلميذ جعفر.... والكيمياء عند هؤلاء ليست هي صنع الإكسير الذي يحوّل المعدن إلى ذهب يتصارع عليه أهل الدنيا، بل هي مجموعة من أرقى المعارف تتناسق فيها كل العلوم في منظومة رائعة تجمع العلوم بالأسماء الإلٰهية وتصريفاتها ومظاهرها الفلكية في إزار العظمة المنشور في الآفاق ومساقطها في الحروف والكلمات وأعدادها ومواقعها المناسبة في الأركان والعناصر والمولدات الطبيعية، وانطواء كل ذلك في الإنسان الكامل الخليفة الجامع الذي هو روح إكسير كيمياء السعادة أو كيمياء الأبدال، وذلك عند التحقق بالاسم الأعظم الذي بذكره تتبدل معادن النفوس الخسيسة إلى أنوار مقدسة نفيسة وبه تستحيل كثافة التقييد إلى لطافة الفتح والإطلاق، وهو ما أشار إليه في عدة مواضع من الفتوحات عندما سئل الشيخ أبو عبد الله بن الجلاء (ت: 306هـ): هل كان ذو النون المصري (ت: 245هـ) يتعاطى صنعة الكيمياء، فأجاب: (نعم، ولكنها كانت كيمياء عليم الأسود الذي كان يصلي العشاء في بغداد والصبح في مكة).

وإنما ذكر هذا عند تعليقه على قصة عليم الأسود الذي كان من أئمة الصوفية لما رواه السلمي (ت: 412هـ) في كتاب (مقامات الأولياء) أنه ضرب بيده أسطوانة من رخام في المسجد فإذا هي كلها ذهب، فتعجب من ذلك بعض الحاضرين فقال له عليم: (يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراها لحقيقتك بربك). كأنه يشير للخبر القدسي الدال على حقيقة الإكسير الروحاني وهو: (عبدي أطعني أجعلك ربانياً تقول للشيء كن فيكون). فحجر الحكمة عند هؤلاء هو ما روى في الحديث النبوي الصحيح: (رأس الحكمة مخافة الله تعالى) (8).

وفي المحيط الشاسع للحكمة الأصلية تلتقي في تناسق بديع للغاية جميع

العلوم والفنون من الرياضيات والكيمياء، والطب والفلك إلى النحو والصرف والموسيقى والشعر، إلى الخط والفن المعماري ومختلف الحرَف، تتناسق كلها كمظاهر مختلفة متكاملة أو تطبيقات متنوعة للعلم الأصلي الذي منه نبعت وإليه تؤول، وهو علم التوحيد، لأن آيات الآفاق في إزار العظمة وآيات الأنفس في إنسان رداء الكبرياء، ما هي إلا مطالع لأنوار شموس الذات العلية التي لا نهاية لكمالاتها. والغاية من كل فن أصيل هو إيقاظ هذا الحضور في وعي الشعور...

وكمثال بسيط نلمح للمناسبات التي يراها الشيخ في حرف الدال. فالدال هو مفتاح اسم الله تعالى: (دائم) فهو حرف الدوام أي الثبات والاستقرار. وعدده أربعة، والشكل المربع هو أكثر الأشكال استقراراً. ولهذا لا تكمل نشأة كل مرتبة إلا بتربيع أركانها كالكعبة أو كحملة العرش الأربعة اليوم والثمانية غداً (9). فالأسماء الإلٰهية المتوجهة على الإيجاد أركانها الأمهات الأربعة هي بالترتيب: (الحي - العليم - المريد - القدير). ومن توجهاتها على حضرة الطبيعة ظهرت الأركان الطبيعية الأربعة: الحرارة من الحي والبرودة من العليم واليبوسة من المريد والرطوبة من القدير (10). وبتزاوج هذه الأركان ظهرت الأصول الجسمية الأربعة: الهواء والنار والتراب، من أصلها الأول المسمى بالأثير أو الركن الأصلي الخامس (11). ولا تعني هذه الأربعة الأجسام المعروفة في الأرض بل تعني الهيئات الأربع التي يمكن لمادة الهباء الكوني الأصلية أن تتجلى فيها... وبظهور الجسم الكلي كملت المقولات المنطقية العشرة المشهورة عند الحكماء ومرجعها لأصول أربعة هي: الجوهر والعرض والمكان والزمان (12). وبتثليث الأربعة في فلك الأقصى ظهرت البروج الاثنا عشر بشهورها وفصولها الأربعة،في كل شهر قمري أربعة أسابيع، وظهرت الجهات الأربع. وبتسبيعها في الفلك المكوكب ظهرت المنازل الثمانية والعشرون. وبين الفلكين الأطلس والمكوكب مراتب الجنان بأهلها الأربعة (المؤمنون والأولياء والأنبياء والرسل) في مقابلة أهل جهنم الأربعة (مشركون وكفار ومنافقون ومتكبرون). وأنهار الجنان أربعة: ماء ولبن وعسل وحمر،وهي مناسبة لعلوم الوهب الأربعة والكتب الأربعة: توراة وإنجيل وزبور وفرقان. وهكذا تنزلت الرباعيات عبر مراتب الوجود إلى أن ظهرت في المراحل الأربعينية التي يمر بها الجنين في بطن أمه (13) ومراحل عمره بأخلاط جسمه الأربعة. فلنسمع الشيخ

وهو يتكلم عليها وعلى علاقتها بسماع الشعر والموسيقى وذلك خلال وصفه لمعراج السالك في السموات فيقول عن العلوم التي تتجلى له في السماء الثالثة ما خلاصته في الباب 167 في الفتوحات: (فجاء كوكب الزهرة إلى يوسف عليه السلام وعنده هذا السالك وهو يلقي إليه ما خصه الله به من علوم المثال والخيال والتعبير والعوالم البرزخية، وعرفه بموازينها ونسبها، فإن هذه السماء الثالثة سماء التصوير التام والنظام، ومنها يكون الإمداد للشعراء والنظم والإتقان والصور الهندسية في الأجسام - وتصويرها في النفس من السماء الثانية حيث عيسى عليه السلام-. ومن هذ السماء الثالثة يعلم معنى الإحكام والحسن الذي يتضمن وجوده الحكمة، كتدبير النطفة في الرحم في شهره الخامس، وكترتيب الأركان تحت فلك القمر: نار فهواء فماء فتراب، ومن هذه السماء رتب الله في هذه النشأة الجسمية الأخلاط الأربعة على الإتقان الأبدع فجعل مما يلي النفس المدبرة المرة الصفراء ثم الدم ثم البلغم ثم المرة السوداء وهو طبع الموت. ولولا هذا الترتيب ما حصلت المساعدة للطبيب فيما يرومه من حفظ الصحة. ومن هذه السماء ظهرت الأصول الأربعة التي يقوم عليها بيت الشعر كما قام الجسد على الأخلاط الأربعة وهما السببان والوتذان. فالسبب الخفيف يعطي الروح والسبب الثقيل يعطي الجسم والوتد المفروق يعطي التحليل والوتد المجموع يعطي التركيب وبالمجموع يكون الإنسان (...) وكل خلط منها يطلب بذاته من يحركه لبقائه وبقاء حكمه فأوجد في نفوس العلماء لما سمعوا صريف الأقلام الإلٰهية في لوح الوجود المحفوظ ما ينبغي أن يحرك به هذه النشأة الطبيعية فأقاموا لها أربع نغمات لكل خلط نغمة في آلة مخصوصة موسيقية وهو علم الألحان والأوزان بالبم والزير والمثنى والمثلث كل واحد يحرك خلطاً ما بين حركة فرح وبسط أو بكاء وقبض...) إلى آخر ما فصله في الباب 182 من الفتوحات المخصوص بالسماع.

والحكيم الكامل عند الشيخ هو المتمكن نظرياً وعملياً من العلوم الأربعة: الإلٰهي والرياضي والمنطقي والطبيعي بمعرفة موازينها. وموازين أصول هذه العلوم عنده كما عند جابر ترجع إلى موازين الحروف وقيمها العددية من حيث أن كل الموجودات بقوانينها مظاهر لكلمات الله المقدسة التي لا تنفد، لكل كلمة قدر كيفي يتمثل في خواص وطبائع حروفها، ومقدار كمي يتمثل في قيم أعدادها.

وكنموذج بسيط نورد تعريف الشيخ لحرف اللام وفيه يظهر كيف أن الحرف عند أهل هذه المفاهيم العالية مفتاح لعوالم من الشهادة والغيب تبدو متباعدة للبعيد عن هذا الفن فيقول (14): «[اللام من عالم الشهادة والجبروت. مخرجه من حافة اللسان أدناها إلى منتهى طرفه. عدده في الاثنى عشر فلكاً ثلاثون، وفي الأفلاك السبعة ثلاثة، بسائطه الألف والميم والهمزة والفاء والياء فلكه الثاني، حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له الغاية، مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة والبرودة واليبوسة، عنصره الأعظم النار والأقل التراب، يوجد عنه ما يشكل طبعه، حركته مستقيمة وممتزجة، له الأعراف، ممتزج، كامل، مفرد موحش، وله من الأسماء الإلهية كل اسم في أوله حرف من حروف بسائطه أو حروف أي الألف والميم]. ويضيق الوقت كثيراً عن شرح كل كلمة من هذا التعريف.

وحيث أن الحروف والكلمات من عالم الأنفاس، فقد بين الشيخ أن قطب أقطاب الحكمة هو قطب عالم الأنفاس الذي خصص له الباب 15 من الفتوحات تحت عنوان: [معرفة الأنفاس ومعرفة أقطابها المحققين وأسرارهم] وفيه يقول مع اختصار لكلامه: [والأنفاس روائح القرب الإلهي، فلما تنسمت مشام العارفين عَرْف هذه الأنفاس وتوفرت الدواعي منهم إلى طلب محقق ثابت القدم في ذلك المقام يثبتهم بما في طي ذلك المقام الأقدس من الأسرار والعلوم بعد البحث بالهمم عرُفوا بشخص إلهي عنده السر الذي يطلبونه وأقامه الحق فيهم قطباً يدور عليه فلكهم يقال له مداوي الكلوم، فانتشر عنه فيهم من العلم والحكم والأسرار ما لا يحصره كتاب، وأول سر اطلع عليه الدهر الأول الذي عنه تكونت الدهور، وأول فعل أعطى فعل ما تقتضيه روحانية السماء السابعة روحانية كيوان، فكان عليماً بالكيمياء وليست سوى معرفة المقادير والأوزان، ولم يطلب على هذا رغبة في المال ولكن رغبة في حسن المآل، ليقف من ذلك على رتبة الكمال. وكان هذا الإمام من أعلم الناس بتقويم صحة الأجسام وما للعلم العلوي من الآثار في النشيء الطبيعي. وكان عنده من أسرار إحياء الموات عجائب. وكان يشغل أصحابه بعلم التدبير وما شاكله من تركيب الأرواح في الأجساد وتحليل الأجساد وتأليفها ليقفوا من ذلك على صنع الله العليم الحكيم. وعن هذا القطب خرج علم العالم

وكونه إنساناً كبيراً وأن الإنسان مختصره في الجرمية مضاهيه في المعنى، وعنه ظهر أيضاً علم الفلك وعلم التناسب بينه وبين الكيمياء من جهة، وبينهما وبين السلوك الروحاني لمعرفة الرب تعالى... وكان في زمان حياته في الدنيا إذا وقف وقف لوقفته سبعون قبيلة كلهم قد ظهرت فيهم المعارف الإلٰهية وأسرار الوجود وكان أبداً لا يتعدى كلامه السبعة. فلما درج هذا الإمام ولي مقامه في القطبية تلميذه واسمه المستسلم وكان غالب علمه علم الزمان ودهر الدهور وعلم حكمة الدنيا في لعبها بأهلها وما مات حتى علم من أسرار الحق في خلقه 36500 علم من العلوم العلوية خاصة - (أي عدد أيام 100 سنة) - وولي بعده شخص فاضل اسمه مظهر الحق عاش 150 سنة ومات، وولي بعده الهائج وكان كبير الشأن ظهر بالسيف عاش 140 سنة مات مقتولاً في غزاة. ولما قتل ولي بعده شخص يقال له لقمان ويلقب واضع الحكم وكان في زمن داود، كان كثير الوصية لأصحابه. ولما مات ولي بعده شخص اسمه الكاسب له قدم راسخة في علم المناسبات بين العالم والإنسان، عاش ثمانين سنة. ولما مات ورثه شخص يسمى جامع الحكم عاش 120 سنة، له كلام عظيم في أسرار الأبدال والشيخ والتلميذ وعلوم الطريق وأسرار النبات، وكان يقول بالأسباب] انتهى باختصار شديد.

فمداوي الكلوم، قطب عالم الأنفاس والحكمة هو إدريس عليه السلام، كناه الشيخ بذلك لأنه بعلاج جراحات الهوى خبير، وليشير إلى العلوم التي انتشرت من مدرسته والمتعلقة بالكيمياء والفلك والطب الجسماني والنفساني والروحاني والإلٰهي في عالم الإنسان والمعادن والطبيعة عموماً، وليشير أيضاً لعلاقة تلك العلوم بأسرار الحروف والأعداد والنجوم ومنازلها، وقد روي في الحديث إن إدريس أول من خط بالقلم،أي عنه ظهرت الحروف الرقمية بأرقامها العددية المناسبة للمنازل الفلكية.

فكلمة (مداوي) تشير للدواة زيادة على الدواء، وكلمة (كلوم) تشير للكلام زيادة على الجروح. والملاحظ أن مجموع أعداد (مداوي الكلوم) بحذف مكررها هو (111- مداوي كل) والذي هو عدد كلمة (قطب = 100 + 9 + 2) و(ألف=1+30 +80).

فالآحاد الثلاثة من 111 قد تشير إلى اللقب المعروف به إدريس وهو

المثلث بالعظمة أو المثلث بالحكمة. وقد تشير أيضاً إلى الثلاثيات الكثيرة المنسقة لمراتب الوجود والإيجاد:

- كالذات والصفات والأفعال في الحضرة الإلٰهية.
- أو الملك والملكوت والجبروت في الحضرة الكونية.
- أو الجسم والنفس والروح في الحضرة الإنسانية.
- أو الفاعل والفعل والمنفعل في الحضرة الطبيعية.
- أو الكبريت المذكر والزئبق المؤنث والملح الذي يزوجهما في الكيمياء الصناعية.

وقوله عن إدريس إنه كان عنده من أسرار إحياء الموت عجائب فلأنه قطب عالم الأنفاس حيث رفعه الله مكاناً علياً فهو في سماء الشمس بمعدنها الذهبي قلب العالم وبنورها يتنفس العالم،إذ قرن الحق تعالى الصبح حين تتجلى الشمس بالنفس فأقسم بقوله تعالى: (والصبح إذا تنفس). ومن هنا تظهر أيضاً صلته بالأبدال السبعة، فخلفاؤه الستة الذين ذكرهم وهو سابعهم، كل واحد له نسبة خاصة مع يوم من الأسبوع وكوكبه من الكواكب السيارة السبعة. وأولهم تلميذه المستسلم. ومن الممكن أن يكون هو المسمى في التوراة باسم (ماتوسالم بن أخنوخ)، وفيها أن أخنوخ عاش 365 سنة كإشارة إلى علاقته بالمقام الشمسي، وأخنوخ يتطابق مع إدريس المسمى أيضاً هرمس الهرامسة المثلث بالحكم، والاثنان الآخران المشهوران هما هرمس البابلي وهرمس المصري، لأن العلوم الإدريسية توارثتها الأمم بعد رفعه إلى أن ظهرت وازدهرت في الحضارات الكلدانية والعربية القديمة ثم المصرية والإسرائيلية واليونانية وأخيراً الإسلامية. وهذه الاستمرارية الطويلة ما كانت لتبقى حية لولا أن حكماء الأولياء والعلماء من ورثة الأنبياء كانوا يجددونها بنفخ روح الوحي الإلٰهي في قوالبها. أي أن تلك العلوم الإدريسية كانت مجملة في قواعد كلية، ومبادئ أصولية عامة، قوالبها ثابتة، ولا تصبح حية فعالة إلا بتجديدها وفق شريعة ولغة ملة الأمة المعينة. وقد تم هذا بأكمل صورة عند حكماء المسلمين.

ولا ينبغي أن يفهم أنه كلما مات أحد خلفاء إدريس عليه السلام الستة الذين ذكرهم الشيخ يتولى مباشرة بعده من يتلوه. بل كل واحد منهم كان مجدداً

لعلوم الحكمة الإدريسية في دورة زمانه التي قد تمتد لقرون كثيرة. الدليل على ذلك أن رابعهم لقمان عاش في زمن داود عليه السلام، أي عشرات القرون بعد الطوفان، طوفان نوح عليه السلام، بينما إدريس عاش قبل الطوفان... وقد قال الشيخ في كتاب (الإسفار عن نتائج الأسفار) عند حديثه عن سفر إدريس إلى السموات أنه أمر بنقش علومه في الصخور حتى لا تندثر بالطوفان... وهذا القول يذكر بما صرح به العلامة الحكيم العارف عبد الواحي يحيى René Gnénon (ت: 1951) في مقال له عنوانه " تابوت هرمس Le Tombeau d'Hermés" يقول فيه إن كل واحد من الأهرام الثلاثة المعروفة بمصر ينطوي، من حيث شكله وأبعاده، واتجاهاته وبنيته، على أمهات علوم الحكمة المناسبة للأنبياء الثلاثة الذين عاشوا قبل الطوفان، فأولهم لآدم والثاني لابنه شيث وثالثهم الهرم الأكبر لإدريس عليهم السلام... وأشار إلى علاقة لفظة: «هرمس» بلفظة: هرم.

فلم يكن الهرم في أصله قبرا لأحد من الملوك بل رمزاً للحكمة الهرمسية.

ومن هنا نلج إلى علاقة علوم الحكمة بالفن المعماري خصوصاً وبالفنون عموماً، خاصة الفنون السمعية من حيث إن الأصوات من عالم الأنفاس التي قطبها إدريس مداوي الكلوم عليه السلام، وجميعها تعابير سمعية بصرية متجلية في أشكال معينة. وقد نبه الشيخ إلى العلاقة الأصيلة بين الحكمة والفنون، فنجده في الباب الطويل الرائع 198 من الفتوحات وهو في معرفة النفَس الرحماني وصورته في النفس الإنساني يبين أن للوجود الكوني 28 مرتبة على عدد الحروف العربية والمنازل الفلكية، لكل مرتبة اسم إلهي متوجه على إيجادها. وفي كتاب (مفاتيح فصوص الحكم) بينت - بحسب فهمي - أن أبواب الفصوص السبعة والعشرين مع المقدمة تتناسب تماماً مع مراتب الوجود كما فصلها الشيخ في الباب 198 من الفتوحات، أي أن لكل مرتبة وجودية حكمة معينة مناسبة لنبي معين وحرف معين وسورة قرآنية معينة ومنزل فلكي معيّن: فللمرتبة الأولى الاسم البديع المتوجه على القلم الأعلى أي العقل الأول، ويناسبه أول فص من فصوص الحكم وهو فص حكمة إلٰهية في كلمة آدمية. وللمرتبة الثانية الاسم الباعث المتوجه على إيجاد اللوح المحفوظ أي النفس الكلية، ويناسبه الفص الثاني، أي فص حكمة نفثية في كلمة شيثية.وهكذا إلى أن نصل إلى المرتبة السادسة وهي للاسم الحكيم المتوجه

على إيجاد الشكل الكلي، وله الفص السادس فص حكمة حقية في كلمة إسحاقية. وفي هذا الفص بيّن الشيخ الأهمية الأساسية للقوة المخيلة في الإنسان، لعلاقة الخيال بالأشكال والصور الحسية. وفي هذا المعنى يقول في الباب 198 عند كلامه على الاسم الحكيم والشكل الكلي: [يقول الله تعالى: «كل يعمل على شاكلته» أي ما يعمل إلا ما يشاكله. والعالم عمل الله، فعمله على شاكلته، فما في العالم شيء لا يكون في الله (...) وما من شيء في تفاصيل العالم إلا وفي الحضرة الإلٰهية صورة تشاكل ما ظهر أي يتقيد بها ولولا هي ما ظهر].

ويؤكد الشيخ هذا المعنى في الباب 372 المتعلق بسورة يوسف عليه السلام، وهو مظهر الجمال، فيقول ما خلاصته: [ورد في الحديث الصحيح أن الله جميل يحب الجمال، والعالم صنعته، فليس في الإمكان أجمل ولا أبدع ولا أحسن من العالم، جماله ذاتي، وحُسنه عين نفسه، فهو مرآة الحق، فما رأى العارفون فيه إلا صورة الحق الجميل، والجمال محبوب لذاته وهيبته في القلوب ذاتية، فأورث المحبة والهيبة، فإن الله ما كثر لنا الآيات في العالم وفي أنفسنا إلا لنصرف كلنا إليه نظراً وفكراً وعقلاً وإيماناً وعلماً وسمعاً وبصراً، فهو تعالى المتجلي في كل وجه والمطلوب من كل آية، فجميع العالم له مصل وله ساجد وبحمده مسبح، الألسنة به ناطقة، والقلوب به فيه هائمة عاشقة، والألباب به فيه حائرة (...) وأما أهل الجمال والحب العرضي فضل زائل وغرض حائل وجدار مائل..].

في هذه الكلمات يعطي الشيخ أصل كل فن مقدس، وهو أن تكون صوره وأشكاله البصرية أو السمعية على ميزان الحكمة، مظهرة وجهاً من وجوه الحضرة الإلٰهية جمالاً وبهاءً ولطفاً، أو جمالاً وهيبة وعلواً، أو حيرة وولهاً وعشقاً، أو تنزيهاً أو تشبيهاً أو جمعاً بينهما، أو عظمة وكبرياء، أو وحدة في كثرة وكثرة في وحدة، أو كمالاً لا نهاية له...

وكل فن خلا من هذه المعاني المعراجية يفقد نوره وحرارته وروحه وثمرته وحياته، كما هو الحال في أغلب ما يسمونه بالفنون الحديثة من ضجيج وصخب يصك الآذان، أو أشكال بدون دلالة ولا عنوان، لأنها مبتورة الصلة عن كل بعد روحاني ونور رباني.

والفنان الحكيم عند الشيخ الأكبر هو الذي يشهد نفسه آلة في يد الإبداع

الإلٰهي بعد أن يتحقق باسمه تعالى الحكيم أولاً، ثم اسمه الباري ثانياً مع إخوته الخالق المصور الجميل. ففي الباب 198 من الفتوحات يذكر أن الأسماء المتحكمة في النفس سبعة منها الباري فيقول: [وأما الاسم الباري فمنه يكون الإمداد للأذكياء المهندسين أصحاب الاستنباطات والمخترعين الصنائع والواضعين الأشكال الغريبة،عن هذا الاسم يأخذون، وهو الممد للمصورين في حسن الصورة في الميزان. وأعجب ما رأيت من ذلك في قونية من بلاد يونان في مصور كان عندنا اختبرناه وأفدناه في صنعته من صحة التخيل ما لم يكن عنده، فصور يوماً حجلة وأخفى فيها عيباً لا يشعر به وجاء بها إلينا ليختبرنا في ميزان التصوير، وكان قد صورها في طبق كبير على مقدار صورة الحجلة في الجرم، وكان عندنا بازي فعندما أبصرنا أطلقه من كان في يده عليها فركضها برجله لما تخيل أنها حجلة في صورتها وألوان ريشها، فتعجب الحاضرون من حسن صنعته فقال لي: «ما تقول في هذه الصورة؟» فقلت له: «هي على غاية التمام إلا أن فيها عيباً خفياً». وكان قد ذكره للحاضرين فيما بينه وبينهم فقال لي: «ما هو، هذه أوزانها صحيحة؟» قلت له: «في رجليها من الطول عن موازنة الصورة قدر عرض شعيرة». فقام وقبل رأسي وقال: «بالقصد فعلت ذلك لأجربك»، فصدقه الحاضرون وقالوا: «إنه ذكر ذلك لهم قبل أن يوقفني عليها» فتعجبت من وقوع البازي عليها وطلبه إياها].

وأخيراً نلاحظ أن مفاتيح علوم الحكمة وأصول فنونها قد أصبحت منذ عدة قرون مفقودة إلا عند قلة نادرة من حكماء العلماء، واجتاحت الأفكار المادية والإلحادية والدجالية عقول أغلب المهتمين بالعلم فضلاً عن العوام، وأمست عندهم علوم وفنون الحكماء الإلٰهيين القدامى من أساطير الغابرين بسبب جهلهم المطبق بحقائقها. ودورة آخر الزمان تقتضي شيوع هذا الجهل بالحكمة الأصلية، لكن المتحققين بالحكمة الإلٰهية العليا وإن قل عددهم لا ينقطعون إذ بأنفاسهم تستمد الحياة دفء حرارتها ونورها ورحمتها ونضارتها، وبانقطاعهم تقوم الساعة لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله» رواه مسلم ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فلنقف عند هذا الاسم الأعظم الجامع لينابيع كل الحكم.

الهوامش

1) تكرر الاسم الإلٰهي «الحكيم - حكيم - حكيماً» في القرآن 91 مرة، وتكرر 4 مرات كوصف للذكر وللكتاب والقرآن، وورد مرة واحدة كوصف للأمر الإلٰهي في سورة الدخان الآية 4.

2) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية وابن عدي في الكامل كلاهما عن أنس وأورده السيوطي في الجامع الصغير.

3) ورد الاسم «الحكيم» مقترناً بـ «الخبير» 4 مرات في الأنعام (18 - 73) وهود (1) وسبأ (1) ومقترناً بـ «العلي» مرتان في الشورى (51) والزخرف (4) ومرة واحدة مقترناً بـ «الواسع» في النساء (130) وبـ «الحميد» في فصلت (42) وبـ «التواب» في النور (10).

4) تكررت كلمة «حكمة» في القرآن 20 مرة في 12 سورة منها 6 في البقرة (129-151 -231-251-269) و3 في آل عمران (48 - 81 - 164) و2 في النساء (54 - 113) ومرة واحدة في المائدة (110) والنحل (125) والإسراء (39) ولقمان (12) والأحزاب (34) وص (20) والزخرف (63) والقمر (5) والجمعة (2).

5) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أيوب وأورده السيوطي في الجامع الصغير، وعلق على معانيه السهروردي في (عوارف المعارف) باب الخلوة الأربعينية.

6) الحديث رواه ابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الحلية وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير.

7) حول دور العزلة والخلوة في نيل الحكمة الإلٰهية ينظر كتاب (حلية الأبدال) لابن العربي وفي الفتوحات الأبواب: 78 - 79 - 80 - 81 - 96 - 97.

8) الحديث صحيح أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ورواه الحكيم وابن لال عن ابن مسعود، وينظر تعليق الشيخ على قصة عليم الأسود في الفتوحات: (1: ص 234 - 2/236: ص 278 - 4/277 ص 211).

9) حول حملة العرش ووظائفهم ينظر في الفتوحات الباب 13.

10) حول انفعال الأركان الطبيعية عن الأسماء الإلهية ينظر في الفتوحات الباب 60.

11) حول الأركان الأربعة وأصلها الخامس ينظر في الفتوحات الباب 11 كما ينظر بحثان هامان للشيخ عبد الواحد يحيى René Gnénon هما:

-La théorie hindoue des cinq éléments (Etudes sur l'Hindouisme)

-Les conditions de l'Existance Corporelle (Mélanges)

ومن أهم كتبه المتعلقة بموضوع الحكمة الإلٰهية عند مختلف الملل والأمم:

-Les symboles fondamentaux de la science sacrée

-Formes traditionnelles et cycles cosmiques

-Esotérisme islamique et Taoïsme

12) للمقولات العشر صيغ مختلفة منها: جوهر - كم - كيف - إضافة - أين - متى - موضوع - أن يكون له - يفعل - ينفعل - وفي الكثير من مكتوباته يشير الشيخ إلى أهمية هذه العشر الكاملة.

13) الحديث رواه البخاري في صحيحه: [إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع: برزقه وأجله وشقي أو سعيد].

14) ينظر كلام الشيخ حول الحروف في الباب الثاني من الفتوحات، وحول علم الحروف عند المسلمين وعلم الميزان عند جابر ينظر المقدمة التي كتبها الأستاذ «دنيس جريل» على ترجمته إلى الفرنسية للباب الثاني من الفتوحات في كتاب " Les Illuminations de la Mecque"

15) حول الفن المقدس وما يميزه عن الفن غير المقدس ينظر:

-Principes et critères de l'Art Universel de Frithjof Sechuon.

-La question des formes d'Art, ch IV de "De l'Unité transcendantale des religions"par Frithjof Sechuon.

وعن الأبعاد الروحية للفن الإسلامي ينظر

-Aperçus sur la connaissace sacrée

-L'art de l'Islam - Titus Burckhardt

-Lumières de L'Islam - Michon (Jean - Louis)

-The sense of Unity - Ardalan et Bakhtiar

-Aperçu de l'Art Musulman ch XIII "Visages de l'Islam par Haidar Bammate.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد رحمة العالمين وآله وصحبه

قواعد مملكة الولاية عند الشيخ الأكبر ابن العربي

الأولياء عند الشيخ هم خواص الله تعالى في النوع الإنساني، الحافظون لبيت الدين، الحافظ للوجود بأركانه الأربعة: الرسالة والنبوة والولاية الخاصة والإيمان. وموضوع هذا المقال هو بيان قواعد مملكة الولاية الخاصة كما فصلها الشيخ في كثير من مكتوباته خصوصاً الباب 73 من الفتوحات المكية(1).

لهذه المملكة ثلاثة أقسام وثمان قواعد:

- القسم الأول: قسم ثابت لا يتغير يتألف من حضرات الأنبياء والرسل، واثني عشر قطباً عليهم مدار العالم واثني عشر إماماً هم مفاتيح كنوز العرفان. وهذا القسم هو الممد للقسمين الآخرين. (ينظر اللوحة الأولى).

- القسم الثاني: يتألف من خلفائهم المتجددين في كل عصر. وعدد طبقاتهم، وعدد أشخاص كل طبقة ثابتان لا يتغيران (ينظر اللوحة الثانية).

- القسم الثالث: يتغير في طبقاته عدد الأشخاص فيكثرون أو يقلون حسب تغير أدوار الزمان. وقد ذكر الشيخ نحو سبعين من أصنافهم في الباب 73 وفي أبواب الفصل الأول من الفتوحات (ينظر اللوحة الرابعة).

أما قواعد هذه المملكة فهي التالية:

- **القاعدتان الأولى والثانية متداخلتان وهما القاعدة العددية والقاعدة الأنبيائية:**

بدأت بذكر القاعدة العددية لأنها هي الحاكمة على القواعد الأخرى، حيث أن الشيخ يعطي مبدأين يبينان الوظيفة الأساسية للأعداد في الوجود وفي مملكة الولاية:

- المبدأ الأول هو قوله: [العدد حكمة مقدم على حكم كل حاكم](2).

- المبدأ الثاني هو قوله: [ما من أمر محصور في العالم في عدد ما إلا ولله رجال بعدده في كل زمان يحفظ الله بهم ذلك الأمر](3).

فالأعداد عند الشيخ تعبر عن مظاهر الواحد عندما يتجلى في المراتب، أي بعبارة أخرى تجلي المطلق اللامتناهي المنزه في أحديته التي لا تتبعض في مظاهره المقيدة المتبعضة. يقول في كتاب الألف: [لم يظهر الواحد باسمه في الأشياء وظهر بمعناه، لأنه لولا معناه لم يوجد لهؤلاء عين، ولو ظهر باسمه لم يوجد لهم عين. والغرض إنما هو في ظهور هذه الموجودات، فلا بد أن يكون فيها بمعناه ولا يكون فيها باسمه، ومهما ظهر اسمه بطل الوجود، ومهما زال معناه بطل الوجود].

والأعداد أيضاً هي النسب الرابطة بين الموجودات المظهرة للتناسق المطلق فيما بينها، كصفاء مرايا العظمة الإلٰهية التي تسطع فيها أنوار الجمال والجلال والكمال، فلكل عدد وظيفته الوجودية التابعة لمميزات ذلك العدد، وفي هذا المعنى يتفق الشيخ مع الحكماء الفيثاغوريين(4). وهذه الوظائف العددية ما هي إلا مظاهر للقدرة الإلٰهية في حضرات الحكمة(5)، أو للحكمة الإلٰهية في مظاهر القدرة الأزلية.

وحيث ان أكمل مجالي هذه المظاهر في عالم الإنسان الخليفة هم الأولياء، فمملكة الولاية مؤسسة على نظام عددي في غاية الدقة والإحكام.

وللأعداد عند الشيخ أربعة مراتب: الآحاد للشؤون الذاتية، والعشرات لحضرات الصفات والأسماء، والمئات لحضرات الأفعال، والألف للكثرة الغير معينة واللامحددة أو للروابط(6)، أو للأدوار الزمنية المتكررة المشار إليها في الآية 5 من سورة السجدة: [يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون].

مثلاً: العدد أربعة هو عدد الثبات الذاتي والبقاء وهو عدد حرف دال الديمومة من اسمه تعالى (دائم). فلا تثبت أي نشأة إلا عند قيامها بأربعة أركان، لأن الأسماء الإلٰهية التي يستند إليها الوجود أربعة: الحي العليم المريد القدير(7). والعدد خمسة هو عدد الحفظ إذ يتميز بحفظه لنفسه ولغيره(8)، وهو عدد هاء الهوية السارية في كل شيء بأركانها الأربعة المذكورة في الآية 3 من سورة الحديد:

[هو الأول والآخر والظاهر والباطن].

وبسريان الحفظ في ديمومة الثبات،أي بضرب الخمسة في الأربعة، ينتج العدد 20 الذي هو عدد كل الزوجيات والثنائيات الوجودية في حضرات الصفات، كالاسم والمسمى في الإلهيات، والعلة والمعلول في الطبيعيات، والشرط والمشروط في العقليات والشرعيات(9). وقد أشار الشيخ في كتابه " كشف المغمى عن سر أسماء الله الحسنى " إلى العلاقة المميزة بين العشرين والخمسة خلال كلامه عن الاسم (الحفيظ) فقال: [وما ثم من حصل في هذه الرتبة بحكم الذات إلا الخمسة من الأعداد وحدها، فإنها تحفظ نفسها وتحفظ العشرين خاصة].

والعدد 20 هو أيضاً عدد كاف الكمال والكفاية من اسمه تعالى (كامل كافي). وبسريان الحفظ فيه أي بضربه في العدد خمسة ينتج العدد 100 الذي هو عدد الأسماء الحسنى الفاعلة في الوجود، وهو عدد درجات الجنان(10)، وعدد حرف قاف أي مفتاح أسمائه تعالى (قريب قدوس قدير قوي قائل)، وهو المشير إلى القلب في مقام القرب، أو للقطب في قمة جبل قاف المحيط بمملكة الولاية.

وفي رسالة " الميم والواو والنون " يشير الشيخ إلى سريان حفظ خمسة هاء الهوية في كاف حرف الإيجاد الإلهي (كن) لإبراز الكون فيقول: [والهاء والواو عين الهو، التي يقال لها الهوية، والغير الذي تحفظه الهاء هو كاف الكون، وهو ظل كن، لأن كن ذات ظلها الكون، لأن النور الذاتي الإلهي لما ضرب في ذات كن امتد له ظل وهو عين الكون، فبين الكون والحق تعالى حجاب كن].

ومجموع هذه الأعداد الثلاثة 4 و20 و100 هو 124، وبسريان درجاته في عدد الروابط أو عدد الأزمان الدورية أي الألف كما أشير إليه سابقاً، ينتج العدد الأساسي لمملكة الولاية أي العدد 124000 الذي هو عدد الأنبياء جميعاً من فاتحهم سيدنا آدم إلى خاتمهم سيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام. ومنهم 314 رسولاً، ومع الروح المحمدي الجامع هم 315(11). والشيخ الأكبر يقرر بأن عدد الأولياء في كل زمان لا يقل عن عدد الأنبياء فيقول: [فلا بد أن يكون في كل عصر مائة ألف ولي وأربعة وعشرون ألف ولي على عدد الأنبياء ويزيدون ولا ينقصون. فإن زادوا قسم الله علم ذلك النبي على من ورثه. فإن العلوم المنزلة على قلوب الأنبياء لا ترتفع من الدنيا وليس لها إلا قلوب الرجال فتقسم عليهم بحسب

عددهم. فلا بد من أن يكون في الأمة من الأولياء على عدد الأنبياء وأكثر](12).

ثم يقول إن لكل من الأولياء معراجان: الواحد يكونون فيه على قلوب الأنبياء من حيث ولاية الأنبياء، والثاني يكونون فيه على أقدام الأنبياء من حيث التشريع. إذن فالعدد الكلي لمعارج الأولياء هو 124000 × 2 = 248000 وهو العدد الذي ذكره الشيخ في جوابه عن السؤال الأول من أسئلة الحكيم الترمذي: كم عدد منازل الأولياء؟ فأجاب بما خلاصته من حيث أعدادهم: [منازل الأولياء الحسية في الدنيا أحوالهم التي تنتج لهم خرق العوائد، وفي الجنان مائة درجة. وأما منازلهم المعنوية في المعارف فهي مائتا ألف منزل وثمانية وأربعون ألف منزل محققة، وهي من خصائص هذه الأمة. وأما عدد الأولياء الذين لهم عدد المنازل فهم ثلاثمائة على قدم آدم، وأربعون على قدم نوح، وسبعة على قدم إبراهيم، وخمسة على قدم جبريل، وثلاثة على قدم ميكائيل، وواحد على قلب إسرافيل، وذلك للحديث الوارد في ذلك(13). وأما طريقتنا وما يعطيه الكشف الذي لا مرية فيه أن طبقات الرجال الذين يحصرهم العدد ولا يخلو عنهم زمان عددهم خمسمائة نفس وتسعة وثمانون نفساً، هم موزعون على خمس وثلاثين طبقة لا غير. ومرتبة الختمين: الختم المحمدي الخاص ومرتبة ختم الولاية العام عيسى عليه السلام](14).

والذي ينبغي علمه أن كل رقم وكل عدد من تلك الطبقات ورجالها له دلالاته الوجودية في الحقائق الإلٰهية والميتافيزيقية والكونية(15).

وكثيراً ما يؤكد الشيخ على الارتباط الكامل كماً وكيفاً بين الأنبياء وورثتهم الأولياء، فيقول مثلاً في جوابه عن السؤال السادس من أسئلة الترمذي أن عدد أهل المجالس المحدثين من الأولياء هو عدد أهل بدر وهو 313 أي عدد الرسل السابقين(16).وتجمع حقائقهم في خمسة وعشرين منهم، هم المذكورة أسماؤهم في القرآن - وهنا يظهر مرة أخرى عدد الحفظ (5 × 5 =25) وهو عدد كلمات فاتحة الكتاب، كما أن ذلك العدد 124 هو عدد حروفها.

والشيخ الأكبر في الباب 15 من الفتوحات يقول أنه اجتمع في مشهد برزخي عام 586 – وعمره حينذاك 26 سنة – بأقطاب كل الأمم السابقة، وذكر خمسة وعشرين من أسمائهم. وبالتأمل في دلالاتها نكتشف أنها تعني الأنبياء المذكورين في القرآن، لكن أعطى لهم أسماء أخرى من حيث قطبيتهم في الولاية،

فمثلا أشار إلى آدم بالمفرق، وإلى إدريس بمداوي الكلوم، وإلى نوح بالبكاء، وإلى ابراهيم بالشفاء، وإلى عيسى بعنصر الحياة (ينظر التفصيل الكامل في اللوحة الأولى). أما في كتابه " فصوص الحكم " فقد خصص لكل منهم بابا ماعدا اليسع وذا الكفل، وأضاف شيث بن آدم ولقمان الحكيم وخالد بن سنان. وقد بينا سر ذلك الحذف والإضافة وعلاقته بترتيب أبواب الفصوص وفق مراتب الوجود في نفس الرحمن في كتاب " مفاتيح فصوص الحكم " (17)(ينظر التفصيل في اللوحة السادسة).

ثم من بين أولئك الخمسة والعشرين يتميز أربعة عشر يمدون الطبقات الأربعة العليا لمراتب الولاية، أي القطب والإمامان والأوتاد الأربعة والأبدال السبعة. ومن بين الأربعة عشر، يبرز اثنا عشر نبياً على عدد البروج، وعلى قلوبهم يوجد اثنا عشر قطباً عليهم مدار العالم مثل مفاتيح الكنوز الاثني عشر(18) الذين لهم ارتباط خاص بعدد ركعات الصلاة الليلية التي كان يقيمها رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما فصله الشيخ في الباب 379 من الفتوحات وهو الباب المتعلق بسورة المائدة خلال إشاراته لآيتها (12): ﴿...وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية. (ينظر تفصيل أسمائهم في اللوحة الأولى).

ومن بين أولئك الاثني عشر يتميز سبعة بقطابة السماوات السبعة والأيام السبعة وإمداد المسبعات الكونية، فهم الممدون للأبدال السبعة أقطاب الأقاليم السبعة في الأرض(19).

ومن هؤلاء السبعة يتميز أربعة هم أركان بين الدين الحافظ لبيت الوجود، وهم إدريس وعيسى وإلياس والخضر (20)، ومركز دائرتهم هو الروح المحمدي قطب الأقطاب الجامع الممد لجميع الأنبياء والرسل والأقطاب من حين النشيء الإنساني إلى يوم القيامة، وأكمل مظاهره في قطب الزمان، وفي الأفراد الخارجين عن دائرة القطب وليس لهم عدد ثابت، وفي ختم الولاية المحمدي، وختم الولاية العام عيسى عليه السلام (21).

وحيث أن للأعداد ارتباطاً «عضوياً» بالحروف في اللغة العربية، كما هو الحال في اللغة العبرية، إذ لكل حرف عدده الخاص(22)، فهذا يدخل بنا إلى القاعدة الثالثة من قواعد مملكة الولاية:

- القاعدة الثالثة وهي القاعدة الحرفية:

كثيراً ما يكرر الشيخ أن الإنسان مخلوق على صورة الرحمٰن. وهذا يستلزم أن تجليات نفَس الإنسان في الحروف صور كاملة لتجليات نفَس الرحمٰن في مراتب الوجود، وهذه التجليات هي عين كمالات ذات الحق تعالى. والحروف المعنية هنا هي حروف اللغات المقدسة التي تكلم بها الحق تعالى بكلامه القديم وظهرت في الكتب الإلٰهية المجموعة كلها في القرآن الخاتم المهمين(23). وقد عبّر الشيخ في الكثير من مكتوباته على الأهية المحورية لأسرار الحروف وأعدادها، ويعتبرها هي الحاكمة والممدة للمراتب الوجودية. يقول مثلاً: [فالمنازل مقادير التقاسيم التي في فلك البروج... جعلها ثماني وعشرين منزلة من أجل حروف النفَس الرحماني. وإنما قلنا ذلك لأن الناس يتخيلون أن الحروف الثمانية والعشرين من المنازل حكم هذا العدد لها. وعندنا بالعكس بل عن هذه الحروف كان حكم عدد المنازل..](24).

فالشيخ يعني أن المنازل الفلكية محدثة والحروف مظاهر للكلام الإلٰهي القديم، والمحدث هو التابع للقديم لا العكس.ويقول أيضا أن خزنة جهنم 19 وهو نفس عدد خزنة الجنة وخزنة الدنيا (25)، وهو المناسب لعدد البروج مع عدد السماوات (12+7=19)، أو عدد النقباء مع عدد الأبدال، لأن للبسملة 19حرفا رقميا (26).ويقول أيضا أن عدد الأفلاك الفاعلة في العالم، أي الآباء العلويات، عددها تسعة (الأطلس والمكوكب والسماوات السبعة) لأن كلمة التكوين الإلهي (كن) يتشكل تفصيلها من تسعة حروف (كاف واو نون) (27).

وبالتالي فصفات وخصائص الحروف اللفظية والرقمية والخيالية(28) تعبّر عن الكمالات الكلية لحضرة الحق تعالى المتجلية في مملكة الولاية الإنسانية. ولهذا فلكل مرتبة من مراتب الولاية حروف تناسبها، بل إن مميزات كل مقام أو حال تستمد من صفات الحروف الحاكمة على ذلك المقام أو ذلك الحال. مثلاً للقطب حرف الألف، وللإمامين الواو والياء المعتلتان اللذان هما حرفا المد واللين لا الصحيحتان، وللأوتاد الأربعة الألف والواو والياء والنون الذين هم علامات الإعراب، إلى آخر التفصيل(29). ولهذا سمى الشيخ رجال المملكة الولاية بعالم الأنفاس وهو اسم يعم جميعهم(30)، والحروف من عالم الأنفاس.

- فرجال الحروف الخيالية على قلب آدم - عليه السلام - وأصناف معينة من الملائكة، عددهم 309، وهم موزعون على أربعة طبقات بعدد كلمات البسملة.

- والذين لهم الحروف الرقمية هم على قدم إدريس- عليه السلام - حيث إنه هو أول من خط بالقلم(31)، وهم موزعون على 10 طبقات بعدد الحروف الرقمية للبسملة بحذف مكررها، وعددهم الكلي 122.

- وأما رجال الحروف اللفظية، وعددهم 159 نفساً، فهم موزعون على 21 طبقة بعدد الحروف اللفظية للبسملة، وهم على قدم داود-عليه السلام-، لأن البيان وحسن النطق بلغ عنده غايته فقال تعالى عنه ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الآية 20 من سورة ص(32).

ولعلاقة مملكة الولاية بأمة الحروف افتتح الشيخ الباب 73 من الفتوحات المفصل لأعداده وطبقاتهم بقصيدة تتألف من 28 بيتا كلها إشارات إلى الحروف الثمانية والعشرين وصفاتها اللفظية.

وحتى العدد الكلي للأولياء في الدوائر العليا، أي العدد الذي ذكره الشيخ وهو 589، يشير على ذلك حيث أنه مجموع العددين 28 و561 الذي هو عدد كلمة (النفس الرحماني) (33).

وكنموذج لهذه المفاهيم الأكبرية التي هي في غاية العمق واللطافة نكتفي بمثال واحد: من بين أشخاص الأنفاس الذين هم على قدم داود، يذكر الشيخ ثلاثة أشخاص اسمهم رجال الغنى بالله، ويقول عنهم ما خلاصته: [يضاف الواحد منهم إلى نفسه وهو الأدنى فكل غني في عالم الشهادة فمن هذا الرجل، ويضاف الآخر إلى الله تعالى، فكان غني بالله في عالم الملكوت فمن هذا الرجل. وبدايتهما في نهايتهما ونهايتهما في بدايتهما، وهما يستمدان من الثالث وهو روح علوي متحقق بالحق غناه الله]. ويقول إنه كتب في معرفتهم جزءاً عجيباً(34). لكن إذا فحصنا قائمة كتب الشيخ لا نجد عنواناً يدل عليهم بصراحة. فما هو حل هذا اللغز الأكبري؟ الجواب هو أنه بالتأمل في أوصاف هؤلاء الثلاثة نكشف أنها مطابقة لصفات ثلاثة حروف تتميز بكون بدايتها كنهايتها فهي غنية في ظهور نشأتها عن الاستعانة بحرف آخر زائد عنها، وهي حرف (ميم) الممد لأغنياء عالم الشهادة بياء الخفض في عالم الملك، وحروف (نون) الممد لأغنياء الملكوت بواو الرفع،

والممد لهما معاً هو حرف (واو) الذي غناه الله إذ ليس في قلبه إلا ألف أحدية الحق تعالى.

هذا وإن من أهم دلالات الحروف أنه مفتاح لجملة من الأسماء الإلٰهية الحسنى، وهذا يدخل بنا إلى القاعدة الرابعة.

- القاعدة الرابعة هي قاعدة الأسماء الحسنى المتصرفة في الوجود:

وأول تصرف لها يظهر في مملكة الولاية ومنها يفيض على العالم(35). فما من نبي ولا ولي إلا وهو مخصوص باسم إلٰهي منه يكون إمداده وبه يتميز حاله ومقامه، كموسى عليه السلام اسمه عبد الشكور، وداود عليه السلام اسمه عبد الملك، ومحمد صلى الله عليه وسلم اسمه عبد الجامع، وقطب الزمان اسمه عبد الله، والإمام الأيسر الأول عبد الملك، والإمام الأيمن الثاني عبد ربه، وأسماء الأوتاد الأربعة: عبد الحي وعبد العليم وعبد المريد وعبد القادر. يقول الشيخ: [ما من شخص إلا وله نسبة إلى اسم إلٰهي منه يتلقى ما يكون عليه من أسباب الخير، وهم بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلٰهي من الشمول والإحاطة، فعلى تلك الموازنة يكون علم هذا الرجل](36).

ولتفصيل هذه القاعدة خصص الشيخ كتابا كاملا هو كتاب (العبادلة) يشتمل على أزيد من مئة فصل، وعنوان كل فصل على هذا النمط:عبد الله بن إدريس بن عبد النور، أو: عبد الله بن عبد المغيث بن ذي النون.

ويؤكد الشيخ هذا المعنى في الباب 176 من الفتوحات في معرفة أحوال القوم عند الموت فيقول: [فإذا حضرتهم الوفاة رضي الله عنهم فلا بد لهم من مشاهدة اثنتي عشرة صورة يشهدونها كلها أو بعضها، لا بد من ذلك، وهن صورة عمله، وصورة علمه، وصورة اعتقاده، وصورة مقامه، وصورة حاله، وصورة رسوله، وصورة الملك، وصورة اسم من أسماء الأفعال، وصورة اسم من أسماء الصفات، وصورة اسم من أسماء النعوت، وصورة اسم من أسماء التنزيه، وصورة اسم من أسماء الذات](37).

وحيث إن الأسماء الحسنى هي مراكز لدوائر الآيات القرآنية فهي تدخل بنا إلى القاعدة الخامسة.

- **القاعدة الخامسة هي القاعدة القرآنية:**

كثيراً ما نبه الشيخ على أن الترقي في معارج الولاية هو عبارة عن التحقق بحقائق القرآن وآيات الفرقان(38). فمقامات الأنبياء والأولياء وأحوال السالكين والواصلين وعلوم الكمل والعارفين، مثلها مثل آيات الآفاق والأنفس، مظاهر للحقائق القرآنية. وتحقق السالك أو العارف بمقام هو عين تحققه بآية أو سورة هي روح ذلك المقام. ولهذا نجد الشيخ لا يذكر مقاماً أو حالاً أو طبقة من الأولياء إلا ويذكر سورتهم أو آيتهم الممدة لهم(39).

ففي جوابه عن السؤال الأول من أسئلة الترمذي يقول إن منازل الأولياء تزيد على مائة منزل وبضعة عشرة منزلاً، يشير إلى عدد السور أي: 114. ويقول إن علم الجمع والتفرقة تتنوع تجلياته في صدورهم على ستة آلاف نوع ومئين. يشير إلى عدد آيات القرآن. ويفصل هذا الإجمال في مواقع أخرى فيقول إن خاتم الأولياء المحمديين - يعني نفسه - هو والقرآن أخوان(40).

ويقول إن القطب لا يتمكن في الخلافة الكاملة إلا بعد تحصيله لمعاني حروف فواتح السور النورانية وهي 78 حرفا(41)، وله تميز خاص في التحقق بفاتحة الكتاب(42) وبسورة الفتح(43).

- وفي الباب 463 من الفتوحات يذكر شؤون وعلوم اثني عشر قطباً عليهم مدار العالم مبيناً أن كل واحد منهم ما تحقق بقطبيته إلا نتيجة تحققه بسورة من السور القطبية للقرآن (ينظر اللوحة رقم 1)، فيقول مثلاً عن القطب الذي هو على قدم أيوب عليه السلام: [فمن أراد أن يعرف أحوال هذه الإمام فليتدبر آيات سورة البقرة آية بعد آية حتى يختمها، فهذا القطب مجموع آياتها](44).

- والمنزل الجامع للقطب ووزيره هو منزل سورة (الناس)، وللإمام الأول سورة (الناس)، وللثاني سورة (الفلق)(45).

- والأوتاد الأربعة لا يكونون أوتادا إلا بتحققهم بعدد من جملة ثمانية وسبعين من العلوم الموزعة على أربع سور هي «أوتاد القرآن» لكل وتد سورة، وأشار الشيخ إلى بعض آياتها دون أن يصرح بها عند ذكره لتلك العلوم في أواخر الباب 16 من الفتوحات(46)، وبالتأمل يبدو: أنها: طه - الكهف - المُلْك - الواقعة.

- كذلك الأبدال السبعة لكل منهم آية هي هجيرة ومنها ومدده توجد في سبعة سور(47) (ينظر اللوحة الثالثة).

- ثم إن هؤلاء الأربعة عشر شخصاً الذين يشكلون أعلى دوائر الولاية مددهم الكلي من السبع المثاني فاتحة الكتاب(48).

خلاصةالقول: إن مملكة الولاية الإنسانية هي الصورة الكاملة لجمع القرآن وآيات الفرقان.ولهذا نجد الشيخ في الأبيات التي افتتح بها الباب 22 من الفتوحات، الذي صنف فيه سور القرآن ورجالها إلى 19 صنفا،يشير إلى سيران منازل معارج الولاية في منازل القرآن فيقول:

عجبا لأقوال العقول الســاميــه   إن المنازل في المنازل ساريه
كيف العروج من الحضيض إلى العلا   إلا بقهر الحضرة المتعاليــه.

وبهذا المعراج القرآني نلج إلى القاعدة السادسة.

- **القاعدة السادسة هي القاعدة السلوكية:**

مراتب الولاية تتمثل في مقامات السلوك وأحواله. وكثيرة هي الكتب التي فصل فيها الشيخ مدارج هذه القاعدة وخبايا زواياها،منها أبواب الفصلين الثاني والثالث من الفتوحات وهي 196 بابا، ومنها كتاب (مناهج الارتقاء) الذي ذكر فيه ثلاثة آلاف منزل للسالكين (49). ولهذا السلوك ثلاثة أبعاد:

- البعد الأول: الاستقامة الشرعية الكاملة عقيدة وعبادة وعملاً، ظاهراً وباطنا، مع أخذ الطريق عن شيخ حي مرب كامل مأذون في التربية والتسليك(50). والشيخ يعرّف التصوف بأنه الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً وهي مكارم الأخلاق، وهو معاملة كل شيء بما يليق به(51).

- البعد الثاني: قطع مراحل المقامات والأحوال. وقد لخص الشيخ عبد الكريم الجيلي (ت: 832 هـ) في الباب 63 من كتابه" الإنسان الكامل " المقامات الكلية إلى سبع وهي:

1 - الإسلام بقواعده الخمسة،أي: الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج إلى بيت الله الحرام.

2 - ثم الإيمان بطمأنينة القلب لعقائد وأخلاق القرآن.

3 - ثم الصلاح بدوام عبادة الله تعالى خوفاً ورجاء.

4 - ثم الإحسان بالاستقامة في التوبة والإنابة والزهد والتوكل والرضا والتفويض والإخلاص في جميع الأحوال.

5 - ثم الشهادة بانعقاد المحبة لله تعالى من غير علة، ودوام الذكر من غير فترة، والقيام على النفس بالمخالفة من غير رخصة.

6 - ثم الصديقية بحصول المعرفة في علم اليقين فناء وبقاء في حضرات الأفعال والأسماء والذات.

7 - وأخيراً القربة بالتمكين في الولاية الكبرى في حضرات الخلة الإبراهيمية، ثم الحب المحمدي، ثم الختام الأحمدي، وشهود الأحدية مع العبودة في الصورة المحمّدية، جمعاً للأضداد كلها في حضرات الذات العلية التي لا نهاية لكمالاتها.

- البعد الثالث: التحقق بالمعرفة الذوقية التي يقول الشيخ عنها أنها [منحصرة في العلم بسبعة أشياء وهو الطريق الذي سلكت عليه الخاصة من عباد الله: الواحد علم الحقائق وهو العلم بالأسماء الإلٰهية. الثاني العلم بتجلي الحق في الأشياء. الثالث العلم بخطاب الحق عبادة المكلفين بألسنة الشرائع. الرابع علم الكمال والنقص في الوجود. الخامس علم الإنسان نفسه من جهة حقائقه. السادس علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل. السابع علم الأدوية والعلل. فمن عرف هذه السبع المسائل فقد حصل المسمى معرفة](52).

وهذا المعراج السلوكي الذاتي الداخلي مرتبط بالمعراج الآفاقي عبر مراتب الوجود، وهذا يدخل بنا إلى القاعدة السابعة.

- القاعدة السابعة:

هي قاعدة المعراج الآفاقي وتناسبه مع المعراج الذاتي السلوكي. لأن مراتب الأولياء تتشكل عبر مدارج السلم الوجودي. والسالك يترقى حسب همته واستعداده عبر مراتب الوجود انطلاقاً من التراب الأرضي في عالم الملك إلى السماوات والكرسي والعرش في عوالم الجبروت،ثم إلى اللوح والقلم وعوالم الأمر في الملكوت الأعلى.

وقد لخص الشيخ أحمد التجاني (1150 - 1230 هـ) ترتيب الأولياء في مراتب الوجود فقال: [جولان أرواح الرجال ومشاهداتهم متفاوتة. فمنهم من حده

عالم الملك، وهو من السماء الدنيا إلى الأرض، فهذا أصغرهم. ومنهم من يصل إلى عالم الملكوت وهو من السماء السابعة إلى هنا. ومنهم من انتهت علومه إلى عالم الجبروت وهو من العرش إلى هنا. ومنهم من تخرق روحه الطوق الأخضر وتخرج عن كرة العالم وهم الأكابر] (53).

وخصص الشيخ الأكبر في تفصيله مراحل هذا المعراج كتبا عديدة منها: كتاب الإسراء – رسالة الأنوار – عقلة المستوفز – رسالة الاتحاد الكوني – وأبواب طويلة من الفتوحات: 167 / 371/367/198...

أما معراج المضاهاة بين المعراجين الآفاقي والنفسي، أي التناسب والمقابلة بين الصورة الإنسانية الجامعة المخلوقة في أحسن تقويم، والصورة الكونية، بحيث تنطوي معنويا آيات الآفاق في ذات السالك العارف، فقد فصله الشيخ أيضا في العديد من تآليفه ونصوصه (54)، كقوله مثلا:

[إن الله أودع العالم كله في الأفلاك. وجعل الإنسان مجموع رقائق العالم كله. فمِن الإنسان إلى كل شيء في العالم رقيقة ممتدة، من تلك الرقيقة يكون من ذلك الشيء في الإنسان ما أودع الله عند ذلك الشيء من الأمور التي أمته الله عليها ليؤديها إلى هذا الإنسان. وبتلك الرقيقة يحرك الإنسان العارف ذلك الشيء لما يريده. فما من شيء في العالم إلا وله أثر في الإنسان وللإنسان أثر فيه] (55).

وقد لخص الشيخ أبو الحسن الشاذلي (ت: 656 هـ) نوعاً من التناسب بين معراجي السلوك الداخلي النفسي والسلوك الخارجي الآفاقي في قوله: [الطينة أرضية، والنفس سماوية، والقلب كرسي، والروح عرشي، والسر مع الله بلا كيف ولا أين](56).

وكما أن بنية مملكة الولاية مرتبطة «عضوياً» ببنية الوجود، حيث إن للقطب إمداد الكليات، وللإمامين الثنائيات كالغيب والشهادة، وللأوتاد الرباعيات كأركان الطبيعة والجهات الأربع، وللأبدال السباعيات، فهي أيضاً - أي مملكة الولاية - مرتبطة بالأدوار الزمنية. فلكل دورية زمنية من أصغرها وهي الساعة من اليوم، إلى أكبرها كاليوم الواحد من أيام الخلق الستة، رجل من مملكة الولاية حالة مناسب لأحوال تلك الدورة، وبينه وبينها إمداد واستمداد.

فلكل من الأوتاد فصل من الفصول السنوية الأربعة. والرجبيون الأربعون(

57) حالهم وفتحهم مرتبط بشهر رجب من الأشهر القمرية، وهم على عدد المنازل الفلكية والبروج (28 +12-40). ورجال الهيبة والجلال الأربعة هم على قدم أربعة أنبياء لهم الأشهر الحرم الأربعة في السنة القمرية، وهم محمد وهود وصالح وشعيب عليهم السلام (58). ولكل من الأبدال السبعة يوم من الأسبوع يخصه. ولكل ساعة من اليوم شخص معيّن من جملة أربعة وعشرين شخصا لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان يسمون رجال الفتح، لكل ساعة شخص منهم، فكل من يفتح عليه بشيء من المعارف في أي ساعة كانت فهو لرجل تلك الساعة (59). بل يربط الشيخ حتى بين أعداد أولياء بعض الطبقات والدورات الزمانية الكبرى، فيقول أن لكل يوم من أيام الخلق الستة شخص معيّن من رجال الأنفاس (60). ويقول إن الأولياء الثلاثمائة الذين هم على قدم آدم لهم من الزمان الثلاثمائة من السنين التي ذكر الله أنها لبثها أهل الكهف وهي قر يبة من ثلث يوم واحد من أيام الرب [وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون].فإذا أخذ العارف في مشهد من مشاهد الربوبية حصل في مقدارها يومها في تلك اللحظة من العلوم الإلهية ما يحصل غيره في عالم الحس من الإجتهاد والتهيؤ من العلوم الإلهية في ألف من هذه السنين المعلومة (61).

- القاعدة الثامنة الأخيرة هي القاعدة الملائكية:

الأصل القرآني لهذه القاعدة من الآيات 30 - 32 من سورة فصلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝ ﴾.

سبق القول أن ثمة في كل زمان ثمانية أشخاص في أعلى درجات الولاية واحد منهم على قلب إسرافيل واثنان على قلب ميكائيل وخمسة على قلب جبريل. لكن الأمر عام في جميع أشخاص الولاية، أي ما من ولي إلا وله نسبة مع أرواح ملائكية مناسبة لمقامه في مدارج مملكة الولاية. وقد فصل الشيخ في العديد من مكتوباته مراتب الولاية الملكية وأسماء رؤسائها ووظائفهم (62) (تنظر اللوحة الخامسة).

وهذه القاعدة متداخلة مع القواعد السبعة الأخرى. وكمثال لهذا التداخل يقول الشيخ إن كان ولي على قلب عيسى عليه السلام فهو على قلب إسرافيل، ومن كان على قلب إسرافيل قد لا يكون على قلب عيسى(63). ويقول أيضاً إن الأربعة عشر شخصاً الذين يشكلون أعلى درجات مملكة الولاية يستمدون من حضرات أربعة عشر نبياً يتلقون من أربعة عشر روحاً نورياً من أمر الله ينزلون من حضرات أربعة عشر اسماً إلهيا، لكل اسم حرف مناسب من الأحرف النورانية الأربعة عشر المجموعة في أم الكتاب(64).

وهنا يمكن أن يطرح السؤال: هل ثمة علاقة بين مملكة الولاية الباطنية الروحانية السماوية والممالك الظاهرية الحسية الأرضية؟

يجيب الشيخ فيقول:[إن الله جعل بين المملكتين مناسبات ورقائق تمتد من ولاة الباطن إلى ولاة الظاهر بالعدل مطهرة من الشوائب مقدمة عن العيوب، فتقبل أرواح الولاة الأرضيين من الولاة السماويين بحسب استعداداتهم. فمن كان استعداده قوياً حسناً قبل ذلك الأمر على صورته طاهراً مطهراً، فكان والي عدل وإمام فضل. ومن كان استعداده رديئاً قبل ذلك الأمر الطاهر ورده إلى شكله من الرداءة والقبح، فكان والي جور ونائب ظلم وبخل فلا يلومن إلا نفسه](65).

وأخيراً إن القواعد الثمانية لمملكة الولاية تجمعها قاعدة كلية هي قاعدة معراج الكمال الأحمدي في ديمومة العبودة. وهو معراج الصلاة، وفيه قرة عين الإنسان الكامل محمد- صلى الله عليه وسلم- المخاطب في سورة أنزلت عليه بـ ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ - العلق: - 19.(66) وتفاوتت حظوظ كمل الأولياء حسب تحققهم بحقائق هذا المعراج في الصلاة الأحمدية الدائمة التي روحها فاتحة الكتاب. وفيها تتحقق أكمل رؤية وهي التي يقول عنها الشيخ: [فالحق لا يراه غير نفسه من حيث هويته... وكان الحق بهويته بصراً لهذا العبد. فإذا رآه بهذا الحال يكون ممن رأى الحق بالحق والمرئي به حق. وهذه أكمل رؤيته تكون حيث كانت](67). ويقول عنها أيضاً:[إن أعظم الرؤية رؤية محمدية في صورة محمدية] (68). ويقول عنها كذلك: [رؤية الحق بالرؤية المحمدية في الصورة المحمدية فإنها أتم رؤية وأصدقها](69). لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: [من رآني فقد رأى الحق](70) لأن خلقه القرآن فحضرته أكمل مجلى للحق تعالى.

خلاصة القول

الشيخ الأكبر فصل ما أجمله الشيخ أبو طالب المكي (ت: 386 هـ) في كتابه «قوت القلوب» حيث يقول إن أفلاك الوجود تجري بأنفاس الأولياء (71). ويؤكد الشيخ الأكبر على أن قواعد أعمدة مملكة الولاية هي روح أعمدة الوجود بأسره فيقول في هذا المعنى ما خلاصته: [وأمسك الله صورة السماء على السماء لأجل الإنسان الموحد الذي ليس في خاطره إلا الله، فذكره: الله، فهذا الاسم هو هِجِّير هذا الإمام الذي يقبض آخراً، وتقول الساعة فتنشق السماء. فإن هذا وأمثاله كان العمد، لأن الله ما أمسكها إلا من أجله أن تقع على الأرض] (72). وهذا يعني أنه بانتقال أعمدة مملكة الولاية من الدنيا تزول الدنيا لتبقى الآخرة ببقائهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه: [لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول: الله الله].

مراجع

الرموز: - ف- الفتوحات المكية لابن العربي- الأجزاء VII/VI/II/I، دار صادر بيروت /ب - باب/ ص- صفحة.

(1) من الأبواب الأخرى في الفتوحات المكية التي تكلم فيها الشيخ عن بعض طبقات الأولياء وعلومهم وأحوالهم الأبواب 51/49/35/34/15 في أقطاب الأنفاس /. ب16 في الأوتاد والأبدال /. ب23 الأقطاب المصونين/ - ب25 في وتد مخصوص معمر وهو الخضر/. ب 26 في أقطاب الرموز/. ب 27 في أقطاب صل فقد نويت وصالك /. ب28 في أقطاب ألم تر كيف/. ب 29 في أقطاب أهل البيت/. ب 30 - 31 - 32 في الأقطاب الركبانية /. ب 33 في الأقطاب النياتيين /. ب 36 - 37 في الأقطاب العيسويين/. ب 41 في أهل الليل/ - ب 42 في الفتيان/. ب 43 - 51 في أقطاب الورع/. ب 44 في البهاليل/. ب 45 في الصالحين أهل العلم القليل/ - ب 50 في رجال العجز والحيرة /. ب 58 في أهل الإلهام /. ب 151 أهل القربة /. ب 181 في الشيوخ /. ب 273 في منزل القطب والإمامين /. ب 309 الملامتية/ - ب 557 في الختمين العام والخاص.

أما الكتب التي تكلم الشيخ فيها عن طبقات خاصة من الأولياء، فمنها: منزل القطب والإمامين - كتب النقباء - حلية الأبدال - مقام القربة - مواقع النجوم - عنقاء مغرب تكلم فيه على مقام الختمية.

2) في II ب 131 ص 215.

3) II ب 73 ص 16.

4) حول الفيتاغوريين: ف III ب 368 ص358.

5) عدد اسم الله «الحكيم» بحساب الجمل هو نفس عدد كلمة (العدد) وهو: 109

ال ح ك ي م = 40 + 10 + 20 + 8 + 30 + 1= ال ع دد = 4+ 4+ 70 + 30 + 1= 109.

ومجموع الأعداد من 1 إلى 109 هو مجموع أعداد كل الحروف الثمانية والعشرين وهو 5995. حول هذا الرقم ينظر ما كتبه الشيخ عبد الواحد يحيى

René Guénon في مقاله بعنوان:

Note sur l'angélologie de l'alphabet arabe, Etudes traditionnelles, VIII - IX, 1938, p. 324/327, (Aperçus sur l'ésotérisme islamiques, chap. VI. Paris 1973).

6) حول المراتب الأربعة للأعداد ينظر: ف 1 ب 2 ص 80/81.

7) كثيرة هي نصوص الشيخ حول أهمية الأربعة ومظاهرها الوجودية. ينظر مثلاً: ف 1 ب 16 ص 159 - 158 - 157 /ب 60 ص293/ب 62 ص 302 - 301/ ب65 ص317/ف II ب198 فصل 13 ص 430 - 431/ ب 293 ص 668/ ب 348 ص 198/ب 371 ص 431 -432/ ب 375 ص 473.

8) في الفصل 27 من الباب 198 (ف 11 ص446) يقول الشيخ عن الخمسة: [ليس في الأعداد من له الاسم الحفيظ إلا هي. وهي تحفظ نفسها وغيرها بذاتها، وهو قوله تعالى: (ولا يؤوده حفظهما) فتنى]. قوله: تحفظ نفسها وغيرها، يعني عددياً أن ضرب الخمسة في نفسها إلى ما لا نهاية يعطي أعدادا تظهر الخمسة في آحادها، كما تظهر نتائج الضرب المتتالية في مراتب مئاته وآلافه ومراتبه الأخرى، ففي جميعها نجد الخمسة في الآحاد والعشرين في العشرات الخ...

5 × 5 = 25/25 × 25 = 625/625× 625 = 390625 / إلى ما لا نهاية. ويلاحظ أن عدد الاسم (حفيظ) بحساب الجمل المغربي الصغير هو: 8 + 8 + 1 + 8 = 25 = 5 × 5 والعدد 25 هو مجموع 5 مع 20 وهو قول الشيخ عن الخمسة أنها تحفظ العشرين خاصة.

9) ف 1 ص80.

10) يقول الشيخ: [في كل جنة مائة درجة بعدد الأسماء الحسنى والاسم الأعظم المسكوت عنه لوترية الأسماء] III ب 371 ص 435.

11) عدد الأنبياء وعدد الرسل واردان في أحاديث نبوية شريفة كالحديث الذي رواه الطبراني في الأوسط. [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: كم كانت الرسل؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر] والحديث الذي رواه ابن حبان والحاكم عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاث عشر جم غفير.

12) III ب 349 ص 208.

13) حول رجال مملكة الولاية وأعدادها وأولياء كل طبقة والأحاديث

النبوية الواردة في ذلك ينظر:

* كتاب (الحاوي للفتاوي) لجلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي (ت: 911 هـ) - رسالة «الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال» - القاهرة 1959، II ص 417... 437.

* كتاب الفتاوى الحديثة لأحمد بن حجر الهيشي المكي (توفي في القرن العاشر الهجري) - القاهرة 1970 ص322.

* كتاب «ردود على شبهات السلفية» لمحمد نوري النقشبندي. مطبعة الصباح طبعة أولى 1408 هـ/1987م.

* كتاب «السر الحقي الامتناني الواصل إلى ذكر الراتب الكتاني» لعبد الحي الكتاني. القاهرة 2003 - ص42... 59.

14) خلاصة أقوال الشيخ حول مرتبتي الختمين العام والخاص تنظر في III ب382 ص514 / IV ب 557 ص195. ينظر أيضاً كتاب:

Le Sceau des saints - Michel: Chodkiewicz - ch. IX

15) مكتوبات الصوفية حول طبقات ورجال مملكة الولاية كثيرة. ومن أبرزها كلام الشيخ عبد العزيز الدباغ الفاسي (ت: 1142 هـ/1720م) حول ديوان الأولياء في الباب الرابع من كتاب «الإبريز» لأحمد بن المبارك. حول هذا الموضوع ينظر: الكتاب الفرنسي - المذكور في المرجع 14. كما ينظر كتاب:

*Initiation et réalisation spirituelle: Ch. XXV.: Sur les degrés initiatique. René Guénon.

*Aperçus sur l'initiation: Ch. XIV: de la hiérarchie initiatique. R. Guénon.

*Le Roi du monde - René Guénon

*Etudes sur l'ésotérisme musulman - M. E. Blochet - Sindbad.

16) فII ب73 ص44. والملاحظ أن عدد الرسل، أي 314، هو مجموع أعداد حروف تفصيل اسم: (محمد: ميم + حا + ميم + ميم+ دال = 35 + 90 + 90 + 90 + 90 = 314). وهو عدد كلمة: (معراج = 3 + 1 + 200 + 70 + 40 = 314).

17) كتاب (مفتاح فصوص الحكم) لعبد الباقي مفتاح مراكش عام 1997. ثم أعيدت كتابته مع إضافة باب خاص لبيان السورة المناسبة لكل نص، ليعاد طبعه

بيروت عام 2004 تحت عنوان: (المفاتيح الوجودية والقرآنية لنصوص الحكم لابن العربي).

18) حول بعض أسرار العددين 12 و14 ومظاهر العدد 12 في مملكة الولاية وفي الإنسان وفي الكون ينظر: ف 1 ص 60/ب7 ص122/ ب12 ص46/ ب60 ص294/ II ب 73 ص7/ب 176 ص295... / ب 198 ص 437...439/ III ب371 ص434/ب 379ص493/ IV ب62 ص75/ ب463 ص77... /ينظر من رسائل الشيخ: «كتاب النقباء» وكتاب «الألف».

19) حول السباعيات الوجودية والأبدال ينظر في الفتوحات: 1 ب 12 ص 146/ب15 ص154... 161/ب 60 ص293... 295/ب 62 ص 302 / III ب 73 ص7-124 - 125 /ب 198 ص438 - 439 ص442... 449/ ب 371 ص 437/ ينظر أيضاً من رسائل الشيخ: «حلية الأبدال»، وكتاب «أيام الشأن».

20) حول الرباعيات الوجودية والأوتاد ينظر في الفتوحات: 1 ب 12 ص 144/ب 13 ص147... 149/ب 16ص157- 161 / II ب 73 ص5، - 6-7 /ينظر أيضاً المراجع المشار إليها تحت رقم (7).

21) حول مقام الختمية ينظر المراجع المشار إليها تحت الرقم (14) وينظر أيضاً:

* كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذي.

* كتاب (الرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر) لمحمود محمود الغراب - الطبعة الثانية 1413/1993. دمشق ص61... 87.

* كتاب «خبيئة الكون» لمحمد بن عبد الكبير الكتاني المغربي.

* كتاب «قرة العين في الرد على مؤلف خبيئة الكون» لأحمد سكيرج المغربي وكتابه «نهج الهداية في ختم الولاية».

* مقالة بعنوان: (الختمية: حفظ المراتب الوجودية عند المحيي الأكبر) لعبد الإله بن عرفة من كتاب «ابن عربي في أفق ما بعد الحداثة» - الرباط 2003 ص233... 252.

22) حول أهمية أسرار الحروف وأعدادها ينظر الباب 2 والباب 26 من الفتوحات، وكتابه «الميم والواو والنون». ينظر أيضاً مقال الشيخ عبد الواحد يحيى

المشار إليه تحت رقم 5. كما ينظر الفصل الأول من كتاب «المفاتيح الوجودية والقرآنية لنصوص الحكم لابن العربي لعبد الباقي مفتاح».

23) ف II ب109 ص IV/193 ب558 ص205 - 206.

24) فII ب198 فصل 20 ص440.

25) ف I ب22 ص179 -180 ينظر أيضاً آخر كتاب «منزل المنازل الفهوانية».

26) فII ب271 ص577.

27) ف I ب 20 ص168 - 169.

28) حول مميزات كل حرف ينظر الباب 2 من الفتوحات، وحول الأنواع الثلاثة للحروف ينظر: فI ب26 ص189...191 / II ب73 ص122 - 123.

29) ف I ب2 ص78.

30) ف II ب73 ص 6.

31) باب سفر إدريس من كتاب «الإسفار عن نتائج الأسفار» من رسائل ابن العربي، وقد ترجمه إلى الفرنسية الأستاذ دونيس غريل.

32) ينظر تفصيل طبقات من هم على قدم داود في:ف II ب73 ص11... 15/. ويلاحظ أن عددهم 159 مساوٍ لعدد كلمة (نطق = 100 + 9 + 50). قال سليمان في الآية 16 من سورة النمل ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾. وفي كتاب «مفاتيح الفصوص» لعبد الباقي مفتاح توضيح لاستمداد النفَس الداودي من اسم الله (المبين) الذي يتعلق به كمال النطق وتمام حسنه.

33) النفس الرحماني = (60 + 80 + 50 + 30 + 1) + (10 + 50 + 1 + 40 + 8 + 200 + 30 + 1) = 561 وهو من أهم الأعداد في ميدان المعارف الأكبرية، وتفصيل دلالاته يحتاج إلى كتاب. وكذلك العدد 560 وهو عدد أبواب الفتوحات، وعدد كلمات سورة الفتح، وهو عدد الكلمة القرآنية (تسنيم) أي شراب المقربين، وهو عدد كلمة (رفرف) الواردة في سورة الرحمٰن التي تشير عند الشيخ إلى المقامات الملكوتية العلوية،وهو عدد جملة (جامع العلوم الأكبريه).

34) ف II ب 73 ص15 - 14.

35) حول استمداد العالم من حضرة القطب والإمامين ينظر: فII ب 270

ب 171. وينظر كتاب «منزل القطب والإمامين» من رسائل ابن العربي.

36) ف II ب 73 ص 6 - 7.

37) ف II ب 176 ص285.

38) حول المفاتيح القرآنية لكتب الشيخ الأكبر ينظر بداية كتاب «مفاتيح فصوص الحكم» لعبد الباقي مفتاح وكتاب:

Un Océan sans rivage - Michel Chodkiewcz

39) ينظر أمثلة للآيات والسور القرآنية الممدة لكل طبقة من لأولياء في أبواب الفتوحات: 15/16/24/26/27/28/32/40/41/ وخصوصاً الباب 73 والباب 463 وكل الأبواب الـ92 من الفصل السادس.

40) ف II ب 366 ص329.

41) ف II ب 255 ص555.

42) فIII ب 383 ص520... 522.

43) ف III ب336 ص135... 140.

44) ف IV ص84.

45) ف I ب 24ص184/ II ب270 - ب 271/ III 317 /IV ب 556.

46) ف I ص160 - 161/ ينظر المراجع المذكورة تحت رقم 20.

47) ف I ب 15 ص156.

48) ف III ب 383 ص519... 522.

49) ف II ب 167 ص280.

50) ف II ب 181، ينظر أيضاً كتابه: «الأمر المحكم المربوط في ما يلزم طريق أهل الله من الشروط»، وكتابه «كنه ما لا بد للمريد منه».

51) ف II ب 73 ص 128.

52) ينظر تفصيل المسائل السبعة لمقام المعرفة في:ف II ب 177 ص 297... 319.

53) (جواهر المعاني) لعلي حرازم الفاسي - الطبعة الثانية سنة 1329هـ/ 1911 مصر. II ص87.

54) من تلك التآليف (التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية) و(عنقاء مغرب) وأبواب من (مواقع النجوم) و(الإسفار عن نتائج الأسفار). ومن

الفتوحات الأبواب: 6/308/360/361/362/375.

55) ف I ب15 ص157.

56) (لطائف المنن) لابن عطاء الله - الطبعة الأولى بتونس 1304 هـ ص 47.

57) ف II ب 73 ص8.

58) ف I ب 12 ص144/II ب73 ص12 - 13.

59) فII ب73 ص13.

60) ف II ب73 ص15.

61) ف II ب73 ص9.

62) حول الولاية الملكية والنبوة الملكية والرسالة الملكية تنظر الأبواب:ف II ب154 - ب 157 /ب160 /III ب307. وينظر أيضاً:ف I ب7 ص 120/ 121/ ب 60 ص295 - 296/ وينظر ترتيب طبقات الملائكة عبر مراتب الكون في كتابه «عقلة المستوفر» وتنظر كيفية تنصيف ملائكة البروج والمنازل الفلكية في كتابه «التنزلات الموصلية».

63) ف II ب 73 ص11.

64) فIII ب383 ص820.

65) ف I ب 60 ص396. وينظر أيضاً في رسائل ابن عربي «منزل القطب والإمامين». ومن كتب الشيخ عبد الواحد يحيى:

Autorité Spirituelle et Pouvoir temporel. René Guénon

66) خصص الشيخ لأسرار الصلاة ومعارجها كتاب «التنزلات الموصلية»، والباب 69 من الفتوحات، وبعض أجوبته على أسئلة الحكيم الترمذي في الباب 73 التي أرقامها:

/11/12/99/ 100 / 109 /110/111/112/128/147/148/149/154 5/8/9.

67) ف IV ب425 ص38، حول الحق تعالى ينظر في الفتوحات الأبواب التالية:ب 71 فصل رؤية الهلال ووقتها /ب 73 والأجوبة عن أسئلة الترمذي: 115 - 71 - 70 - 69 - 68 - 67/ ب371 فصل 8/ب 377 ص 485 - 486 والأبواب: 401/406/407/409/414/421/425/426/431/442/448/450/

550/... وفي الباب 559 حضرة الكبرياء وحضرة الحفظ...

وينظر في الفصوص: فصوص فص شيث وإسحاق ومحمد عليهم السلام

68) ف IV ب492 ص129.

69) ف IV ب558 ص203.

70) الحديث رواه أحمد في مسنده والبخاري والترمذي، كلهم عن قتادة، وهو في الجامع الصغير للسيوطي تحت رقم 8689. حول معرفة منزل محمد صلى الله عليه وسلم مع بعض العالم ينظر: III ب337 ص140... 145.

71) ف I ص 87- 326 - 441 وينظر: ب 44.

72) ف III ب371 فصل 4 ص438/ ب 44 ص317.

اللوحات

(1) **اللوحة الأولى:** طبقات الولاية الثابتة من الرسل والأنبياء والملايكة ومفاتيح الكنوز الاثني عشر والأقطاب الاثني عشر الذين عليهم مدار العالم. مع اسم كل نبي من حيث قطبية ولايته حسب ما أشار إليه الشيخ في الباب 15 من الفتوحات إلا الأسماء التي بين قوسين (بالنسبة لشيث وخالد) فهي مستنبطة من كلامه في الفصوص. وفي دائرة مفاتيح الكنوز الاولى: الاسم الإلٰهي الذي يستمد منه كل واحد منهم. وفي سطر الأقطاب الاثني عشر اسماء السور والانبياء الممدون لهم.

(2) **اللوحة الثانية:** طبقات الأولياء الذين لهم أعداد ثابتة في كل زمان (ما عدا الأفراد الخارجون عن دائرة القطب فهم يزيدون وينقصون) مع ذكر الاسم الإلٰهي الذي يستمد منه كل واحد من الطبقات الست العليا (القطب - الإمامان - الأوتاد - الأبدال - النجباء - النقباء). والطبقات الأخرى التسعة مذكورة باسم الملك أو النبي الممد لهم، أو الاسم المميز لهم (من البابين 73 و383 من الفتوحات).

(3) **اللوحة الثالثة:** تفصيل لأعداد وأسماء الطبقات الثابتة للأولياء مع ذكر منزلهم القرآني ووظيفتهم الكونية أو ما يميز حالهم (من الباب 73 من الفتوحات).

(4) **اللوحة الرابعة:** بعض طبقات الأولياء الذين لهم عدد ثابت (من الباب 73 وأبواب الفصل الأول من الفتوحات).

(5) **اللوحة الخامسة:** طبقات المملكة الملائكية وفق مراتب الوجود (من كتاب عقلة المستوفز) وهي تتناسب وتتداخل مع طبقات الأولياء في السلم الوجودي.

(6) **اللوحة السادسة:** التناسب بين مراتب أنبياء الفصوص ومراتب الوجود والحروف اللفظية والأسماء الإلٰهية وسور القرآن والمنازل الفلكية. كل مرتبة من تلك المراتب الثمانية والعشرين تناسب طبقة من طبقات الأولياء من حيث أنفاسهم الرحمانية. (من كتاب المفاتيح الوجودية والقرآنية لفصوص الحكم لابن العربي تأليف عبد الباقي مفتاح).

اللوحة الأولى طبقات الولاية الثابتة للرسل والانبياء

الطبقة الأولى: دائرة الختمية مركزها الروح الأحمدي قطب الأقطاب خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، وبقربه الإمام علي عليه السلام خاتم أئمة آل البيت الأطهار وخاتم الخلفاء الراشدين، ومعه عيسى عليه السلام خاتم الولاية المطلقة، ومحمد محيي الدين ابن العربي خاتم الولاية المحمدية الخاصة. والإمام علي هو قطب دائرة مفاتيح الكنوز الاثني عشر المستمدين من الأسماء الحسنى التي عليها مدار فاتحة الكتاب وهي: (الله الرحمن الرحيم المالك الفرد الهادي المؤمن المعطي الكبير المجيب) وهم الاقطاب الاثني عشر الذين عليهم مدار العالم وهم على قلوب اثني عشر نبياً وهم نقباء العالم على عدد البروج وهم: (نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وإلياس وأيوب وداود وسليمان) وسورهم على التتالي هي

يس/الانعام/طه/الملك/الاخلاص/الكهف/النصر/الكافرون/العمران/البقره/الزلزله /المجادلة والواقعه.

الطبقة الثانية: دائرة الأوتاد ولها أربعة أقسام، في كل قسم أربعة أركان:

- أركان مقامات الملائكة: إسرافيل وميكائيل وجبرائيل وعزرائيل، وقطبهم الروح المحمدي الأكبر.
- أركان البيت الوجودي: محمد وآدم وإبراهيم وعيسى عليهم السلام.
- أركان البيت الزماني: محمد وهود وصالح وشعيب عليهم السلام.
- أركان بيت الدين: إدريس وعيسى وإلياس والخضر عليهم السلام.

الطبقة الثالثة: دائرة أبدال السماوات السبع، وهم حسب ترتيبهم نزولاً من السماء السابعة: إبراهيم ثم موسى ثم هارون ثم إدريس ثم عيسى ويحيى ثم آدم عليهم السلام.

الطبقة الرابعة: دائرة الأنبياء والرسل وهم: 124000 نبي منهم 314 رسول، ومن بينهم 25 مذكورون في القرآن، وأسماؤهم من حيث كونهم أقطاب ولاية هي كالتالي بين قوسين:

آدم (المفرق) إدريس (مداوي الكلوم)، نوح (البكاء) إلياس (المرتفع) إبراهيم (الشفاء) هود (الهادي) صالح (المصلح) شعيب (المقسوم) لوط (الملصق)

إسماعيل (المنحور) إسحاق (الماحق) يعقوب (العاقب) يوسف (الشريد) يونس (البحر) موسى (شجر الماء) هارون (الخليفة) عُزير (الراجع) أيوب (السالم) اليسع (الواسع) داود (الصانع) سليمان (الطيار) زكريا (الرامي) يحيى (الحي) عيسى (عنصر الحياة) محمد (الباقي) عليه وعليهم الصلاة والسلام؛ يضاف أيضاً ذو الكفل، ومن ذكرهم الشيخ في الفصوص: شيث (هبة الله) خالد (عبد الصمد) لقمان (واضع الحكم).

اللوحة الثانية

طبقات الأولياء الذين لهم أعداد ثابتة (ما عدا الأفراد) مع ذكر الاسم الإلهي الذي يستمد منه كل واحد من ست طبقات.

الأفراد الخارجون عن دائرة القطب لا عدد يحصرهم

القطب الخليفة
عبد الله

<table dir="rtl">
<tr><td>الإمامان: الملك – الرب</td><td rowspan="3"></td><td>1 على قلب اسرافيل</td><td>1 حواري</td></tr>
<tr><td>4 الأوتاد: الحي – المريد – العليم – القدير</td><td>3 على قلب ميكائيل</td><td></td></tr>
<tr><td>7 الأبدال: أسماء الأوتاد – السميع – البصير – الشكور</td><td>5 على قلب جبريل</td><td></td></tr>
<tr><td>8 النجباء: أسماء الأبدال – الإدراك</td><td colspan="2"></td><td>7 على قدم ابراهيم</td></tr>
<tr><td>12 النقباء: الله – الرحمان الرحيم – الرب – الجواد – المقسط – القادر – الخالق – القاهر – الهادي – المحي المميت – الشافي – الجميل،</td><td>40 رجبيون</td><td></td><td>40 على قدم نوح</td></tr>
<tr><td colspan="3" rowspan="2">أزيـد من : 124000 ولي</td><td>159 على قدم داود (رجال الأنفاس): 21 طبقة،</td></tr>
<tr><td>300 على قدم آدم.</td></tr>
</table>

اللوحة الثالثة

تفصيل الطبقات الثابتة للأولياء مع منزلهم القرآني ووظيفتهم الوجودية

رقم ترتيبي للطبقات	عدد الأشخاص في	الاسم المميز للطبقة	اسم الحال المميز لطبقة أشخاص الأنفاس الذين هم على قلب داود	منزلهم القرآني	وظيفتهم الوجودية أو ما يميز حالهم
1	1	القطب		كل القرآن-فواتح السور	الإيجاد - الوحدات - الكليات
2	1	على قلب اسرافيل		آيات الإحياء - والصعق	الإحياء والإماتة والجمع
3	1		شخص الرقائق لكل العالم	الذاريات 47	التفشي والتوسيع
4	1		شخص القلب مع الأنفاس	الشورى 11 / الإسراء 6	التقليب والتكرار
5	1		شخص الاستطالة والصولة	الأنعام 18	القهر والإقدام
6	1		سقيط الرفرف ابن ساقط العرش	النجم 01	الانكسار والحياء
7	1		الشخص البرزخي	(مريم 17/21)	حفظ عالم البرزخ
8	1	الحواري		آل عمران 52/الصف 14	نصرة الدين بالحجة والسيف
9	2	الإمامان		سور الملك/الناس/الفلق	الثنائيات/الغيب والشهادة
10	3/2		أشخاص الغنى بالله	آل عمران 97	إمداد أغنياء الملك والملكوت
11	3	على قلب ميكائيل		(آيات الرحمة والرزق)	الرحمة المحطة والأرزاق
12	3		أشخاص الإمداد الإلهي والكوني	البقرة 255	إمداد الخلق باللطف واللين
13	3		الإلهيون الرحمانيون	الأنفال 35	تلقي الوحي كصلصلة الجرس
14	4		أشخاص الهيبة والجلال على قدم محمد وهود وصالح وشعيب	الطلاق 12/الملك 3	إمداد الأوتاد/عماء - عرش - سماء - أرض
15	4	الأوتاد		طه/الكهف/الواقعة/الملك	الرباعيات الوجودية
16	4	على قلب جبريل		(آيات التشريع)	إنزال الشرائع وعلوم الطريق
17	5		أشخاص الإشتياق الصلوات	البقرة 238	إقامة الصلوات - ملوك أهل الطريق
18	5		أشخاص القوة مع اللين	طه 44/آل عمران 159	الاعتدال والوسطية في الأمور

تابع اللوحة الثالثة

19	6		أشخاص أيام الخلق الستة	ق 38	الجهات الست و الأيام الست
20	7	الأبدال		الشورى 43 / الكهف18 / الذاريات51 النبأ 40 النمل 16 غافر 40 الأحزاب33 الطلاق 12	السباعيات الوجودية
21	7	على قدم ابراهيم		الشعراء 83	الرحمة العامة والحنان
22	7		أشخاص العلى	محمد 35	المعارج العلمية
23	8	النجباء		(البقرة 255)	الكرسي الفلك المكوكب سور الأعراف سقف جهنم سطح الجنة الأفلاك الثمانية.
24	8		أشخاص القوة الإلهية	الفتح 29	الهمم الفعالة
25	10		أشخاص الغيب	طه 108 الفرقان 63	الستر والخشوع والحياء
26	10		أشخاص عين التحكيم والزوائد	طه 114 التوبة 124 البقرة 168	إظهار البسط والزيادة والخصوصية
27	12	النقباء		(التوبة 36 المائدة 12 البروج 01)	فلك البروج الأطلس العرش سقف الجنة
28	12		البدلاء	النمل 42	المماثلة والبينية
29	15		أشخاص الحنان والعطف	الأعراف 156	الشفقة والرحمة المطلقة
30	18		الظاهرون بأمر الله	نوح 08 الضحى 11 الأنعام 91	الظهور بالحق والقيام به
31	21		أشخاص النفس الأسفل	التين 05	التلقي عن الله مع الأنفاس
32	24		أشخاص الفتح لكل ساعة	فطر 02	شخص معد لفتح كل ساعة
33	40	على قدم نوح		نوح 28 الأعراف 142	الغيرة الدينية وتمام النشأة
34	40			المزمل 05	القيام بعظمة الله خصوصا في شهر رجب
35	300			الأعراف 23	الأخلاق الإلهية والإعطاء

اللوحة الرابعة

بعض طبقات الأولياء الذين يزيدون وينقصون

	الملامية	الفقراء	الصوفية	العباد	الزهاد	رجال الماء	الأفراد
تفصيل هذه الطبقات في الباب 73 من الفتوحات	الأمناء	القراء	الأحباب	المحدثون	الأخلاء	السمراء	الصديقون
	الشهداء	الصالحون	المسلمون	المومنون	المحسنون	القائمون	الصادقون
	الصابرون	السائحون	الخاشعون	المتصدقون	الصائمون	الحافظون لحدود الله	الذاكرون
	التائبون	المتطهرون	الحامدون	الراكعون	الساجدون	الآمرون بالمعروف	الناهون عن المنكر
	الأواهون	الأجناد الإلهيون	الأوابون	المحبون	المبصرون	المهاجرون	المشفقون
	الموفون بعهد الله	الواصلون بالله	الخائفون	المعرضون بالله	الكرماء	الحلماء	الأخيار
خصص الشيخ لهذه الطبقات من الفصل الأول الفتوحات	المجانيب	المقربون السابقون	أهل الليل	الفتيان	الشيوخ	أهل الإلهام	رجال العجز والحيرة
	الأقطاب المصوفون	أقطاب الأنفاس	أقطاب الرموز	أقطاب ألم تر كيف	أقطاب أهل البيت	أقطاب الركبانية	الأقطاب النباتيون
	أقطاب الورع	الأقطاب العيسويون	أهل العلم القليل	أقطاب المقامات والأحوال التي خصص لها الشيخ أبواب الفصلين الأول والثاني من الفتوحات			

اللوحة الخامسة: المملكة الملائكية

رئيس ملائكة المرتبة	أرواح المرتبة الكونية وملائكتها	المرتبة الكونية
	الأرواح العالون المهيمون/القلم الأعلى/اللوح المحفوظ	الملكوت الأعلى
	أرواح مهيمة بالتقديس والتسبيح	أرض بيضاء ملكوتية
	أربعة أملاك (للأركان الطبيعية الأربعة)	مرتبة الطبيعة
إسرافيل	ثمانية حملة العرش- الواهبات	العرش
ميكائيل	المدبرات	عالم الهباء
		الكرسي
جبرائيل	المقسمات	عالم الرفارف والمثل
		فلك البروج
رضوان	التاليات	عالم الرضوان والجنان
		الفلك المكوكب/سور الأعراف:سقف جهنم
عزرائيل	النازعات	عالم الجلال
		السماء السابعة
المقرب	الملقيات	عالم الجمال
		السماء السادسة
الخاشع	الفارقات	عالم الهيبة
		السماء الخامسة
الرفيع	الصافات	عالم البسط
		السماء الرابعة
الجميل	الفاتقات	عالم الأنس
		السماء الثالثة
الروح	الناشطات	عالم الحفظ
		السماء الثانية
المحيي	السابحات	عالم المزج
		السماء الأولى
البرق	السابقات	عالم الخوف
		كرة الأثير
الرعد	الزاجرات	عالم الشوق
		كرة الهواء
الزاجر	الساريات	عالم الحياة
		كرة الماء
قاف	الناشرات	عالم الذكر
		كرة التراب
ملائكة نهر الحياة	ملائكة الأفعال والأقوال والخواطر	عالم الإنسان

اللوحة السادسة

محتويات الدوائر:

الدوائر الست التالية أرقامها - بدءاً من الدائرة الداخلية الأولى حيث أرقام المراتب من 1 إلى 28 - وهي الدوائر: 9/8/4/3/2/1 مقتبسة من الباب 198 من الفتوحات المكية لابن العربي. والدائرتان 7/6 من كتابه فصوص الحكم. والدائرة 5 من كتاب (المفاتيح الوجودية والقرآنية لكتاب فصوص الحكم لابن العربي) لمفتاح عبد الباقي، وفي هذا الكتاب تفصيل للتناسب بين المراتب الثمانية والعشرين في الدوائر التسع.

* في الدائرة 2: الحروف اللفظية مرتبة حسب مخارجها بدءاً من الهمزة في الصدر وانتهاءاً بالواو في الشفتين.

- في الدائرة 3: الأسماء الإلٰهية الحسنى المتوجهة على إيجاد مراتب العالم الثمانية والعشرين المبينة في الدائرة 4 بدءاً من الاسم المتوجه على القلم الأعلى وانتهاءاً برفيع الدرجات المتوجه على تعيين المراتب.

- في الدائرة 8: أسماء المنازل الفلكية. كل منزلة تناسب مرتبة كونية وحرفاً رقمياً حسب ترتيب (أبجد هوز...) ولكل حرف عدده المشرقي والمغربي في حساب الجمل.

- في الدائرة 9: أسماء البروج الاثني عشر.

- في الدائرة 6: أسماء أنبياء أبواب الفصوص. لكل باب سورة مناسبة مبينة في الدائرة 5.

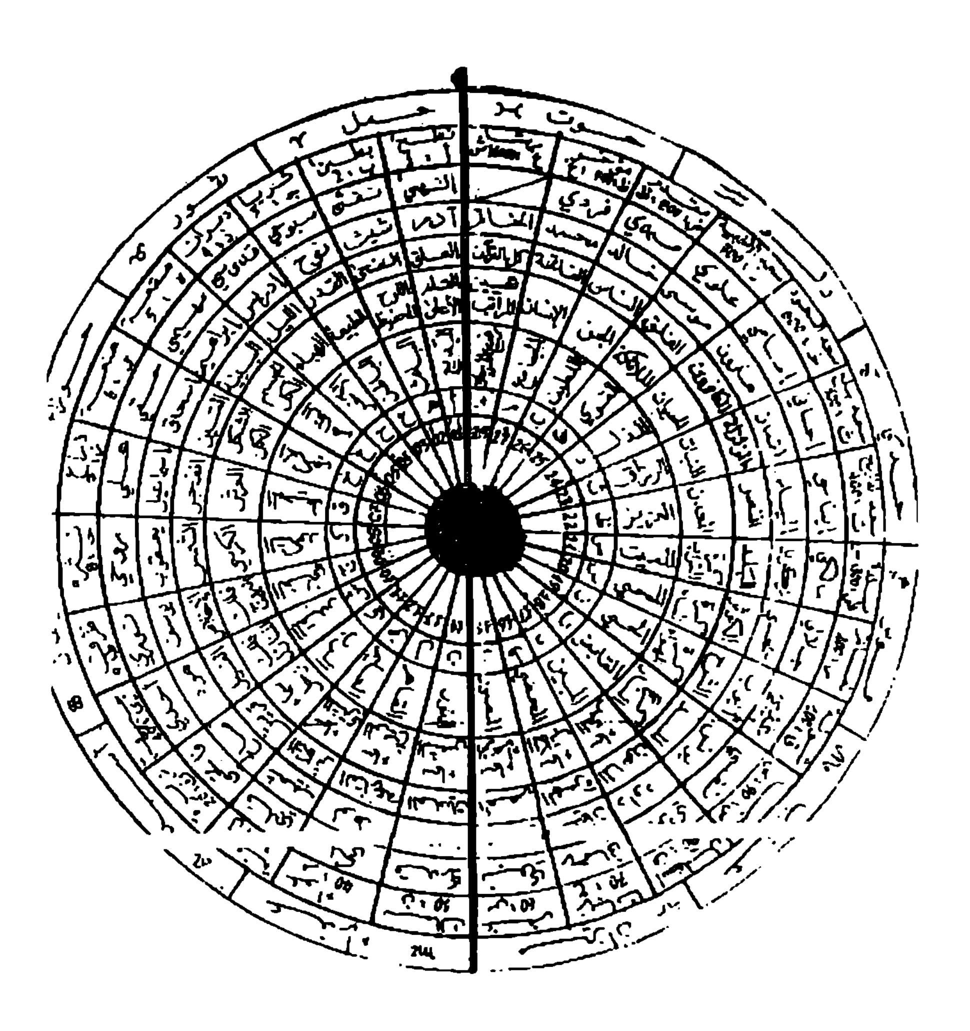
- في الدائرة 7: أوصاف حكم أبواب الفصوص.

* مجموع أعداد الدائرة 1 هو 406 وهو أيضاً مجموع أعداد كلمات - كل على حدة - الدوائر 7/5/3 بالحساب المشرقي الصغير، والدائرة 6 بالحساب المغربي الصغير وكذلك كلمات سورة الفيل مع بسملتها لأنها سورة مرتبة فلك المنازل الثمانية والعشرين.

* بالحساب النفسي - وهو إعطاء كل حرف رقم مرتبة مخرجه كما هو

مبين في الدائرتين 2/1 - مجموع أعداد كلمات كل من الدوائر 6/5/3 هو 1572، وكذلك مجموع أعداد وكلمات سورة الفيل مع بسملتها والتفصيل في الجداول التالية:

نفس الرحمٰن في خزائن الجود ومراتب الوجود وفصوص الحكم



مفهوم الهوية والرحمة الإلهية وما تستلزمانه عند الشيخ الأكبر أو النظرة إلى الآخر عند الشيخ ابن العربي والأمير عبد القادر الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم الفتاح العليم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد رحمة العالمين وعلى آله وصحبه.

كلام الصوفية حول مفهوم هوية الحق تعالى وهوية الخلق والعلاقة بينهما يلخصه قولهم: «عموم الشريعة: أنا أنا وأنت أنت، وطريقتها: أنا أنت وأنت أنا، وحقيقتها: لا أنا ولا أنت بل هو».

ويعرّف شيخ الصوفية الأكبر محيي الدين ابن العربي (560 - 638هـ) "الهو" بأنه الغيب الذي لا يصح شهوده، ويعرّف " الغيب " بأنه كل ما ستره الحق عنك منك لا منه (1). وقد خصص رسالة لهذا الموضوع عنوانها " كتاب الهو " (2)، وبدأها ببيان أن " الهو " في اصطلاح الصوفية كناية عن ذات الحق تعالى من حيث أحديتها فقال ما خلاصته:

«" الهو " كناية عن الأحدية ولهذا قيل في النسب الإلهي: [قل هو الله أحد] فهي الذات المطلقة التي لا تدركها الوجوه بأبصارها ولا العقول بأفكارها. فما من مقام يكون فيه تجل من التجليات مثل الـ " أنا " والـ " إني " والـ " أنت " والـ " ك " إلا و" الهو " مبطون في ذلك التجلي، فيقع الإخبار عما ظهر من هذه المقامات ويقع التنزيه على الذات المطلقة. فلا هو إلا هو. ولسريان " الهو " في الموجودات، إذ لا وجود لها إلا بـ " الهو " ولا بقاء لها بعد الوجود إلا بـ " الهو"، صار كل ما بعد " الهو " في حكم عطف البيان للمراتب التي لـ " الهو " لا " الهو". و" الهو " باق على إجماله وعزته، فقال في غير ما موضع: [هو الله الذي لا إله إلا هو] (الحشر: 22) فبدأ بـ" الهو " وختم بـ " الهو"، وأظهر بـ " الهو " مرتبة الألوهية. فالأسماء كلها ترجمانات عن " الهو"، و" الهو " مكتنف بحجاب العزة الأحمى في أحديته وهويته».

من هذا الكلام المركز يتبين أن لا وجود لهوية حقيقية إلا لهوية الوجود الحق المطلق، لكن لها مظهران: مظهر مطلق منزه عن كل تقييد لغنى ذات الحق تعالى عن العالمين، ومظهر مقيد يتجلى في مراتب الوجود بكثرتها اللامحددة التي تسمى " مخلوقات "؛ ومظهرها المقيد هذا هو عين وجود تلك المراتب وبها تظهر وتقوم، إذ الله سبحانه هو وحده الحي القيوم، ولا وجود ولا قيام في كل آن للأشياء إلا به تعالى. وقد عبر الشيخ محيي الدين عن هذين المظهرين في صلاة له مشهورة على النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أكمل متحقق بالهوية المقيدة في العبودية كما هو أتم مجلى للهوية الذاتية المطلقة لكمال معرفته بنفسه وبربه، فقال عنه أنه «سر الهوية التي في كل شيء سارية وعن كل شيء مجردة وعارية». فسريانها هو الذي يعطي لكل شيء هويته المقيدة، مع بقائها على الدوام منزهة ومجردة عن كل قيد (3).

لكن إدراك معرفة هذه الهوية في مظهريها إدراكا ذوقيا وشهودا كشفيا لا يتم إلا لمن أحبه الله تعالى نتيجة تقربه إليه بالفرائض والنوافل الشرعية، حسبما ورد في الحديث القدسي المروي في صحيح البخاري وغيره: [ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به] الحديث (4). فجعل تعالى هويته عين جوارح العبد المحبوب، ونسب ما يصدر عنها إلى العبد. وهذا الأمر ليس سوى كشف وشهود لما هو عليه الحال في كل الآنات والأحوال، لأن الحقائق لا تتبدل، أي لا ينحصر المطلق في المقيد كما لا ينقلب المقيد مطلقا. ولهذا فإن الشيخ الأكبر حريص دوما على الفصل بين العبد والرب، ويفصّل هذا المعنى في" كتاب الهو " فيقول:

«وأما مراتب الخلق في الكنايات فمختلفة باختلافها، وأشرفهم من كان هِجّيره (أي ذكره الدائم): "الهو". فإن بعض الناس ممن لم يعرف شرف " الهو " ولا الفرق بين ذات الصور والتحول والذات المطلقة، جعل الـ " أنا " أشرف الكنايات من أجل الاتحاد، وما عرف أن الاتحاد محال أصلا، وأن المعنى الحاصل عندك من الذي تريد الاتحاد به هو الذي يقول: أنا، فليس باتحاد إذن، فإنه الناطق منك لا أنت. فإذا قلت: "أنا " فأنت لا هو، فإنك لا تخلو أن تقول: "أنا " بأنانيتك أو بأنانيته. فإن قلتها بأنانيتك فأنت لا هو، وإن قلت بأنانيته فما قلت، فهو القائل "

أنا " بأنانيته. فلا اتحاد البتة، لا من طريق المعنى ولا من طريق الصورة. فالقائل من العلماء: "أنا " لا يخلو إما أن يعرف " الهو " أو لا يعرف، فإن عرف " الهو " فقوله " أنا " على الصحو غير جائز؛ وإن لم يعرف تعين عليه الطلب واستغفر من " أنا " استغفار المذنبين».

ولهذا فإن أشرف الأذكار عند الشيخ محيي الدين هو ذكر الله تعالى باسمه "هو"، وفي هذا المعنى يقول:

«و " الهو " عند الطائفة أتم الأذكار وأرفعها وأعظمها، وهو ذكر خواص الخواص، وليس بعده ذكر أتم منه، فيكون ما يعطيه " الهو" في إعطائه أعظم من إعطاء اسم من الأسماء الإلٰهية حتى من الاسم الله، فإن الاسم الله دلالة على الرتبة والهوية دلالة على العين لا تدل على أمر آخر غير الذات، ولهذا يرجع إليها محلول لفظة الله، فإنك تزيل الألف واللامين على الطريقة المعروفة عند أهل الله فيبقى " ه"، فإن جعلته سببا لتعلق الخلق به مكنت الضمه فقلت " هو" فجئت بواو العلة وفيها رائحة الغنى عن العالمين، والعلة مالها هذا المقام من أجل طلبها المعلول كما يطلبها المعلول فحركت بالفتح تخفيفا من ثقل العلية فقيل " هوَ" فدل على عين غائبة عن أن يحصرها علم مخلوق، فلا يزال غيبا عند كل من يزعم أنه عالم به، حتى عن الأسماء الإلٰهية فشغلها بنا وضعها لها من المعاني. فالأسماء موضوعة وضعتها الممكنات في حال ثبوتها وعدمها، فالأسماء أحكامها. والهوية تقوم للممكنات بهذه الأحكام، فإليه وهو " الهو" يرجع الأمر كله، فافهم» (5).

وإذا كانت الموجودات لا تستمد وجودها إلا من الله تعالى نور السماوات والأرض وهو سبحانه الجميل الذي يحب الجمال (6)، فالعالم كله تجليات حسنه وبهائه وكماله ومظاهر قدرته وحكمته؛ وقد أعرب عن هذا الشيخ عبد الكريم الجيلي (764 - 832 هـ) في عينيته المشهورة حيث يقول:

تجلى حبيبي في مرائي جماله ... ففي كل مرأى للحبيب طلائع

فلما تبدى حسنه متنوعا ... تسمى بأسماء فهن مطالع

وأبرز منه فيه آثار وصفه ... فذلكم آثار من هو صانع

وفي هذا السياق ينبه الشيخ الأكبر أن الحب الإلٰهي مرتبط باسمه الجميل والنور فيقول:

« واعلم أن الحب الإلٰهي من اسمه الجميل والنور، فيتقدم النور إلى أعين الممكنات فينفتر عنها ظلمة نظرها إلى نفسها وإمكانها، فيحدث لها بصرا هو بصره، إذ لا يُرى إلا به، فيتجلى لتلك العين بالاسم الجميل فتتعشق به، فيصير عين ذلك الممكن مظهرا له؛ فيبطن العين من الممكن فيه، وتفنى عن نفسها فلا تعرف أنها محبة له سبحانه. ولهذا يوصف هذا النور بأن له أشعة، أي أنه شعشعاني لامتداده من الحق إلى عين الممكن ليكون مظهرا له... فعلامة الحب الإلٰهي حب جميع الكائنات في كل حضرة معنوية أوحسية أو خيالية أو متخيلة، ولكل حضرة عين من اسمه النور تنظر بها إلى اسمه الجميل فيكسوها ذلك النور حلة وجود» (7).

و يؤكد الشيخ على العلاقة الأصيلة بين حب الله تعالى وحب خلقه فيقول:

« فمن أحب الله لجماله، وليس جماله إلا ما يشهده من جمال العالم فإنه أوجده على صورته، فمن أحب العالم لجماله فإنما أحب الله، وليس للحق منزه ولا مجلى إلا العالم. فأوجد الله العالم في غاية الجمال والكمال خلقا وإبداعا فإنه تعالى يحب الجمال وما ثم جميل إلا هو، فأحب نفسه، ثم أحب أن يرى نفسه في غيره، فخلق العالم على صورة جماله ونظر إليه فأحبه حب من قيده النظر، ثم جعل عز وجل في الجمال المطلق الساري في العالم جمالا عرضيا مقيدا يفضل آحاد العالم فيه بعضه على بعض بين جميل وأجمل... ومن هذه الحضرة أضاف الله الزينة إلى الله وأمرنا أن نتزين له فقال: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ (الأعراف: 31) وهي زينة الله عند كل مسجد، يريد وقت مناجاته وهي قرة عين محمد صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن لما فيها من الشهود فإن الله في قبلة المصلي وقد قال: "اعبد الله كأنك تراه"... فإذا تجملت لربك أحبك، وما تتجمل له إلا باتباعي فاتباعي زينتك، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: 31) أي تزينوا بزينتي يحببكم الله فإن الله يحب الجمال» (8).

و قد عبّر ابن العربي بكل وضوح كيف ينبغي أن تكون وشائج المعاملة الصحيحة بين (أنا) و(الآخر) من خلال مفهومه لحقيقة الهوية؛ وموقفه في هذا الموضوع لا يرجع إلى عواطف نفسية هي عرضة لتغير الظروف كما هو الحال عند الكثير من المتكلمين في هذا الشأن، وإنّما يعتمد على مبادئ قرآنية عرفانية ثابتة أصلها نابع من الرحمة الإلٰهية التي وسعت كل شيء.

ويصرّح ابن العربي في الكثير من نصوصه أنّ منبع جميع مفاهيمه ومعارفه هو القرآن العظيم (9) ؛وبالتالي فنظرته إلى الآخر نابعة من تعاليم القرآن وما فصّلته سيرة النبي صلى الله عليه وسلم الذي حصر الحق تعالى الهدف من رسالته في قوله له: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء 107)، وقد تكررت كلمة "رحمة" مع مشتقاتها في القرآن أكثر من أربعمائة مرة. لهذا نجد هذه الرحمة الشاملة بمظاهرها التي لا تحصى من المحاور الأساسية التي عليها مدار أهم كتب الشيخ الأكبر أي الفتوحات المكية وفصوص الحكم، حيث يتكرر ورودها بكيفيات متنوعة عشرات المرات، مؤكدا أنّ الله خلق العالم بالرحمة وأنّ الوجود كله رحمة وأنّ الحكم الأبدي لها (10). ففي الباب 343 من الفتوحات مثلا، يذكر أنّ من مظاهر الرحمة الإلٰهية سبعمائة وتسعة عشر مجلى، منها مائة رحمة على عدد الأسماء الحسنى المحصاة التسعة والتسعين أي لكل اسم رحمة، وتمام المائة الرحمة المضافة إليه تعالى في قوله: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ (الأعراف 156). والرحمة الإنسانية تتجلى أساسا في حسن الخلق والمعاملة، ولهذا اختصر الرسول صلى الله عليه وسلم الغاية من بعثته، فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (11)، ولخصّ علماء الإسلام الدّين في كلمة واحدة وهو قولهم: «الدّين المعاملة». وانطلاقا من هذه الأصول فإن وشائج الصلة بين (أنا) و(الآخر) تعتمد على قواعد، أهمّها أربعة:

* القاعدة الأولى:

هي أنّ المجتهد في الأصول العقائدية، فضلا عن الفروع، مأجور إن أصاب ومعذور إن أخطأ إذا بذل وسعه في الاجتهاد، لقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (البقرة 286) وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ (الطلاق7)، ولقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم الحاكم فاجتهد فاخطا فله أجر واحد» (12). يقول الشيخ عن المجتهد المخطئ في أصول العقيدة: «يُسْتَرْوَحُ من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ (المؤمنون 117). ولا شك أنّ المجتهد الذي أخطأ في اجتهاده في الأصول يقطع أنه على برهان فيما أدّاه إليه نظره، وإنْ كان ليس ببرهان في نفس الأمر، فقد يعذره الله تعالى لقطعه بذلك عن اجتهاده» (13).

ويقول الأمير عن هذه القاعدة الأساسية في الموقف 121 من كتابه المواقف:"... وقد أنكر عامّة أهل السنة والمعتزلة، غير أهل الكشف، القول بأنّ كلّ مجتهد في الأصول الاعتقادية مصيب، ونسبوه إلى الكفر، وقرره العارفون بالله وهو الحقّ »؛ وفي آخر الموقف 228، قال أنّ مِمّن وافق الحق في هذه المسالة الإمام الغزالي في كتابه «التفرقة بين الإيمان والكفر والزندقة» ومن المعتزلة الجاحظ وأبو الحسين العنبري.

وهذه القاعدة المستندة إلى النقل والعقل والمزيلة لكل تعصب تستلزم القاعدة الثانية:

● **القاعدة الثانية:**

هي مشاهدة الحق تعالى في كل اعتقاد، وهذه من المسائل الدقيقة العويصة التي كررها الشيخ الأكبر في العديد من نصوصه (14)، يقول مثلا: « فالحق عند اعتقاد كل معتقد بعد اجتهاده... كما هو عند ظن عبده به، إلا أن المراتب تتفاضل، والله أوسع وأجل وأعظم أن ينحصر في صفة تضبطه فيكون عند واحد من عباده ولا يكون عند الآخر، يأبى الاتساع الإلهي ذلك، فإن الله يقول: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد 4) ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة 115) ووجه كل شيء حقيقته وذاته، فإنه سبحانه لو كان عند واحد أو مع واحد، ولا يكون عند آخر ولا معه، كان الذي ليس هو عنده ولا معه يعبد وهمه لا ربه، والله يقول: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء 23) أي حكم، ومن أجله عبدت الآلهة؛ فلم يكن المقصود بعبادة كل عابد إلا الله، فما عبد شيء لعينه إلا الله، وإنما أخطأ المشرك حيث نصب لنفسه عبادة بطريق خاص لم يشرع له من جانب الحق فشقي لذلك، فإنهم قالوا في الشركاء: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الزمر 3) فاعترفوا به. وما يتصور في العالم مِن أدنى من له مسكة من عقل التعطيل على الإطلاق، وإنما معتقد التعطيل إنما يعطل صفةً ما اعتقدها المثبت» (15).

وقد عبر الأمير عن هذا المعنى في العديد من مواقفه؛ مثلا في الموقف 246 الذي افتتحه بالآية 46 من سورة العنكبوت: ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا

وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾، يقول ما خلاصته: «فإلٰهنا وإلٰه كل طائفة من الطوائف المخالفة لنا واحد وحدة حقيقية، وإن تباينت تجلياته ما بين إطلاق وتقييد وتنزيه وتشبيه، وتنوعت ظهوراته؛ فظهر للمحمديين مطلقا عن كل صورة في حال ظهوره في كل صورة من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج، وظهر للنصارى مقيدا بالمسيح والرهبان، ولليهود في عزير والأحبار، وللمجوس في النار، وللثنوية في النور والظلمة، وظهر لكل عابد شيء من ذلك الشيء؛ فما عبد العابدون الصور المقيدة لذاتها، ولكن عبدوا ما تجلى لهم في تلك الصورة من صفات الإلٰه الحق تعالى؛ فالمقصود بالعبادة واحد من جميع العابدين، إلا أن تجليه يتنوع بحسب استعداد المتجلى له، والمتجلي تعالى واحد في كل تنوع وظهور، ما تغير من الأزل إلى الأبد؛ فاتفقت جميع الفرق في المعنى المقصود بالعبادة، فالكل مسلمون للإلٰه الواحد؛ فليس في العالم جاحد للإلٰه مطلق من طبائعي ودهري وغيرهما؛ فالكفر في العالم كله نسبي».

وفي أبيات من قصيدة في مقدمة المواقف، يعبر الأمير عن هذا المفهوم الواسع الراجع إلى الآيات القرآنية الكثيرة التي تنبه على أن كل الخلق ساجدون لله تعالى طوعا وكرها ومسبحون بحمده، كقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء 44) وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (النحل 49)، فيقول:

ففي أنا كل ما يأمله الورى ... فمن شاء قرآنا ومن شاء فرقانا
ومن شاء توراة ومن شاء إنجيلا ... ومن شاء مزمارا زابورا وتبيانا

ومعاني هذه الأبيات مطابقة لأبيات أخرى مشهورة للشيخ ابن العربي في ديوانه " ترجمان الأشواق" وهي:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالدين ديني وإيماني

والسؤال الأساسي هنا: هل معنى هذا أن الشيخين يؤمنان بما يدعيه البعض اليوم ويسمونه بوحدة الأديان؟ أي هل يعتقدان بتكافؤ الأديان الناسخة والمنسوخة،

والعقائد الصحيحة القويمة والمنحرفة السقيمة؟

الجواب كلا وحاشاهما، فسيرتهما وأعمالهما وأقوالهما الأخرى كلها تنفي ذلك، وكتبهما مشحونة بالرد على المعتقدات الخاطئة عند بعض الفرق الإسلامية فضلا عن الديانات الأخرى. وإنما كلامهما المذكور وأمثاله تعبير عن شهود القهر الإلهي والإرادة النافذة للحق تعالى في خلقه سعيدهم وشقيهم، فهو الذي خلقهم وما يعملون وما يعتقدون، ونواصيهم بيده تعالى، وهو وحده الهادي وهو المضل وهو جاعل الظلمات والنور؛ لنستمع إلى الشيخ الأكبر وهو يشرح بنفسه في "ذخائر الأعلاق" أبياته السابقة من " ترجمان الأشواق"، يقول ما خلاصته:

«إن في القلب صورة بيت الأوثان، كما كانت الحقائق المطلوبة للبشر قائمة به والتي يعبدون الله من أجلها، فسمى ذلك أوثانا؛ وأن قلبه مجلى لواردات العلوم العيسوية والموسوية من الدين المحمدي القائم على الحب لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران 31)، أي ما ثم دين أعلى من دين قام على المحبة، وهذا مخصوص بالمحمديين، فإن محمدا صلى الله عليه وسلم له من بين سائر الأنبياء المحبة بكاملها، فاتخذه الله محبا ومحبوبا، وورثته على منهاجه».

وقد لخص الشيخ محيي الدين هذه المسألة في قوله:

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا شهدت جميع ما عقدوه (16).

وكثير هم الذين أخطؤوا عند استشهادهم بهذا البيت، فأبدلوا كلمة "شهدت" بكلمة "عقدت"، وفي هذا تحريف واضح للمعنى. فهذا الكلام من الشيخ وأمثاله صادر من شهود القيومية الإلهية التي بها قيام كل شيء، والمشيئة النافذ أمرها في كل مخلوق، إذ هو تعالى الذي شاء وقدر على كل واحد من خلقه أن يعتقد عقيدة حببها له وزينها في قلبه، وهو سبحانه القائل: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝ ﴾ (الانفطار 7 - 8) والقائل: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ (الأنعام 108) ؛ وبالتالي فشهود الحق في كل اعتقاد لا يتناقض مع كون تلك العقائد فيها الهدى والضلال، وما يؤول بصاحبها إلى السعادة أو إلى الشقاء، في مقام العدل الإلهي والحكمة الشرعية، حسبما وضحه الشيخان ابن العربي والأمير في الكثير من نصوصهما. ولهذا أتبع الشيخ

الأكبر ذلك البيت السابق بأبيات أخرى يتناساها ولا يذكرها المنكرون المشنعون عليه، كما يحيد عنها المتهافتون على الدعوة إلى توحيد الأديان الذين يريدون توظيف نصوصه بإخراجها عن سياقها الصحيح، ومنها:

قد أعذر الشرع الموحد وحده ... والمشركون شقوا وإن عبدوه

وكذلك أهل الشك أخسر منهم ... والجاحدون وجود من وجدوه

والقائلون بنفيه أيضا شقوا ... مثل الثلاثة حين لم يجدوه

أجنى عليهم من تأله حينما ... أهل السعادة بالهدى عبدوه (16)

خلاصة القول في هذه المسألة الشائكة أنه ينبغي التمييز الواضح بين نظرية تكافؤ كل الأديان، وهو ما لا يقول به مسلم ولا متدين بدين آخر، ونظرية قبول الله تعالى لعبده المجتهد والباذل وسعه في طلب الحق ورضوانه، فهو مأجور إن أصاب ومعذور إن أخطأ، سواء في الأصول والفروع، وهو ما يقول به الشيخان وأمثالهما من العارفين الواقفين مع صريح الآيات القرآنية.

* **القاعدة الثالثة:**

وهي ضرورة حماية حرية العقيدة التي هي من أهم أسس الإسلام، كما هو واضح في غاية الجلاء في الكثير من آيات القرآن، كقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة 256)، وقوله: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ ﴾ (الحج 67)، وقوله: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖ ﴾ (البقرة 145)، وقوله: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ (الكهف 29)، وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس 99)؛ ويذهب الشيخ محيي الدين إلى ما لا يوافقه عليه أغلب الفقهاء، وهو أنّ الإسلام يقر ما هم عليه أهل الكتاب ماداموا يعطون الجزية، فيقول: «وأما نسخ الله بشرعه جميع الشرائع فلا يخرج هذا النسخ الشرائع من أن تكون من شرعه (...) على أنه لا حكم لأحد اليوم من الأنبياء عليهم السلام مع وجود ما قرره صلى الله عليه وسلم في شرعه، ويدخل في ذلك ما هم عليه أهل الذمة من أهل الكتاب ماداموا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن حكم

الشرع على الأحوال» (17).ويعني ماهم عليه مما بقي صحيحا سويا من الدين الاصلي الاول الذي جاء به نبيهم، لا ما ابتدعوه من عقائد منحرفة وعبادات بدعية.

ويلوم الشيخ بعض المتشددين الذين يريدون حصر الرحمة الإلٰهية في شكل اعتقادهم الخاص، رغم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة 62) ؛ ففي سياق كلامه عن الآية 118 من سورة " المؤمنون ": ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ يقول ما خلاصته: «أمر نبيه أن يقول: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ ﴾ هذه الفرق التي وفت النظر استطاعتها التي آتيتها فلم تصل إلا إلى التعطيل أو الشرك، ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فإنهم ما تعدوا ما آتاهم الله، فشفع هنا فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث لا يشعرون. وما أمره بهذا الدعاء إلا ليجيبه. وهذا الدعاء يعم كل من هو بهذه المثابة من وقت آدم إلى نفخة الصعق. وينبغي لكل منا أن يحضر في نفسه هذه الفرق وكل من له عذر من الأمم في تخلفها عن الحق الذي هو في نفس الأمر، عندما يقول: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، فإن الله تعالى يضرب له بسهم في هذه الشفاعة، فلا تغفل يا وليي عن حظك منها، ولا تكن ممن غلب اليبس عليه فحجر أن تصيب إلا المؤمن، ولم يفرق بين من يأخذها وتتناوله بطريق الوجوب ممن تتناوله من عين المنة» (18).

وفي هذا السياق يقول الأمير في إحدى رسائله: «إن تطبيق التسامح يتمثل في عدم إكراه أي مؤمن بدين على ترك دينه، وكل الشرائع الإلٰهية سواء الإسلام وغيره متفقة في هذه المسألة» (19). ومن المشهور الموقف الشجاع للأمير حين تزعم المهاجرين الجزائريين في الشام لإنقاذ ما يربو على اثني عشر ألف مسيحي في الفتنة التي اشتعلت بين الدروز والنصارى عام 1860، مطبقا الحديث النبوي الشريف: (ألا من ظلم معاهدا أو ذميا أو أحدا من أهل الكتاب، أو كلفه فوق طاقته، أو أنقصه شيئا من حقه، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه، فأنا خصمه يوم القيامة) (20)؛ وفي هذه الواقعة كاتبه أسقف الجزائر " بافي " شاكرا صنيعه، فيجيبه الأمير

برسالة يقول فيها ما خلاصته: «ما فعلنا من خير للمسيحيين ما هو إلا تطبيق لشرع الإسلام واحترام لحقوق الإنسانية، لأن كل الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. إن كل الأديان من آدم إلى محمد عليهما السلام تعتمد على مبدأين: تعظيم الله جل جلاله والرحمة بمخلوقاته. والشريعة المحمدية هي من بين كل الشرائع التي تعطي أكبر أهمية للاحترام والرحمة والرأفة وكل ما يعزز التآلف وينبذ التخالف؛ لكن المنتسبين للدين المحمدي ضيعوه، فجزاؤهم من جنس عملهم» (21).

وإنه لمن النبل المجيد أن نرى عملاقا آخر في الجهاد دفاعا عن وطنه، ويشبه كثيرا الأمير عبد القادر في سيرته وشخصيته ومراحل حياته، وهو إمام الطريقة النقشبندية الشيخ شاميل (1799 - 1871) الذي قاد الجهاد ضد الروس دفاعا عن بلده القفقاز نحو الثلاثين سنة، ثم سجن، وسعى الأمير في سراحه إلى أن تحقق، نراه وهو معتقل عند النصارى الروس الذين دمروا بلاده ونكلوا بأهلها أبشع تنكيل، يسارع إلى إرسال رسالة إلى الأمير يهنئه ويشكره على دفاعه عن نصارى الشام لما ظلموا، ويذكر له الحديث الشريف السابق. ويجيبه الأمير بجواب، من جملة ما يقول فيه: [... فإنه وصلني الأعز كتابكم، وسرّني الألذ خطابكم، والذي بلغكم عنا، ورضيتم به منا، من حماية أهل الذمة والعهد، والذب على أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد، هو - كما في كريم علمكم - مقتضى أوامر الشريعة السنية والمروءة الإنسانية، فإن شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق، فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة للائتلاف (...) والبغي في كل الملل مذموم، ومرتعه وخيم ومرتكبه ملوم (...) فإناً لله وإنا إليه راجعون على فقد أهل الدين، وقلّة الناصر للحق والمعين، حتى صار يظن من لا علم له أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة. فصبر جميل والله المستعان...] (22).

*** وأما القاعدة الرابعة:**

وهي نتيجة تستلزمها القواعد الثلاثة السابقة، ومرجعها لخطاب الله تعالى لجميع الناس - لا المؤمن فقط -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات 13)؛ أي أن اختلاف الأمم في نحلهم ومللهم ومعاشاتهم ينبغي أن يكون حافزا لتلاقح

المعارف وتكامل المصالح بالمعروف لا للتنازع. والقرآن يوضح أن الإسلام دين السلام، وأن أفضل المعاملات مع الأعداء ليس الصراع وإنما حسن العلاقة، فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ ﴾ (فصلت 34 - 35) ؛ ويأمر بانتقاء أفضل الأساليب الطيبة مع جميع الناس فيقول: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الإسراء 53) ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت 46). ولهذا فالحرب في الإسلام لا تكون مشروعة إلا في حالة الدفاع عن النفس، ولا يكون هدفها إلا إحقاق الحق واستتباب السلام وهيمنة الأمن، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ (الممتحنة 8) فأنظر كيف قدم البر على القسط حتى مع أهل الملل الأخرى؛ بل جعل قتل نفس واحدة ظلما مكافئا لقتل جميع الناس، فقال: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة 32).

ومن هذه الأصول يتكلم الشيخ عن كرامة الإنسان من حيث إنسانيته مطلقا، فيقول في فص يونس الثامن عشر من كتابه " فصوص الحكم ":

«اعلم أن هذه النشأة الإنسانية بكمالها روحا وجسما ونفسا خلقها الله على صورته، فلا يتولى حل نظامها إلا من خلقها، إما بيديه - وليس إلا ذلك أو بأمره. ومن تولاها بغير أمر الله فقد ظلم نفسه وتعدى حد الله فيها وسعى في خراب من أمره الله بعمارته. واعلم أن الشفقة على عباد الله أحق بالرعاية من الغيرة في الله. أراد داود بنيان بيت المقدس فبناه مرارا، فكلما فرغ منه تهدم، فشكى ذلك إلى الله، فأوحى الله إليه أن بيتي هذا لا يقوم على يدَي من سفك الدماء، فقال داود يا رب ألم يكن ذلك في سبيلك؟ قال بلى! ولكنهم أليسوا عبادي؟ قال يا رب فاجعل بنيانهم على يدَي من هو مني، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنيه. فالغرض من هذه الحكاية مراعاة النشأة الإنسانية، وأن إقامتها أولى من هدمها. ألا ترى عدو الدين قد فرض الله في حقهم الجزية والصلح إبقاء عليهم وقال: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ

لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال 61). ألا ترى أن من وجب عليه القصاص كيف شُرع لولي الدم أخذُ الفدية أو العفو، فإن أبى حينئذ يقتل؟ ألا تراه سبحانه إذا كان أولياء الدم جماعة فرضي واحد بالدية أو عفا، وباقي الأولياء لا يريدون إلا القتل، كيف يراعَى من عفا ويُرجح على من لم يعف فلا يقتل قصاصا؟.. ألا تراه يقول: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى 40) فجعل القصاص سيئة، أي يسوء ذلك الفعل مع كونه مشروعا؛ ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لأنه على صورته؛ فمن عفا عنه ولم يقتله فأجره على من هو على صورته لأنه أحق به إذ أنشأه له، وما ظهر بالاسم الظاهر إلا بوجوده؛ فمن راعاه إنما يراعي الحق. وما يذم الإنسان لعينه، وإنما يذم الفعل منه، وفعله ليس عينه، وكلامنا في عينه... فلا مذموم إلا ما ذمه الشرع، فإنّ ذم الشرع لحكمة يعلمها الله أو من أعلمه الله. كما شرع القصاص للمصلحة إبقاء لهذا النوع وإرداعا للمعتدي حدود الله فيه ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة 179)... وإذا علمت أن الله راعى هذه النشأة وإقامتها فأنت أولى بمراعاتها إذ لك بذلك السعادة، فإنه مادام الإنسان حيا، يرجى له تحصيل صفة الكمال الذي خلق له، ومن سعى في هدمه فقد سعى في منع وصوله لما خلق له؛ وما أحسن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بما هو خير لكم وأفضل من أن تلقوا عدوكم فتضربوا رقابهم ويضربون رقابكم؟ ذكر الله)، وذلك أنه لا يعلم قدر هذه النشأة الإنسانية إلا من ذكر الله الذكر المطلوب منه، فإنه تعالى جليس من ذكره، والجليس مشهود للذاكر.».

وفي هذا السياق، يطنب الأمير - وهو المجاهد المغوار دفاعا عن بلاده - في العديد من مواقفه في بيان أن الجهاد الأكبر هو جهاد هوى النفس الأمارة بالسوء بتحليتها بالفضائل النافعة وفي مقدمتها الرحمة بجميع الخلق؛ فلنستمع إليه في الموقف 73 وهو يشرح قول النبي عليه الصلاة والسلام: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) (23):

«إنه عليه الصلاة والسلام - سمىّ جهاد الكفار أصغر، لكون جهاد الكفار وقتلهم ليس مقصودا للشرع بالذات؛ إذ ليس المقصود من الجهاد إهلاك مخلوقات الله وإعدامهم وهدم بنيان الرّب - تعالى - وتخريب بلاده، فإنه ضدّ

الحكمة الإلٰهية؛ فإن الحق - تعالى - ما خلق شيئا في السماوات والأرض وفي ما بينهما عبثا. وما خلق الجن ولإنس إلاّ لعبادته، وهم عابدون له، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله. وإنما مقصود الشارع دفع شر الكفار وقطع أذاهم عن المسلمين، لأن شوكة الكفار إذا قويت أضرت بالمسلمين في دينهم ودنياهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج 40) ؛ فلو فرض انه لا يلحق المسلمين أذى من الكافرين، ما أبيح قتلهم، فضلا عن التقرب به إلى الله تعالى، بخلاف جهاد النفس وتزكيتها، فإنّه مقصود لذاته، إذ في جهادها تزكيتها وفي تزكيتها فلاحها ومعرفة ربها. والمعرفة هي المقصودة بالحب الإلٰهي في الإيجاد (...) ولا ريب أن المقصود لذاته أكبر من المقصود لغيره».

ومن الخطأ الكبير الذي وقع فيه بعض المعادين للتصوف اعتبار هذا الموقف اتجاه الحرب تهوينا لفريضة الجهاد عندما تفرضه الظروف بشروطه، إذ لا حاجة للتذكير بجهاد الأمير، وبغيره من الصوفية في تاريخ الإسلام، والشيخ الأكبر نفسه كان مستشارا لأشهر ملوك الإسلام في وقته في المغرب والمشرق الذين جاهدوا الصليبيين، كما هو معروف للمطلعين على سيرته (24).

إن هذه المفاهيم السامية الواسعة لحقائق الإسلام التي عبر عنها الشيخ الأكبر والأمير عبد القادر بأوضح كيفية، هي التي نجدها عند جل الصوفية بكيفيات يزداد جلاؤها أو ينقص، واختصروها في قولهم: «عموم الشريعة أنا أنا وأنت أنت، وطريقتها أنا أنت وأنت أنا، وحقيقتها لا أنا ولا أنت بل هو»؛ وفي سيرة أئمتهم تجسيد لهذا القول، فمن المشهور مثلا في سيرة الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت: 561 هـ) قوله: «فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، ولا أشرف من الخلق الحسن. أودّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمها الجائع. لو جاءني ألف دينار لم تبت عندي».

ومن المعلوم في سيرة إمام الطريقة المولوية جلال الدين الرومي (ت: 672) أنه لما خرجت جنازته ازدحم عليها أهل بلده، وشيعها حتى النصارى واليهود وهم يتلون الإنجيل والتوراة، وكان المسلمون ينحونهم فلا يتنحون، وبلغ ذلك حاكم البلد قونيه، فقال لرهبانهم: مالكم ولجنازة عالم مسلم فأجابوه: «به عرفنا حقيقة الأنبياء

السابقين، وفيه رأينا سيرة الأولياء الكاملين».

نموذج آخر نجده في سيرة الشيخ العربي الدرقاوي (ت: 1239هـ) إمام الدرقاوية الشاذلية، وهي الطريقة التي ختم بها الأمير تربيته الصوفية لما انخرط فيها وعمره 55 سنة على يد شيخه ومربيه الشيخ محمد الفاسي بمكة المكرمة. يقول أحد تلاميذه الشيخ أبو زيان الغريسي - وهو من علماء منطقة معسكر -: «سمعته أي الشيخ العربي الدرقاوي - رضي الله عنه - يقول: منذ سبعة أيام وأنا مريض من أجل بعض اليهود باتوا بزاويتنا ضيوفا وأطعمناهم ونسيت أن نهيء لهم موضعا يرقدون فيه، وكانت الليلة باردة. وكان يقول: يهون علي أن تقطع رقبتي ولا أن أغضب مسلما» (25).

هذه المفاهيم وهذه الأخلاق هي التي جعلت الإسلام الدين العالمي بحق، مصداقا لقول الحق تعالى لمن أرسله رحمة للعالمين: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف 158)، لأن دينه دين الحب الذي قال عنه الشيخ الأكبر:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالدين د يني وإيماني

وهو القائل أيضا:

رأى البرق شرقيا فحنّ إلى الشرق ولو لاح غربيا لحنّ إلى الغرب

فإن غرامي بالبُرَيق ولمحه وليس غرامي بالأماكن والترب

مراجع

فتوحات: ج1 باب 10 ص135؛ ينظر أيضا الباب 36 ص225.

(1) (18) الفتوحات: جكتاب اصطلاح الصوفية، رسائل بن عربي، دارا لكتب العلمية، بيروت 1421 هـ، ص. 417، 416

(2) المرجع السابق، ص. من 107 إلى 114.

(3) ينظر تفصيل هذا المعنى في الباب 471 من الفتوحات المكية لابن العربي، وفيه كلام عن هوية العبد (ج4 ص. 103). وينظر أيضا كلامه عن هوية الحق في الأبواب: 411، 414، 492، إلخ... وعن " هوية أحدية" قي الباب 420، وفي كتابه " فصوص الحكم": فص نوح الثالث، وفص شعيب الثاني عشر وفص عيسى الخامس عسر، وفص سليمان السادس عشر، وآخر فص أيوب التاسع عشر.

(4) كلام الشيخ محيي الدين حول هذا الحديث ينظر في الفتوحات الأبواب: 35 /368/317/178

(5) الفتوحات المكية، آخر الباب 509، وهو في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ (سبأ: 39).

(6) الحديث " إن الله جميل يحب الجمال " رواه مسلم في صحيحه. كلام الشيخ محيي الدين حوله ينظر في الفتوحات الأبواب: 72/12: فصل غسل المحرم رأسه بالخطمي - فصل اختضاب المرأة بالحناء ليلة إحرامها/73: جوابه عن السؤال 118 من أسئلة الحكيم الترمذي /آخر الباب 77 / 167حضرة النور الأعظم /178 /558/372/369: حضرة الجمال.

(7) الفتوحات المكية، الباب 73، الجواب عن السؤال 116 من أسئلة الحكيم الترمذي.

(8) الفتوحات المكية، الباب 558، حضرة الجمال.

(9) ينظر مثلا: الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، ج3، باب 366، ص

334 - 335. وتفصيل هذا الموضوع حول المرجعية القرآنية لكتب وسيرة الشيخ الأكبر ينظر: كتاب " ختم القرآن محيي الدين محمد ابن العربي " لعبد الباقي مفتاح، ومقدمة كتاب " مفاتيح فصوص الحكم " لنفس المؤلف.

(10) ينظر مثلا في الفتوحات: ج 1 ص 424 - 534 - 536 - 539 - 554 - 564 - 656 / ج2 ص12 - 45 - 76 - 107 - 126 - 148 - 164 - 220 - 244 - 250 - 281 - 408 - 437 - 565 - 662 - 674 / ج3 ص25 - 96 - 100 - 101 - 171 - 172 - 175 - 364 - 383 - 466 - 496 - 532 - 550 / ج4 ص48 - 146 - 153 - 158 - 163 - 200 - 207 - 248 - 270 - 274 - 322 - 324 - 479؛ وفي فصوص الحكم: فصوص هود، إسحاق، شعيب، سليمان، داود، يونس، أيوب، زكريا، محمد؛ وفي المواقف للأمير عبد القادر، المواقف: 11 - 59 - 61 - آخر الموقف 153 - 205 - 228 - 250 - 297 - 298 الفصل 14 - 314.

(11) وفي رواية (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) رواه البخاري، وأخرجه أحمد والبيهقي وابن أبي شيبة والحاكم في " المستدرك".

(12) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(13) الفتوحات، ج2 باب 280 ص 612؛ كرر الشيخ هذا المعنى مستندا إلى الآية 117 من سورة " المؤمنون ": ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾؛ ينظر في الفتوحات الأبواب: 31 / 43 / 69 فصل في وصل في القبلة / 198 التوحيد العاشر - التوحيد الرابع عشر - الفصل 19 - الفصل 50 / 313 / 325 / 360 / 363؛ وكون المجتهد معذور حتى إن أخطأ في الأصول، ينظر في المواقف الموقف 121 والموقف 228.

(14) حول مشاهدة الحق في كل اعتقاد ينظر:

- في الفتوحات: ج 1 باب 69 ص 405 - باب 70 ص 589 / ج 2 باب 73 ص85، 92 - باب 127 ص212 - باب 178 ص 326 - باب 210 ص498 / ج3 باب 335 ص132 / ج4 باب 469 ص100 - باب 470 ص101 - باب 559 ص415.....

- في الفصوص: فص إدريس الرابع، فص إسماعيل السابع، فص هود العاشر، فص شعيب الثاني عشر، فص هارون الرابع والعشرون، فص محمد

السابع والعشرون.

- وفي المواقف: المواقف 246، 245، 308، 358.

(15) الفتوحات: ج1 باب69 ص405.

(16) الفتوحات: ج3 باب335 ص132.

(17) ال3 باب 360 ص285.

(19) برونو إيتيان، عبد القادر برزخ البرازخ، ط. هاشيت 2003، ص361.

(20) الحديث رواه أبو داود والبيهقي، وله شواهد أخرى.

(21) مجلة مسالك، العدد الثاني، جوان - جويلية 1998، ص21؛ والحديث الذي أورده " الخلق عيال الله... " رواه أبو يعلى والبيهقي والطبراني في المعجم الكبير وأبو نعيم في الحلية، وقال البعض بضعف سنده.

(22) الأمير محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، الإسكندرية 1903 - ج 2 - ص114 - 115 - / حول العلاقات والمقارنات بين الأمير عبد القادر والإمام شاميل ينظر كتاب السائح بوعلام بالفرنسية: "الأمير عبد القادر والإمام شاميل".

(23) الحديث رواه البيهقي والخطيب البغدادي في تاريخه، وقال البعض بضعف سنده.

(24) في هذا الموضوع ينظر كتاب عبد الباقي مفتاح، " ختم القرآن محيي الدين محمد بن العربي"، باب " الشيخ والحكام".

(25) أبو زيان الغريسي، " زمزم الأسرار في مناقب مولاي العربي الدرقاوي وبعض أصحابه الأخيار"، مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط رقم: 2339 - ص: - 5

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

شرح الحوار بين ابن العربي وابن رشد

يرجع تاريخ اللقاء والحوار بين ابن العربي (560 - 638 هـ) وابن رشد (520 - 595هـ) إلى ما بين سنتي 576 و578 هـ وسن ابن العربي حينذاك حوالي 17 سنة بينما سن ابن رشد حوالي 57 سنة، بعد تأليفه لكتاب (الكشف عن مناهج الأدلة) بنحو 3 سنوات.

وسبب هذا اللقاء هو الصداقة التي كانت بين ابن رشد وعلي ابن العربي والد محيي الدين - الذي توفي حوالي 590هـ أي 5 سنوات قبل وفاة ابن رشد - لعلاقتهما الممتازة المشتركة بالخليفة ألموحدي الرابع أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الذي تولى الخلافة سنة 558 هـ وتوفي سنة 580هـ.

وقد أورد ابن العربي هذا الحوار في الباب 15 من كتابه (الفتوحات المكية) وعنوانه: [في معرفة الأنفاس ومعرفة أقطابها المحققين بها وأسرارهم.]، وذلك في سياق حديثه عن من سماه ب ((مداوي الكلوم)) وهو قطب يدور عليه فلك العارفين من رجال الأنفاس وإمام يقوم به ملكهم. وفصل بعض علومه، فمنها: علم الدهر الأول الذي عنه تكونت الدهور، وعلم الكيمياء والفلك وإحياء الموات والتناسب بين الإنسان والعالم، ثم أورد نص الحوار الذي سنذكره بتمامه.

والغرض من هذا المقال هو محاولة شرح مفصل لهذا الحوار الذي يبدو غامضا للكثير من المطالعين، وبيان أن مداره حول مسألتين:

- مسألة مناهج المعرفة بين الإيمان والكشف من جهة، والفكر والمنطق البرهاني من جهة أخرى.
- مسألة المعاد والحشر الجسماني في الآخرة.

. ففي ماذا يتفق أو يختلف الرجلان؟

. وما معني قول ابن عربي: (نعم لا. وبين نعم ولا تطير الأرواح

من أجسادها).

- ومن هو مداوي الكلوم؟ ولماذا ورد هذا الحوار مع ابن رشد في سياق الكلام عن علومه؟

- وما هي المرجعية القرآنية للباب 15 الذي ورد فيه هذا الحوار؟

نص الحوار: يقول ابن العربي

وعن هذا القطب (أي مداوي الكلوم) خرج علم العالم وكونه إنسانا كبيرا، وأن الإنسان مختصره في الجرمية مضاهيه في المعني. فأخبرني الروح الذي أخذت منه ما أودعته في هذا ألكتاب أنه جمع أصحابه يوما في دسكرة وقام فيهم خطيبا وكانت عليه مهابة فقال: افهموا عني ما أرمزه لكم في مقامي هذا وفكروا فيه واستخرجوا كنزه واتساع زمانه في أي عالم هو، وإني لكم ناصح، وما كل ما يدرى يذاع، فإنه لكل علم أهل يختص بهم، وما يتمكن الانفراد ولا يسع الوقت، فلا بد أن يكون في الجمع فطر مختلفة وأذهان غير مؤتلفة، والمقصود من الجماعة واحد إياه أقصد بكلامي وبيده مفتاح رمزي، ولكل مقام مقال، ولكل علم رجال، ولكل وارد حال، فافهموا عني ما أقول وعوا ما تسمعون، فبنور النور أقسمت وبروح الحياة وحياة الروح آليت أني عنكم لمنقلب من حيث جئت، وراجع إلى الأصل الذي عنه وجدت، فقد طال مكثي في هذه الظلمة، وضاق نفسي بترادف هذه الغمة، وإني سالت الرحلة عنكم وقد أذن لي في الرحيل فاثبتوا على كلامي فتعقلون ما أقول بعد انقضاء سنين عينها وذكر عددها، فلا تبرحوا حتى آتيكم بعد هذه المدة، وإن برحتم فلتسرعوا إلى هذا المجلس الكرة. وإن لطف مغناه وغلب على الحرف معناه فالحقيقة الحقيقة، والطريقة الطريقة، فقد اشتركت الجنة والدنيا في اللبن والبناء، وإن كانت الواحدة من طين وتبن والأخرى من عسجد ولجين. هذا ما كان من وصيته لبنيه. وهذه مسالة عظيمة رمزها وراح، فمن عرفها استراح.

ولقد دخلت يوما بقرطبة على قاضيها أبي الوليد ابن رشد وكان يرغب في لقائي لما سمع وبلغه ما فتح الله به علي في خلوتي، فكان يظهر التعجب مما سمع، فبعثني والدي إليه في حاجة قصدا منه حتى يجتمع بي، فإنه كان من أصدقائه وأنا صبي ما بقل وجهي ولا طر شاربي، فعندما دخلت عليه قام من مكانه إلي محبة وإعظاما فعانقني وقال لي: نعم، قلت له: نعم، فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم إني

استشعرت بما أفرحه من ذلك فقلت له: لا، فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلٰهي هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت له: نعم لا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها، فاصفر لونه وأخذه الأفكل وقعد يحوقل، وعرف ما أشرت به إليه وهو عين هذه المسالة التي ذكرها هذا القطب الإمام أعني مداوي الكلوم، وطلب بعد ذلك من أبي الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا هل هو يوافق أو يخالف؟ فإنه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي، فشكر الله تعالى الذي كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة، وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أربابا، فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغالق أبوابها، والحمد لله الذي خصني برؤيته. ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية فأقيم لي رحمه الله في الواقعة في صورة ضرب بيني وبينه فيها حجاب رقيق أنظر إليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني وقد شغل بنفسه عني، فقلت: إنه غير مراد لما نحن عليه. فما اجتمعت به حتى درج وذلك سنة 595هـ بمدينة مراكش ونقل إلى قرطبة وبها قبره، ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تواليفه تعادله من الجانب الآخر وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبير كاتب السيد أبي سعيد وصاحبي أبو الحكم عمرو بن السراج الناسخ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى ما يعادل الإمام ابن رشد في مر كوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله يعني تواليفه، فقال له ابن جبير: يا ولدي نعم ما نظرت لا فض فوك. فقيدتها عندي موعظة وتذكرة، رحم الله جميعهم، وما بقي من تلك الجماعة غيري، وقلنا في ذلك:

هـــذا الإمـــام وهـــذه أعمالـــه يـا لـيت شـعري هـل أتـت آمالـه

ما هي طرق المعرفة بالله تعالى عند ابن العربي؟

في كثير من مكتوباته يفصل الشيخ الأكبر نوعين من طرق المعرفة بالله تعالى. النوع الاول: طريق المعرفة الشرعية الايمانية وما تثمره من معرفة كشفية ذوقية عند الخاصة من العارفين بالله تعالى.

النوع الثاني: المعرفة الفكرية البرهانية التي يتبعها الفلاسفة وعلماء المنطق والكلام.

والحكيم الإلٰهي - كما وصف الشيخ به أفلاطون (1) - هو الذي يجمع بين النوعين من المعرفة بعلومها الأربعة: الإلٰهي والمنطقي والرياضي والطبيعي (2). فمداوي الكلوم قطب الباب 15 من الفتوحات في معرفة الأنفاس هو النموذج الكامل للحكيم الإلٰهي. وفي سياق الحديث عن علومه أورد الشيخ حواره مع ابن رشد كنموذج للفيلسوف صاحب المعرفة العقلية والنظر الفكري.

يقول الشيخ: [والطريق الموصلة إلى العلم بالله طريقان لا ثالث لهما. ومن وحد الله من غير هذين الطريقين فهو مقلد في توحيده. الطريق الواحدة: طريق الكشف وهو علم ضروري يحصل عند الكشف يجده الإنسان في نفسه لا يقبل معه شبهة ولا يقدر على دفعه، ولا يعرف لذلك دليلا يستند إليه سوى ما يجده في نفسه. إلا أن بعضهم قد يعطى الدليل والمدلول في كشفه. فإنه ما لا يعرف إلا بالدليل فلا بد أن يكشف له عن الدليل... وإما أن يحصل له عن تجل الهي يحصل له وهم الرسل والأنبياء وبعض الأولياء.

والطريق الثاني: طريق الفكر والاستدلال بالبرهان العقلي. وهذا الطريق دون الطريق الأول، فإن صاحب النظر في الدليل قد تدخل عليه الشبهة القادحة في دليله فيتكلف الكشف عنها والبحث عن وجه الحق في الأمر المطلوب](3).

وفي كتابه (الوصايا) (4) يوصي الشيخ بالجمع بين الطريقتين لكن كلا على حدة فيقول: [الذي أوصيك به أيها الأخ الإلٰهي - أيدك الله بروح منه حتى تخبر به عنه - أن تعرف الحق سبحانه وتعالى من حيث ما أخبرك به عن نفسه أنه عليه، مع اعتمادك على ما اقتضاه البرهان الوجودي مما ينبغي أن يكون الحق عليه سبحانه من التنزيه والتقديس، فتجمع بين العلم الذي أعطاك الإيمان وبين العلم الذي اقتضاه الدليل العقلي، ولا تطلب الجمع بين الطريقين. بل خذ كل طريقة على انفرادها. واجعل الإيمان لقلبك بما أعطاك من معرفة الله بمنزلة البصر لحسك بما أعطاك من معرفة ما تقتضيه حقيقته. واحذر أن تصرف نظرك الفكري فيما أعطاكه الإيمان فتحرم عين اليقين. فإن الله أوسع من أن يقيده عقل عن إيمان أو إيمان عن عقل، وإن كان نور الإيمان يشهد العقل من حيث ما أعطاه فكره بصحة ما أعطاه من

السلوب (يعني الشيخ بالسلوب نعوت تنزيه الحق تعالى). ولا يشهد نور العقل من حيث فكره بصحة ما أعطاه نور الإيمان والكشف. لكن نور العقل به يكون القبول الخارج عن الفكر ويشهد بصحة ما أعطاه الكشف والإيمان:

للشرع نور وللألباب ميزان والشرع للعقل تأييد وسلطان
والكشف نور ولكن ليس تدركه إلا عقول لها في الوزن رجحان]

وفي كتاب (المسائل) (5) يزيد الشيخ هذا المعني بيانا فيقول: [للعقل نور وللإيمان نور. فبنور العقل يصل إلى معرفة وجود الله تعالى وكونه قادرا سميعا عالما مريدا إلى غير ذلك مما يجب للألوهية وما يجوز عليها وما يستحيل. وبنور الإيمان يعرف ذات الحق وما وصف به مما يقتضي التشبيه والتنزيه، فيأخذها مشاهدة، وهذه درجة الأنبياء والأولياء. كما أن للعقل حد وللإيمان حد. فحد العقل يوصله إلى التدبير في أسبابه ومصالح وجوده بحسب ما يقتضيه نظره من العادة. وحد الإيمان خرق العادات عنده لتخرق العادات له (6) فيجد اللذة في العذاب والألم في النعيم وشبهه. وعلى حد العقل تجري أمور العقلاء من الخلق. وعلى حد الإيمان تجري أمور بعض المنتمين إلى الله تعالى أصحاب الأحوال والأوامر الإلٰهية والخواطر المستقيمة الربانية].

وقد قارن الشيخ بكيفية رائعة ومفصلة في الباب 167 من الفتوحات في معرفة كيمياء السعادة بين المعارف التي ينالها الفيلسوف في معراجه بالفكر والمعارف التي يتحقق بها المؤمن السالك التابع للنبي المشرع في معراجه بالروح والهمة.

وكتاب الفتوحات المكية وغيرها من كتب الشيخ نموذج كامل لمثل هذه المعرفة الإيمانية الكشفية. وخصص الباب 177 من الفتوحات إلى معرفة مقام المعرفة، وهو من أطول وأروع أبواب الفتوحات، وفيه بين أن المعرفة التامة منحصرة في العلم بسبعة أشياء هي: العلم بالأسماء الإلٰهية، والعلم بتجلي الحق في الأشياء، والعلم بخطاب الحق عباده المكلفين بالسنة الشرائع، وعلم الكمال والنقص في الوجود، وعلم الإنسان نفسه من جهة حقائقه، وعلم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل، وعلم الأدوية والعلل.

وفي بداية رسالته إلى إمام الأشاعرة فخر الدين محمد بن عمر الخطيب

الرازي (ت606هـ) يفصل ابن العربي الفرقان بين علوم الفكر وعلوم الإيمان فيقول (7): [... فالعقول تعرف الله من حيث كونه موجودا ومن حيث السلب لا من حيث الإثبات، وهذا خلاف الجماعة من العقلاء والمتكلمين إلا سيدنا أبا حامد قدس الله روحه فإنه معنا في هذه القضية. ويجل الله أن يعرفه العقل بفكره ونظره. فينبغي للعاقل أن يخلي قلبه من الفكر إذا أراد معرفة الله تعالى من حيث المشاهدة. وينبغي للعالي الهمة أن لا يكون تلقيه عند هذا من عالم الخيال وهي الأنوار المتجسدة الدالة على معان وراءها، فإن الخيال ينزل المعاني العقلية في القوالب الحسية كالعلم في صورة اللبن، والقرآن في صورة الحبل، والدين في صورة القيد. وينبغي للعالي الهمة أن لا يكون معلمه وشاهده مؤنثا متعلقا بالأخذ من النفس الكلية. كما لا ينبغي له أن يتعلق بالأخذ عن فقير أصلا، وكل من لا كمال له إلا بغيره فهو فقير. فهذا حال كل ما سوى الله تعالى. فارفع الهمة في أن لا تأخذ علما إلا من الله تعالى على الكشف. فإن عند المحققين أن لا فاعل إلا الله. فإذن لا يأخذون إلا عن الله. وما فاز أهل الله إلا بالوصول إلى عين اليقين أنفة من بقاء مع علم اليقين. واعلم أن أهل الأفكار إذا بلغوا فيها الغاية القصوى أداهم فكرهم إلى حال المقلد المصمم (أي مقلد الرسول المشرع) فإن الأمر أعظم من أن يقف فيه الفكر. فما دام الفكر موجودا فمن المحال أن يطمئن ويسكن. فللعقول حد تقف عنده من حيث قوتها في التصرف الفكري، ولها صفة القبول لما يهبه الله تعالى. فإذن ينبغي للعاقل أن يتعرض لنفحات الجود، ولا يبقي مأسورا في قيد نظره وكسبه، فإنه على شبهة من ذلك. ولقد أخبرني من أثق به من إخوانك وممن له فيك نية حسنة جميلة أنه رآك وقد بكيت يوما، فسالك هو ومن حضر عن بكائك. قلت مسألة اعتقدتها منذ ثلاثين سنة تبين لي في الساعة بدليل لاح لي أن الأمر بخلاف ما كان عندي فبكيت وقلت ولعل الذي لاح أيضا يكون مثل الأول. فهذا قولك. ومن المحال على العارف بمرتبة العقل والفكر أن يسكن أو يستريح ولا سيما في معرفة الله تعالى، ومن المحال أن تعرف ماهيته بطريق النظر. فمالك يا أخي تبقي في هذه الورطة ولا تدخل طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنال ما نال من قال فيه سبحانه وتعالى:﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾. ومثلك من يتعرض لهذه الخطة الشريفة والمرتبة

العظيمة الرفيعة].

إذن فالشيخ يحذر من استعمال الفكر في الإلٰهيات والغيبيات ويرجح طريق الإيمان والكشف. ويؤكد هذا المعني فيقول في الباب 226 من الفتوحات: [... ونمنع من الفكر جملة واحدة لأنه يورث صاحبه التلبيس وعدم الصدق. وما ثم شيء إلا ويجوز أن ينال العلم به من طريق الكشف والوجود... إن أهل الفكر خطأهم في الإلٰهيات أكثر من إصابتهم سواء كان فيلسوفا أو معتز ليا أو أشعريا أو ما كان من أصناف أهل النظر. فما ذمت الفلاسفة لمجرد هذا الاسم وإنما ذموا لما أخطأوا فيه من العلم الإلٰهي مما يعارض ما جأت به الرسل عليهم السلام بحكمهم بما أعطاهم الفكر الفاسد في أصل النبوة والرسالة ولماذا تستند. فتشوش عليهم الأمر. فلو طلبوا الحكمة حين أحبوها من الله لا من طريق الفكر أصابوا في كل شيء. وأما ما عدا ألفلاسفة من أهل النظر من المسلمين كالمعتزلة والأشاعرة فإن الإسلام سبق لهم وحكم عليهم ثم شرعوا في أن يذبوا عنه بحسب ما فهموا منه. فهم مصيبون بالأصالة مخطئون في بعض الفروع بما يتأولونه].

لكن الشيخ يؤكد بان المعارف الإيمانية والكشفية لا تناقض أبدا منطق العقل القويم. يقول في رسالة إلى أحد إخوانه (8): [... اعلم أيدك الله أن الحقائق لا تتبدل، وأن مواجيد الحق لا تزال ترد على قلوب الواجدين وتتنزل، فلو بلغت أقصى ما إليه الانتهاء، وبرزت من خلال حجب العزة والبهاء، لا تزال تحت امكان الأدلة العقلية موجبة لها، أو ساكتة عنها الألسن الشرعية، ولهذا قال الجنيد وغيره من أئمتنا: ((علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)) وما خاطب سبحانه إلا أولي النهى والألباب].

فلا تناقض عند الشيخ بين العقل والكشف والشرع بل بينهم تكامل وتلاقح. والشرع هو المقدم والكشف والعقل تابعان له.

ما هي طرق المعرفة عند ابن رشد؟

بالرجوع إلى كتب ابن رشد مثل ((فصل المقال)) و((مناهج الأدلة)) و((تهافت التهافت)) يتبين أن الطريق الأساسي للمعرفة عنده هو طريق النظر الفكري بالعقل السليم الذي يعتمد على المنطق القويم، إذ بواسطته يعرف صدق الرسول المشرع، وبه يحصل التكليف والإدراك الموضوعي الصحيح للحقائق...

ويعترف ابن رشد بوجود طريق الكشف الصوفي وأهميته في المعرفة، لكن يفضل طريق الفكر لعموم استعمال العقل عند جل الناس، وندرة وجود الكشف إذ لا يحضى به إلا القلة النادرة من العارفين الموهوبين. كما أن ابن رشد يعترف بالسلوك الصوفي في تهذيب الأخلاق وتقويم النفس. يقول في كتابه ((مناهج الأدلة في عقائد الملة)): [... وأما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طرقا نظرية... وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقى في النفس عند تجريدها من العوائق الشهوانية... ونحن نقول أن هذه الطريقة وإن سلمنا وجودها فإنها ليست عامة للناس بما هم ناس. ولو كانت هذه الطريقة هي المقصودة بالناس لبطلت طريقة النظر ولكان وجودها بالناس عبثا، والقرآن كله دعاء إلى النظر والاعتبار، وتنبيه على طريق النظر... ومن هذه الجهة دعا الشرع إلى هذه الطريقة، وحث عليها في جملتها حثا، أعني على العمل، لا على أنها كافية بنفسها كما ظن القوم] (9).

حول طرق المعرفة فيماذا يتفق ابن العربي وابن رشد وفي ماذا يختلفان؟

وما معنى قول ابن عربي لابن رشد: نعم، لا؟

يتفق الاثنان في أن الالتزام بالشريعة عقيدة وعملا هو طريق السعادة الأبدية. وهذا هو الذي جعل الشيخ الأكبر يذكر ابن رشد بالإجلال والتقدير حيث يقول عنه بدون أن يذكر اسمه في الباب 66 من الفتوحات (10): [... ولا أعني بالعقلاء المتكلمين اليوم بالحكمة، وإنما أعني بالعقلاء من كان على طريقتهم من الشغل بنفسه والرياضات والمجاهدات والخلوات والتهيؤ لواردات ما يأتيهم في قلوبهم عند صفائها من العلم العلوي الموحى في السماوات العلى... وقد أدركنا ممن كان على حالهم قليلا، وكانوا أعرف الناس بمقدار الرسل ومن أعظمهم تبعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشدهم محافظة على سننه، عارفين بما ينبغي لجلال الحق من التعظيم، عالمين بما خص الله به عباده من النبيين وأتباعهم من الأولياء من العلم بالله من جهة الفيض الإلٰهي الإختصاصي الخارج عن التعلم المعتاد من الدرس والاجتهاد ما لا يقدر العقل من حيث الفكر أن يصل إليه. ولقد سمعت واحدا من أكابرهم (يعني ابن رشد) وقد رأى ما فتح الله به علي من العلم به سبحانه من غير نظر ولا قراءة بل من خلوة خلوت بها مع الله، ولم أكن من أهل

الطلب فقال: الحمد لله الذي أنا في زمان رأيت فيه من أتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما، فالله يختص من يشاء برحمته والله ذو الفضل العظيم].

فكلام الشيخ هذا مكمل لما ذكره في الباب 15 من الفتوحات حيث ذكر فرح ابن رشد برؤية الصبي العارف محمد بن العربي وعبر عن إعجابه بقوله: [هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أربابا. فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغالق أبوابها. والحمد لله الذي خصني برؤيته].

ويتفق الرجلان أيضا في أن للمعرفة طريقان: طريق الإيمان والكشف وطريق الفكر والمنطق. والكمال هو الأخذ بالطريقين معا، لكن يؤخذ كل طريق على حدة، لأن لكل متهما منهاج وميدان خاص.

أما الاختلاف بين الرجلين فيظهر في أن كلا منهما يفضل منهاجا على الآخر: ابن رشد - رغم اعترافه وإجلاله للكشف - يري أن استعمال الفكر والمنطق أولى بالعناية والاعتبار لعموم استعماله عند كل العقلاء بينما الكشف منحصر في الندر من المحظوظين. وأما ابن العربي - رغم احترامه للفكر والمنطق السليم واعترافه بضرورة استعماله في الأمور الكونية والحسية والمعاشية - فيؤكد على أن المنهاج الإيماني الكشفي، خصوصا في الإلٰهيات وما يتبعها من عقائد، هو الأسلم والأصح والأشر ف، وأن خوض الفكر في غير مجاله يؤدي به إلى متاهات وأخطاء، والواقف معه يفوته الكثير من المعارف الذوقية والعلوم الشهودية.

ومما سبق يفهم جواب ابن العربي بقوله: (نعم. لا). لما سأله ابن رشد:

(كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلٰهي؟) أي: نعم في ما هو محل اتفاق بينهما وهو ضرورة الالتزام الكامل بالشرع، والأخذ بمنهاجي الكشف والفكر كلا على حدة. لكن: لا للفكر والنظر العقلي إذا تطاول للخوض فيما لا يحق له الخوض فيه وهو الإلٰهيات والغيبيات.

وقدأحسن الأستاذ ساعد خميسي في مقال له حول هذا الموضوع (11)

حين قال:

[... ومعني جمعه بين نعم ولا في إجابته: أن العقل يعطي ما يعطيه الكشف ولكن إلى حد ما، وهذا الحد هو نقطة انتهاء مجال العقل ليتحول من أداة فعالة إلى أداة منفعلة مسايرة للكشف نحو المطلق، فتتخلص من قواعد وقوانين العقل كما

تتخلص الأرواح من الأبدان وكل نقص يعيق الوصول إلى الكمال، وهذا ما قصده ابن عربي بطيران الأرواح من المواد والأعناق من الأجساد].

وإنما تطير الأرواح من موادها لترجع إلى أصلها العلوي الرباني وهو ما ذكره القطب مداوي الكلوم لأصحابه حين قال: [... إني عنكم لمنقلب من حيث جئت، وراجع إلى الأصل الذي عنه وجدت...].

وللتماثل بين طيران الأرواح ورجوع مداوي الكلوم إلى أصله قال الشيخ:

[وهو عين هذه المسالة التي ذكرها هذا القطب الإمام أعني مداوي الكلوم].

<u>هل من معنى آخر عند ابن العربي في قوله الجامع بين الضدين: نعم لا؟</u>

في العديد من نصوصه، خصوصا في الفصوص والفتوحات، يقرر الشيخ أن كمال الحق تعالى يتجلى في أنّه هو عين الأضداد كلها، إذ لا وجود ولا ظهور ولا قيام لها إلا به حسبما أخبر عن نفسه بأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن. فالعارف لا يرى شيئا إلا ويرى ضدّه ويرى الله تعالى. ومن كتب الشيخ التي عبّر فيها عن جمع الأضداد في نقطة اعتدال الشهود العرفاني، كتابه (مشاهد الأسرار القدسية). وعنوانه يشير إلى هذه الجمعية حيث يعرف الشيخ في الباب 199من الفتوحات سر العلم فبقول: [سر العلم بالله هو جمع الأضداد بالحكم في العين الواحدة من حيث ما هو منسوب كذا مما له ضد ذلك بعينه ينسب إليه ضدّه]. فكأنّ قول الشيخ: (نعم لا) يشير إلى أنّ كمال المعرفة ليس في شق إثبات (نعم) فقط، ولا في شق نفي (لا) فقط، بل بجمعهما في آن واحد في عين واحدة: إطلاق في تقييد وتقييد في إطلاق، تشبيه في تنزيه وتنزيه في تشبيه، وحدة في كثرة وكثرة في وحدة، وهذا مما لا يعقله العقل إلا بفتح يجعل الأرواح تطير من موادها.

<u>من المسائل الغيبية التي خاض فيها العقل الفلسفي بفكره فتردد وحاروتاه مسألة الحشرالأخروي. هل هو حشر في نشأة حسية عنصرية كما هوالحال في الدنيا؟ أم هو حشر روحاني معقول غير جسدي؟ فماهوموقف ابن العربي وابن رشد في هذه المسالة وما علاقتها بالحوار الذي دار بينها؟</u>

هذه المسالة هي آخر المسائل التي رد فيها الإمام الغزالي (ت: 505 هـ) على الفلاسفة في كتابه «تهافت الفلاسفة» وعنوانها: [مسالة في إبطال إنكارهم

لبعث الأجساد، ورد الأرواح إلى الأبدان، ووجود النار الجسمانية، ووجود الجنة والحور العين، وسائر ما وعد به الناس. وقولهم: إن كل ذلك أمثلة ضربت لعوام الخلق لتفهيم ثواب وعقاب روحانيين، هما أعلا رتبة من الجسمانيين. وهذا مخالف لاعتقاد المسلمين كافة]. ثم أطنب أبو حامد في الرد على من أنكر النشأة الجسدية في الآخرة.

موقف ابن رشد

كسابقيه من الفلاسفة الإسلاميين - خصوصا ابن سينا (12) - موقف ابن رشد في مسألة الحشر الجسماني والجزاء الأخروي المحسوس موقف غامض ملتوي متردد غير صريح. ويبدو من كلامه حوله أنه يميل إلى نفيه، أي أن البعث للأرواح، والجزاء روحاني معقول وليس جسمانيا محسوسا. ولكن عقيدته الإسلامية المؤكدة على الحشر المحسوس كانت تؤرقه وتشوش على قناعته الفكرية الفلسفية. وفي ردّه على الغزالي في هذه المسألة يقول: إنه ما وجد لواحد ممن تقدم من الحكماء فيها قول، أي القول بالحشر المحسوس. وذلك أن أول من قال بحشر الأجساد هم أنبياء من بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام. وثبت أيضا ذلك في الإنجيل، وهو قول الصابئة. والحكماء يرون تقليد الأنبياء في الشرائع. والممدوح عندهم هو ما كان أحث للجمهورعلى الأعمال الفاضلة. فما قيل في المعاد الأخروي في الشريعة الإسلامية هو أحث على الأعمال الفاضلة مما قيل في غيرها، ولذلك كان تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية.

موقف ابن العربي:

موقفه في مسألة الحشر المحسوس واضح جلي كرره في العديد من مكتوباته كقوله في الباب 64 من الفتوحات (14):

[اعلم أن الناس اختلفوا في الإعادة من المؤمنين القائلين بحشر الأجسام. ولم نتعرض لمذهب من يحمل الإعادة والنشأة الآخرة على أمور عقلية غير محسوسة. فإن ذلك على خلاف ما هو الأمر عليه لأنه جهل... فأثبتوا المعنوية ولم يثبتوا المحسوسة. ونحن نقول بما قاله هذا المخالف من إثبات النشأة الروحانية المعنوية لا بما خالف فيه، وأن عين موت الإنسان هو قيامته، لكن القيامة الصغرى

فإن النبي ﷺ يقول: «من مات فقد قامت قيامته»، وأن الحشر جمع النفوس الجزئية إلى النفس الكلية. هذا كله أقول به كما يقوله المخالف]. ففي هذا الشق من المسألة، قال الشيخ الأكبر لابن رشد: نعم. وأما قوله لا: ففيما خالف فيه أهل الفكر تقريرات الشرع. فيواصل الشيخ كلامه قائلا: [ويختلف في ذلك بعينه من يقول بالتناسخ ومن لا يقول به. وكلهم عقلاء أصحاب نظر ويحتجون في ذلك كله بظواهرآيات من الكتاب وأخبار من السنة... وما منهم من نحل نحلة في ذلك إلا وله وجه حق صحيح وأن القائل به فهم بعض مراد الشارع - (أي هو بين نعم ولا) - ونقصه علم ما فهمه غيره من إثبات الحشر المحسوس في الأجسام المحسوسة والميزان المحسوس والصراط المحسوس والنار والجنة المحسوستين، كل ذلك حق وأعظم في القدرة... فعلم الله أوسع وأتم، والجمع بين العقل والحس والمعقول والمحسوس أعظم في القدرة وأتم في الكمال الإلهي ليستمر له سبحانه وتعالى في كل صنف من الممكنات حكم عالم الغيب والشهادة، ويثبت حكم الاسم الظاهر والباطن في كل صنف... فالأولى بكل ناصح نفسه الرجوع إلى ما قاله الأنبياء والرسل على الوجهين المعقول والمحسوس إذ لا دليل للعقل يحيل ما جاءت به الشرائع...] إلى آخر ما فصله.

وفي بعض نصوصه يشبه ابن العربي رجوع الروح إلى تدبير الجسد في الآخرة برجوع طلوع الشمس (15) فيتنفس العالم أنفاس الحياة بإشراقها. ومن هنا يفهم إدراج الشيخ هذه المسألة في هذا الباب المتعلق بقطب عالم الأنفاس. وخلاصة موقف الشيخ هو أن نشأة الدنيا طبيعية عنصرية كثافتها غالبة على لطافتها. ونشأة الآخرة مثل نشأة الدنيا طبيعية محسوسة ومعقولة جامعة للروح والجسد، لكن نشأة السعداء والجنة طبيعية غير عنصرية مع كونها محسوسة ولطافتها هي المهيمنة لأن لها الإطلاق، خلافا لنشأة الأشقياء في جهنم فهي طبيعية عنصرية في غاية الكثافة والكدورة والحصر. وإلى هذا المعنى أشار مداوي الكلوم في قوله: [... وإن لطف مغناه وغلب على الحرف معناه فالحقيقة الحقيقة والطريقة الطريقة، فقد اشتركت الجنة والدنيا في اللبن والبناء وإن كانت الواحدة من طين وتبن والأخرى من عسجد ولجين. هذا ما كان لوصيته لبنيه. وهذه مسألة عظيمة رمزها وراح فمن عرفها استراح]. فيعني به الحث على لزوم الاعتدال بين مطالب الروح

والجسم أو بين لباب وباطن الحقيقة والشكل الظاهرللطريقة. فحتّى وإن كانت العناية بالروح والحقائق العلوية أولى، وذلك إذا غلب على الحرف معناه، فينبغي أيضا أن يعطى للظاهرالمحسوس حقه من العناية والاعتبار لأن الروح والجسد متكاملان في الدنيا والآخرة...

وابن رشد في قوله لابن العربي: (نعم؟) سأله عن نفس هذه المسألة المتعلقة بالحشر الأخروي، فأجابه ابن العربي: (نعم) أي أنّ الحشر. هو كما يقرره أهل الفكر الفلسفي - روحاني معقول. وفرح ابن رشد بالجواب لميله من حيث نظره العقلي إلى استبعاد الحشر المحسوس. ثم لما استشعر ابن العربي بما أفرحه من ذلك قال له: (لا) أي لا نوافقكم في إنكاركم أو استبعادكم أو ترددكم في إثبات الحشر المحسوس والنعيم والعذاب المحسوسين كما أثبته الشرع وشهد به الكشف، ولا دليل للعقل في إنكاره. فانقبض ابن رشد وتغير لونه وشك فيما عنده في هذه المسألة... وبين (نعم) و(لا) أي بين النشأتين الجسمية والروحية، تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها، أي تكون النشأة البرزخية التي تدبر فيها الأرواح أجسادا برزخية خيالية غير محسوسة كما فصّله الشيخ في الباب 63 من الفتوحات في معرفة بقاء الناس في البرزخ بين الدنيا والبعث... وبين (نعم) لنشأة السعداء الطبيعية المطلقة اللطيفة و(لا) لنشأة الأشقياء الجهنمية المسجونة في الطبيعة العنصرية الكثيفة، تطير الأرواح من موادها وذلك في نهر الحياة الذي ينغمس فيه الخارجون من جهنم حتى يهيِئوا للنشأة الجنانية المطلقة حيث تتلطف عناصرهم وترجع إلى أصلها المطلق بانعتاقها من موادها الكثيفة... وعمليات التلطيف والتكثيف وارتباط الأرواح بأجسادها هي من علوم مداوي الكلوم حسبما فصله الشيخ في هذا الباب 15من الفتوحات. وقوله: [وهو عين هذه المسألة التي ذكرها هذا القطب الإمام أعني مداوي الكلوم] يعني قوله: [فقد اشتركت الجنة والدنيا في اللبن والبناء....] أي اشتركت الدنيا والآخرة في النشأة المحسوسة والمعقولة معا وفي هذا ردّ على ابن رشد في قوله في (تهافت التهافت) خلال ردّه على الغزالي في هذه المسألة أن الحكماء الأوائل لم يتكلّموا على المعاد الجسماني. فهذا مداوي الكلوم سابقهم وإمامهم قد قرّره وأثبته وعلمه أبناء ملّته.

من هو مداوي الكلوم قطب عالم الأنفاس؟

ذكر الشيخ مداوي الكلوم في البابين14و15من الفتوحات. وفي الباب 14 ذكره مع أسماء أقطاب الأمم المكملين في الأمم السابقة الذين شهدهم الشيخ في حضرة برزخية بقرطبة في مشهد أقدس، وهم خمس وعشرون. وبتأمل أسمائهم يتبين أنّهم الأنبياء المذكورون في القرآن. وأعطى الشيخ أسماءهم من حيث قطبيتهم في الولاية. فأوّلهم المفرق ثم مداوى الكلوم ثم البكاء إلى أخرهم. فالمفرق هو آدم عليه السلام الذي منه تفرقت الذرية. والبكاء هو نوح عليه السلام، والنوح بكاء. وبينهما مداوي الكلوم وهو إدريس عليه السلام الذي عاش في الفترة ما بين آدم ونوح عليهما السلام (16).

فمداوي الكلوم قطب عالم الأنفاس وإمام الحكماء هو إدريس عليه السلام كنّاه الشيخ بذلك لأنه - حسبما وصفه به - بعلاج جراحات الهوى خبير. وليشير إلى العلوم التي انتشرت من مدرسته وهي تتعلق بالكيمياء والفلك والطب الإلٰهي والروحاني والنفساني والجسماني في عالم الإنسان والمعادن والطبيعة عموما، وليشير أيضا لعلاقة تلك العلوم بأسرار الحروف وأعدادها وعلاقتها بالنجوم وأفلاكها. فالحروف أللفظية من عالم الأنفاس. وورد الحديث في الشريف أنّ أول من خطّ بالقلم هو إدريس عليه السلام، أي عنه ظهرت الحروف الرقمية بأرقامها العددية المناسبة للمنازل الفلكية.

فكلمة (مداوي) تشير للدواة زيادة على الدواء. وكلمة (كلوم) تشير للكلام بالحروف زيادة على الجروح. والملاحظ أنّ مجموع أعداد حروف (مداوي الكلوم) بعد حذف مكررها هو: (مداوي كلي = 111) الذي هو عدد كلمة (قطب) و(ألف) قطب الحروف (17). فالآحاد الثلاثة من 111 قد تشير إلى اللقب المعروف به إدريس وهو: المثلث بالحكمة. وقوله عنه إنه كان عنده من أسرار إحياء الموتى عجائب فلأنه قطب عالم الأنفاس حيث رفعه الله مكانا علياً فهو في سماء الشمس بمعدنها الذهبي قلب العالم، وبنورها يتنفس العالم إذ قرن الحق تعالى الصبح حين تتجلّى الشمس بالنفس فأقسم: (والصبح إذا تنفس). التكوير: 18. ومن هنا أيضا تظهر صلته بالأبدال السبعة. فخلفاؤه الستة الذين ذكرهم الشيخ في البابين 14و 15 هو سابعهم. وكان أبدا لا يتعدى كلامه السبعة، وإذا وقف وقف لوقفته سبعون

قبيلة. وهو الذي علّم أصحابه أن ثم رجالا سبعة يقال لهم الأبدال يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، ولكل واحد منهم نسبة إلى سماء وكوكب ويوم من الأسبوع. ومقدمهم خليفته الأول تلميذه المستسلم. وهو المسمى في سفر التكوين من التوراة باسم (ماتوسالم بن أخنوخ) وفيه أن اخنوخ عاش 365 سنة كإشارة إلى علاقته بالمقام الشمسي ودورتها السنوية. وإلى هذا المعنى أشار الشيخ في قوله: أن المستسلم ما مات حتى علم من أسرار الحق في خلقه 36500علم من العلوم العلوية، وهو عدد أيام 100سنة. وأخنوخ يتطابق مع إدريس المسمى أيضا: هرمس الهرامسة المثلث بالعظمة. والاثنان الآخران هما هرمس البابلي وهرمس المصري، لأن العلوم الإدريسية توارثتها الأمم بعد رفعه، إلى أن ازدهرت في الحضارات الكلدانية ثم المصرية والإسرائيلية واليونانية، كما ظهرت في الحضارات العربية القديمة وامتدّت عبر القرون تارة تغور وتارة تفور، إلى أن ورثتها الحضارة الإسلامية. وهذه الاستمرارية الطويلة ما كانت لتبقى لولا أن الحكماء الإلٰهيين من ورثة الأنبياء عليهم السلام كانوا يجددونها بنفخ الروح ألإلٰهي في قوالبها. أي أنّ تلك العلوم الإدريسية كانت مجملة في قواعد كليّة، ومبادئ أصولية عامة، قوالبها ثابتة، ولا تصبح حيّة فعّالة إلاّ بتجديدها وفق شريعة ولغة ملّة الامة المعينة..

ولا ينبغي أن يفهم أنّه كلّما مات أحد الخلفاء الستة لإدريس عليه السلام - الذين ذكرهم الشيخ في آخر البابين 14 و15. يتولّى بعده مباشرة من يتلوه. بل كل واحد منهم كان مجددا لعلوم الحكمة الإدريسية في دورة زمانه التي قد تمتدّ لقرون كثيرة. الدليل على هذا أنّ رابعهم لقمان الحكيم عاش في زمن داود عليه السلام أي عشرات القرون بعد طوفان نوح عليه السلام، بينما أوّلهم المستسلم عاش قبل الطوفان...

وقول الشيخ عن مداوي الكلوم أن قوته في النظر ما تعدّت الفلك السابع - أي سماء زحل - من باب الذوق والحال، لكن حصل له ما في الفلك المكوكب والأطلس بالكشف والإطلاع، وكذلك قوله عنه أنّه قال لأصحابه: [... وقد أذن لي في الرحيل فاثبتوا على كلامي فتعقلون ما أقول لكم بعد انقضاء سنين عينها وذكرعددها...] نجد شرحه في كتاب الأسفار في باب: «سفرإدريس عليه السلام» حيث يقول عنه: [كان قد أُسري به إلى أن بلغ السماء السابعة فصارت السماوات

كلها في حوزته... فأقام عندها ثلاثين سنة يدور معها في نطع فلك البروج في مركز تدوير وكيلها... ثم نزل فاختص من أبناء دينه وشرعه ممن عرف أن فيه ذكاء وفطنة فعلّمهم ما شاهد وما أودع الله من الأسرار في هذا العالم العلوي.] (18).

- فقول مداوي الكلوم: [فبنور النور أقسمت] يشير إلى مقامه في سماء الشمس سراج العالم. وقد ذكر الشيخ أن الاسم الإلٰهي المتوجه على إيجاد هذه السماء القطبية هو الاسم (النور) وذلك في الفصل 24 من الباب 198 من الفتوحات.

- وقوله: [وبروح الحياة وحياة الروح آليت] يشير إلى إن من الشمس نفس حياة العالم لقوله تعالى عن شروقها: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ التكوير: 18. فنورها للعالم كالروح للجسد.

- وقوله: [فقد طال مكثي في هده الظلمة وضاق نفسي بترادف هذه الغمّة] يشير إلى ظلمة وغمّة عالم الكثافة العنصري السفلي. وبالمجاهدات الشرعية تتلطّف الكثافة وترجع العناصر إلى إطلاق لطافتها الأصليّة فيتروحن الجسم وينطوي في الروح بعد أن كانت الروح منحصرة فيه. وعند ذاك يتم العروج إلى السماوات بالجسد المتروحن ويشرب صاحبه من عين ماء الحياة كما حصل لإدريس وإلياس والخضر وعيسى حسبما فصّل شأنهم الشيخ في الباب 73 من الفتوحات. والتلطيف الروحاني للكثافة العنصرية يحصل لأهل الجنّة في نشأة الآخرة كما تشير إليه الآية (40) من الأعراف: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾. والأعراف هو السور الفاصل بين الكثافة السفلية العنصرية الجهنمية واللطافة العلوية الطبيعية الجنانية. ولسورة الأعراف علاقة متميزة بهذا الباب 15 أي بمقام مداوي الكلوم الشمسي الفاصل بين عالم اليمين العلوي وعالم اليسارالسفلي. والعدد 40 للآية السابقة يشير إلى مقام الجمع حيث أنه عدد حرف الميم الذي هو حرف الجمع، أي أن العدد 40 يشير إلى تمام النشأة عند جمعها للطافة الروح وكثافة الجسم.

خلاصة القول أن علوم الحكمة الإدريسية استمرت متوارثة عند الأمم بواسطة الحكماء الإلٰهيين. واحيانا كان بعدها الرباني يتقلص بانقباض مدد التربية الروحية العملية التي شرعها الأنبياء فتتحول إلى نظريات فلسفية يغلب عليها تصرف الفكر والنظر العقلي... ومن هنا نفهم كيف ذكر الشيخ الأكبرمحيي الدين الفيلسوف

ابن رشد كممثل للمعرفة الفكرية في سياق كلامه على مداوى الكلوم أي إدريس عليه السلام إمام الحكمة الإلٰهية الكشفية.

في إطار المرجعية القرآنية للفتوحات المكية ما هي السورة المناسبة للباب 15؟

أبواب الفصل الأول من الفتوحات - وعددها 73. مثلها مثل أبواب الفصل الرابع والفصل الخامس لها مرجعيات قرآنية أكثرها خفي. ومرجع الباب 15 هو سورة الأعراف أي السورة السابعة في الترتيب القرآني (19).

ومن عادة الشيخ في آخر كل باب التمهيد للباب الذي يتلوه مع الإشارة الخفية لسورته. وفي آخر الباب 14 أشار إلى اسم سورة الأعراف بقوله عن سادس خلفاء مداوي الكلوم: (وما عرفت لمن انتقل الأمر من بعده). فكلمة (عرفت) تلوّح لكلمة (أعراف). ثم كرّر الإشارة إليها في بداية الباب 15 في قوله:

(... فلما تنسّمت مشام العارفين عرف هذه الأنفاس.... من العرف الأنفس... عُرِفوا بشخص إلٰهي عنده السرّ...).

وكلمة أعراف عند الشيخ لها دلالتان أساسيتان: الأولى دلالتها على الأنفاس الرحمانية، والثانية دلالتها على المعرفة. قال الله تعالى في الآية 46 من الأعراف: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ﴾. فالأعراف هو المنزل القلبي الأوسط بين الجنّة والنار بحيث يطلع صاحبه على جميع طوائف الفرقتين السعداء والأشقياء، فهو جامع للمعرفتين. ولهذا فهو أنسب المنازل لموقع فلك الشمس القطبي الأوسط حيث رفع الله إدريس مداوي الكلوم مكاناً علياً. ولهذا نجد الشيخ في رسالة الأنوار يسمي الأفلاك الذي تحته بعالم اليسار أي أنّ المراتب التي فوقه من عالم اليمين، فهو كالأعراف برزخ بين العالمين، فيقول عن هذا الفلك الشمسي القطبي القلبي: [فإن لم تقف معه (أي مع فلك كوكب الزهرة وسماء يوسف عليه السلام) رفع لك عن مراتب القطبية. وكل ما شاهدته قبل فهو من عالم اليسار. وهذا الموضع هو القلب...] (20).

فرجال الأعراف هم أصحاب المعارف البرزخية،و يصفهم في الباب 25 من الفتوحات فيقول: [وأما رجال الحد فهم الذين لهم التصرف في عالم الأرواح النارية عالم البرزخ والجبروت... وهم رجال الأعراف. والأعراف سور حاجز بين

الجنّة والنار برزخ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله فيه العذاب... وهؤلاء الرجال هم أسعد الناس بمعرفة هذا السور. ولهم شهود الخطوط المتوهمة بين كل نقيضين مثل قوله: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ فلا يتعدّون الحدود. وهم رجال الرحمة التي وسعت كلّ شيء فلهم في كلّ حضرة دخول واستشراف، وهم العارفون بالصفات التي يقع بها الامتياز لكل موجود عن غيره من الموجودات العقلية والحسية] (21).

ولهذا يعتبر الشيخ أحيانا الأعراف كمقام شاهق متعالي عن حصر المقامات.و يصفه في الباب 40 من الفتوحات، وهو أيضا مناسب لسورة الأعراف، فيقول: [إنّ هذا المنزل منزل الكمال وهو مجاور منزل الجلال والجمال. وهو من أجل المنازل والنازل فيه أتمّ نازل... من حصّله ساد على أبناء جنسه وظهر حاكما على صاحب الجلال والجمال..]. (22)

وقد خصص الشيخ في الفتوحات الباب 377 لمنزل سورة الأعراف، وموقعه في الباب 559 الفقرة التي عنوانها: (الفاصل بين الحالي والعاطل). وكذلك الباب 426 من فصل المنازلات الذي عنوانه (في معرفة السر الذي منه قال عليه السلام حين استفهم عن رؤية ربّه فقال: نورأنىّ أراه). يشير الشيخ إلى الآية 143 من الأعراف: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾. ولهذا نجد موقع سورة الأعراف في كتابه (التراجم) تحت عنوان: (ترجمة النوراني) (25) وفيه يتكلّم عن الرؤية والحجاب. وهو نفس ما نجده في موقع سورة الأحقاف تحت عنوان: (ترجمة الكثيب) حيث يقول: [في الكثيب الناس يوم القيامة يكونون على الكثيب الأبيض عند رؤية الله تعالى] ثم تكلم على الأنفاس الرحمانية أي أعراف الجود. فالأحقاف كالأعراف رمز للمنزل المتعالي عن الأضداد الكونية لرؤية صاحبه الله تعالى خالق تلك الضدّية. وللعلاقة بين سورتي الأعراف والأحقاف، نجد الشيخ ينهي الباب 14 الممهد للباب 15 بالتلويح للآية 9 من سورة الأحقاف: ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ بقوله: [... فما أدري ما يفعل الله بي]. وأحيانا أخرى يأخذ الشيخ من كلمة (أعراف) معنى

الروائح أي الأنفاس الرحمانية. ولهذا نجده في ديوانه يقول عن سورة الأعراف:

[في مشام العارفين الأعراف الطيبة وهم المسمون عالم الأنفاس (...)

إذا كانت الأعراف تعطي عوا رفا فإنّ سليم الشمّ ينشق العرفا]

وخصص في الفتوحات لرجال الأنفاس أبوابا من الفتوحات منها الأبواب: 198/73/35/34/15.

وفي كتابه (مشاهد الأسرار القدسية) خصص الباب 14 الأخيرلمشهد الساهرة يوم القيامة حيث يجتمع مختلف طوائف السعداء والأشقياء. وفيه ذكر أن أقبح الأشقياء هم الباطنية الذين يصرفون ظواهر النصوص الشرعية إلى مفاهيم باطنية وفق هواهم. وفي كتاب خاص فيه شروح حول تلك المشاهد ومرجعيتها القرآنية بينت أن لهذا المشهد الأخيرتناسب مع سورة الأعراف.

وفي كتابه (العبادلة) للشيخ الاكبرعدّة أبواب ترجع باسلوب خفي لسورة الأعراف وتتكلّم عن أنواع ألمعارف والأنفاس والرؤية والحجاب منها الأبواب: 13 /16/15/14. وكذلك الباب 17 ألذي عنوانه: (عبد الله بن إدريس بن عبد النور) والباب 16 الذي بدأه بقوله:

[الرجل من عرف الفرقتين ولم يتميز في فرقة عنهم في وقت الوزن. ثم ينظر إلى ضنائن الحق خلف ستر العزّة مكتنفين بالنور الحجابي، والنار تسطع من سبحات وجوههم، في زوايا سرادقات كونهم، فتحرق كلّ ما أدركه بصرهم منهم، فيبقون مع الحق أعيانا قائمة بلا معنى، فيكون الحق معناهم، فهم نور في نور. فيطمع هذا الرجل اللحوق بهم من عين التوحيد أو المنة. فإن رفع له الميزان التحق بهم من عين توحيده. وإن لم يرفع له ميزان التحق بهم من عين المنّة، وكان عند ذلك ممن كمل...].

كتب بقمار يوم 14 رمضان عام 1423 هـ نوفمبر 2002.

مراجع

ف- الفتوحات المكية لأبن العربي - طبعة دار صادر بيروت، 4 مجلدات.

(1) ف: باب 226 (2: 523)

(2) ف: باب 463 (4: 88)

(3) ف: باب 65 (1: 319)

(4) كتاب الوصايا في مجموع رسائل ابن العربي - الطبعة الأولى بحيدرابآد 1361 هـ

(5) كتاب المسائل في مجموع رسائل ابن العربي. وفي مقدمة الفتوحات (1: 44)

(6) حول خرق العادات تنظر: ف: باب 186 و187 و184 و185 (2: 369 - 374) وكتابه: مواقع النجوم

(7) رسالة ابن العربي للرازي في مجموع رسائل ابن العربي.

(8) الرسالة الأولى من كتاب الكتب في مجموع رسائل ابن العربي.

(9) ابن رشد: (كشف مناهج الأدلة في عقائد الملّة) تحقيق لجنة إحياء التراث العربي - دار الآفاق الجديدة - بيروت 1403هـ (1982م). ص: 60.59

(10) ف: باب 66 (1: 324 - 325)

(11) الأستاذ ساعد خميسي: مقال: لقاء ابن عربي بابن رشد وموجز علاقة الكشف بالعقل - مجلة سيرتا - رقم 12 جامعة منتوري - قسنطينة، الجزائر 1999. - ص: 67 - 73.

(12) حول مسألة الحشر الجسماني عند ابن سينا والغزالي ينظر كتاب: «تهافت الفلاسفة للغزالي - تحقيق سليمان دنيا - ط 2 - دار المعارف بمصر - ص: 21.16، 280 - 289. وينظر: «رسالة المعاد لابن سينا» طبع دار الفكر العربي 1949ص: 55 - 56 - 57، وينظر الباب 66 من كتاب «اليواقيت والجواهر» للشعراني.

(13) ف: 1 ص: 311 - 312 وفي الأبواب: 61 - 62 - 63 - 64 - 65 - 371. وينظر في كتاب (العبادلة) الباب 25 تحت عنوان: (عبد الله بن محمد بن عبد المحسن) والباب 30 تحت عنوان: (عبد الله بن شمويل بن عبد الجبار) والباب (34) تحت عنوان: (عبد الله بن عبد الواسع بن معروف) وكذلك ينظر الباب السادس من (كتاب التنزلات الموصلية).

(14) ف 4: 434 (غروب الشمس موت النفس).

(15) ف: باب14 (1: 151) ما ذكره ابن العربي حول إدريس عليه السلام ينظر في: - الفتوحات: الأبواب: 15 (مداوي الكلوم) /46 (ممن حصل علوم الوهب) /67 (إدريس وعلم الخط) /73: إدريس حي بجسده في السماء الرابعة وهو الركن القطبي من بيت الدين المربع مع خضر والياس وعيسى وعلى قلبه بدل الإقليم الرابع الأوسط/ 90: إدريس في قلب الأفلاك/167: العلوم الإدريسية في السماء الرابعة/ 94: سفر إدريس إلى المكان ألعلي / 198 فصل 24: سماء إدريس الشمسية من امسه النور - فصل31: إدريس القطب الذي لم يمت إلى الآن والأقطاب فينا نوّابه.288: اسم إدريس لا ينصرف.

367: حوار الشيخ مع إدريس في معراجه في السماء الرابعة.

369: الفصل 21: زوال الألم في المقام الإدريسي

371: إدريس في فلك الأثير. حول إدريس ينظر أيضا

- الفص الإدريسي الإلياسي في كتاب فصوص الحكم.
- التنزلات الموصلية. الباب السادس: إمام يوم الأحد.
- الإسفار عن نتائج الأسفار...

383: إدريس وبقية الأنبياء الأربعة عشرالذين يحفظ الله بهم العالم من منزل فاتحة الكتاب السبع المثاني.

(16): بحساب الجمل: م د ا وك ل ي = 40+4+1+6+20+30+10=111 = ق ط ب= 100+9+2=ا ل ف=1+30+80

(17) (18) (19):الكتب التالية: الإسفار عن نتائج الاسفار، رسالة الأنوار، التراجم، كلها في مجموع رسائل ابن العربي.

(20): حول المرجعية القرآنية لأبواب الفتوحات وبعض كتب الشيخ

الأخرى ينظر بداية كتاب: (مفاتيح فصوص الحكم) لعبد الباقي مفتاح - طبعة القبة الزرقاء بمراكش 1997.

(21) ف: باب 25 (1: 187)

(22) ف: باب 559 (4: 405)

(23) ف: باب 426 (4: 38)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد رحمة العالمين وآله وصحبه أجمعين

ذو النون المصري(180 - 266 هـ) كما يظهر عند الشيخ الأكبر ابن العربي(560 – 638هـ)

عند مقارنة أهم المراجع المتوفرة حول ذي النون- وقد ذكرت في ملحقات هذا البحث بضع وعشرون منها- يتضح أو أوسعها وأغزرها فائدة هو كتاب الشيخ الأكبر الذي عنوانه: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري.

ثم يتلوه في الوسع كتاب جلال الدين السيوطي الذي عنوانه: السرّ المكنون في مناقب ذي النون. المشتمل على 402 مقولة لذي النون، بينما جمع كتاب الشيخ الأكبر أزيد من 500 مقولة، علق على نحو 40 منها. وهو مؤلف من أربعة أقسام:

- الأول: حول حياة ذي النون وأحواله ومقاماته الروحية ومناقبه الدالة على ورعه وأمانته وظرفه وتعظيمه لأهل العلم، وصفاته وأدبه، وقوة وجده، وكمال عقله، ومجاهداته، واعترافه، ومراقبته الموت، وعزة الوقت، ونظره في الأوجب عليه، وحاله في الذكر، وقطع المألوفات، وحاله عند وفاته، ومناجاته ودعائه وثنائه على الله تعالى، وكراماته، ونُبَذ من كلامه.
- الثاني: في تعاليمه ومراسلاته ووصفه لنحو 60 مقاماً وحالاً للسالكين.
- الثالث: أوصافه لطبقات الأولياء الذين لقيهم أو صحبهم وحكاياته معهم.
- الرابع: ابتهالات ومناجات وقصص ووصايا وخطب ومواعظ لذي النون.

وقد ذكر الشيخ الأكبر ذا النون في كتب أخرى مستشهداً بأقواله ووصاياه ومسائله. نجد ذلك في (لفتوحات المكية) خصوصاً في الباب 278 في معرفة مقام المحبة، وفي الباب 560 الأخير باب الوصايا. كما نجد نصوصاً لذي النون في كتاب (محاضرة الأبرار) وكتاب (روح القدس) وكتاب (التجليات) وكتب (منزل

القطب والإمامين). ويتفحص هذه المراجع يتبين في حدود علمي - أن الشيخ الأكبر- لم يكتب كتاباً في مناقب شيخ أوسع من كتابه حول ذي النون. ولم يطنب في الثناء على أحد من الشيوخ كإطنابه في الثناء عليه وعلى شعيب أبي مدين (ت: 589 هـ). فلنذكر أمثلة لهذا الثناء.

- في الفتوحات يقول عنه أنه من علماء الأمة الذين يحفظون عليها أحوال الرسول صلى الله علي وسلم وأسرار علومه (ب: 14 III ص151) ويقول عنه أنه من الذين دخلوا أرض الحقيقة أو السمسمة المشيرة لعالم المثال والخيال البرزخي الخلاق، ولما شاهدها نطق بما حكي عنه من إيراد الكبير على الصغير أجساماً ومكاناً من غير أن يصغر الكبير أو يكبر الصغير أو يوسع الضيق أو يضيق الواسع (ب3 I ص128)، ومسألة طي الزمن الطويل في الوقت الصغير وهي من مسائل ذي النون الستة التي تحيلها العقول مع وقوعها في عالم القدرة (ب 73/ II ص82).

ويقول عنه أنه كان كقضيب اللبان (ت: 570 هـ) وغيره من الأولياء الأبدال الذين لهم القدرة على تدبير أجسام متعددة في نفس الوقت (حول هذا الموضع ينظر فص إسحاق من فصوص الحكم).

ويقول عنه أنه من المتحققين بفطرة الإيمان، لأنه لما سئل عن أخذ الميثاق الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ قال: كأنه الآن في أذني يشير إلى علمه بتلك الحال (ف72 I ص670/ ب264 II ص566).

وأما في الكوكب الدري فيقول عنه: (لم أر في الجماعة أكثر سياحة واجتماعاً بأولياء الله من ذي النون... وكان ذا علم وورع، أديب وقته، له لسان في المعرفة وفي نعت الطائفة. قال ابن الجلا: لقيت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة أحدهم ذو النون)..

وبظهر إعجاب الشيخ بذي النون في تعليقاته على بعض أقواله، وأورد أربع أمثلة لذلك:

المثال الأول: [سئل ذو النون: بم عرف العارفون ربهم؟ فقال: إن كان بشيء، فبقطع الإشراف منهم على الطمع، ودفع اليأس، مع التمسك منهم بالأحوال التي أقامهم عليها، وبذل المجهود من أنفسهم، ثم أنهم ما وصلوا بعد إلى الله إلا

بالله]، ويعقب الشيخ على هذا الجواب قائلاً: [انظر ما ألطف إشارته رضي الله عنه بقوله: إن كان بشيء، ثم ختم كلامه بما أشار إليه وهو جواب الشرط في الحقيقة لا قوله: فبقطع. ثم تلطَّف في العبارة تنبيهاً على قول القائل: سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته.وفي هذا الكلام بحار في علم التوحيد لا تدرك قعورها ولا يتمكن لنا إذاعتها حذراً من العمي الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون].

المثال الثاني: ذو النون يقول: [الذي اجتمع عليه أهل الحقائق في حقائقهم أن الله غير مفقود فيطلب ولا ذو غاية فيدرك، فمن أدرك موجوداً فهو بالموجود مغرور وإنما الموجود عندنا علم بلا حال]. ويعقب الشيخ عليه قائلاً: [ما أحسن ما قال. وهذا المعنى ما سمعته من أحد من الطائفة أصلاً بمثل هذا التحقيق. ولقد أوضح الطريق غاية الإيضاح حيث نفى الحال في هذا الضرب من العلم].

المثال الثالث: قال ذو النون: [كلّ مدّعٍ محجوب بدعواه عن شهود الحق لأن الحق شاهد لأهل الحق، فإن الله تعالى هو الحق، وقوله الحق، فلا يحتاج العبد أن يدعي إذا كان الحق شاهداً له، وأما إذا كان غائباً فحينئذٍ يدعى لأن الدعوى إنما تقع للمحجوبين]. ويعقب الشيخ عليه موضحاً: [صحيح ما قاله رضي الله عنه من كل وجه وعلى كل حال. والذي يربط باب الدعوى هو ما نقول: أن الدعوى لا تصح في الطريق، فإذا ظهرت فلا تظهر إلا من ثلاث أشخاص كاذب أو مأمور بها أو صاحب غلبة حال. وكيف ما كانت فلا تكون إلا مع الحجاب. فالكاذب مخذول مستدرج، والمأمور مؤيد منصور، وصاحب الحال موقوف على المشيئة وقد يُخذل وقد يُنصر، ولا رابع لهم أصلا.

المثال الرابع: تعقيباً على نص طويل نعت فيه ذو النون أهل المحبة والوفاء المخصوصين بتجليات الصفاء، يقول الشيخ: [تأملوا وفقكم الله ما أدرج في هذه النعوت من الأسرار والفوائد تروا عجباً. وما وصف رضي الله عنه أحداً من الطائفة بصفة قدسية إلا وكان هو الراقي في ذروتها والمحل الأقدس لها].

فمن تعليقات الشيخ الأكبر على مواقف وأقوال ذي النون يظهر أن ذا النون عند الشيخ الأكبر هو العارف الذي جمع بين التمكن بالتحقق الباطني بالولاية والمعرفة وحسن السلوك الظاهري، مع روعة المنطق وحسن البيان، جامعاً بين

الحكمة وفصل الخطاب، وفيه تناسقت كمالات الشريعة والطريقة والحقيقة.

فمن حيث الشريعة يرى ذو النون - كغيره من أئمة الطريق - أنها هي الأساس والغاية فهي منهاج الطريقة ولباب الحقيقة، وبمقدار الالتزام بها ظاهراً وباطناً يكون الفتح في حقائقها. يقول ذو النون - حسبما رواه السلمي في طبقات الصوفية: [من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وأفعاله وأمره وسننه]. وسئل عن المحبة فأجاب: [أن تحب ما أحب الله وتبغض ما أبعض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين] ويقول أيضاً [العارف كل يوم أخشع لأنه كل ساعة أقرب].

ولاعتنائه بالسنة النبوية يُعدّ ذو النون من رجال الحديث، فقد ذكره القاضي عياض في كتابه (ترتيب المدارك) مع رواة موطأ الإمام مالك ابن أنس (ت: 179 هـ)، وروى الحديث عن ائمته فروى عن الليث بن سعد (ت175هـ) وعبد الله بن لهيعة (ت174 هـ) والفضيل بن عياس (ت: 187هـ) وسفيان ابن عيينة (ت198 هـ) وغيرهم ووصفه الدارقطني بالثقة.

وفي ملحقات هذا المقال ذكرتُ بعض أسانيده في الحديث وفي الطريقة.

وأما من حيث الطريقة فقد شهد له السلمي وابن الجوزي والذهبي والسيوطي بأنه هو أول من تكلم في مصر عن ترتيب المقامات والأحوال في طريق الولاية، اي أنه كان رائد التربية الروحية في عصره بمصر... واسمه موجود كحلقة في سلاسل عدة طرق ذكرتُ بعضها في الملحقات. وامتاز ذو النون عن غيره من معاصريه بفتوح العبارة حتى قال عنه الشيخ الأكبر في (الكوكب الدري) أنه كان أكبر أدباء زمانه، وبهذا يكون متحققاً بالفتوح الثلاثة التي فصّلها الشيخ محيي الدين في الباب (216/ II ص505) من الفتوحات حيث يقول - مع اختصار لكلامه: [الفتوح ثلاثة أنواع:

الأول: فتوح العبارة في الظاهر وهو قوله عليه السلام: «أوتيت جوامع الكلم» وسببه إخلاص القصد.

الثاني: فتوح الحلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بإعطافه.

الثالث: فتوح المكاشفة بالحق وهو سبب المعرفة بالحق...] انتهى.

وأما إذا تعمقنا في باطن ذي النون للكشف عن حقيقته فعلينا أن نبحث عن منبع مدده الروحي، وباستعمال مصطلحات أهل الطريق علينا أن نجيب على الأسئلة التالية:

الأول: ما مشرب ذي النون من الأسماء الحسنى؟

الثاني: من هم الأنبياء الذين على قدمهم كان ذو النون؟ وأي روح ملكي يناسبه؟

الثالث: من هو الإمام الذي كان يُسقَى ذو النون من عينه؟

الجواب مجملاً:

حسب النصوص الأكبرية - والله أعلم - الجواب هو التالي:

1 - مشربه من الأسماء الحسنى: (الله العليم الحكيم)[1].

2 - ميراثه العرفاني أنه إدريسي المقام، عيسوي الحال، شعيبي المقال، محمدي السر.

3 - وأما مشربه فمن عين الإمام السادس من أئمة آل البيت الأطهار أي جعفر الصادق، عليهم السلام (ت: 148 هـ).

ولنفصل هذا الإجمال:

فأما كون مشربه من الأسماء الحسنى (الله العليم الحكيم) فظاهر في غزارة علمه وتمكنه في مختلف فروع الحكمة، وجُل من ترجموا له وصفوه بالعالم الحكيم الفصيح. فالقشيري وابن خميس وابن خلكان قالوا أنه لم يوجد مثله في عصره في العلم والورع والحال والأدب، ووصفه الهجويري وفريدالدين العطار بأنه كان رئيس رجال الملامة وهم الأولياء الذين يكتمون أحوالهم الباطنية العالية[2] وأما الشيخ الأكبر فوصفه بالعارف الصالح. ويُعطي تعريفا للمعرفة في الباب 177(I ص 297 من الفتوحات) فيقول: [والمعرفة عند القوم محجة، فكل علم لا يحصل إلا عن عمل وتقوى وسلوك فهو معرفة لأنه عن كشف محقق لا تدخله الشبه، بخلاف العلم الحاصل من النظر الفكري]. وفي الباب (487- VI ص123) يُعرّف شروط

(1) حول الاسمين (العليم الحكيم) ينظر في الفتوحات IV ب 559 ص257/221. وحول مقام الحكمة والحكماء ينظر الباب 166 ص269 II.

(2) حول الملامية ف: ب 23 - 73 ص 16 III/II بـ309 ص34 - 37.

الصلاح فيقول [فمن شرط الصلاح استصحاب العصمة في الحال والقول والعمل ولا يكون هذا إلا لأهل الشهود الدائم والعارفين بالمواطن والمقامات والآداب والحِكَم، فيحْكُمُون نفوسهم فيمشون بها مشي ربهم من حيث هو على صراط المستقيم].

ومنْ مشربه من حضرات (الله العليم الحكيم) كانت النسبة بين ذي النون والإمام جعفر الصادق الذي تفجرت من مدرسته مختلف ينابيع علوم الدين والحكمة والمعرفة الإسلامية، وقد صحب ذو النون بعض كبار تلاميذ جعفر، وكان له التمكن في علوم الكيمياء وأسرار الحروف وعلاقتهما بالفلك والطب الجسمي، والنفسي والروحي، حتى نُسِبَتْ له كتب في ذلك كما نسبت لجابر بن حيان تلميذ جعفر... وهذه العلوم فروع من علم الحكمة، والحكيم - كما يعرفه الشيخ الأكبر - هو العليم والخبير بالعلم المنطقي والعلم الرياضي والعلم الطبيعي والعلم الإلٰهي. والكيمياء عند هؤلاء ليست هي صنع الإكسير الذي يُحَوِّلُ المعدن إلى ذهب يتصارع عليه أهل الدنيا الغافلين، وإنما هي مجموعة من أرقى المعارف تتناسق فيها كل العلوم ضمن دائرة التوحيد في مجموعة رائعة تجمع بين العلم بالأسماء الإلٰهية وتصريفاتها ومظاهرها الفلكية في إزار العظمة المنشور في الآفاق ومساقطها في الحروف والكلمات وأعدادها، ومواقعها في العناصر والمولدات الطبيعية وفي مراتب الوجود، وانطواء كل ذلك في الإنسان الكامل الجامع الذي هو روح إكسير كيمياء السعادة أو كيمياء الأبدال، وذلك بالتحقق بالاسم الأعظم الذي بذكره تتبدّل معادن النفوس الخسيسة إلى أنوار مُقدّسة نفيسة، وبه تترَوْحن كثافة سجن التقييد والحس إلى لطافة إطلاق الفتح، وهو ما أشار إليه صاحب ذي النون الشيخ أبو عبد الله بن الجلاء (ت306) لما سُئل: هل كان ذو النون يتعاطى صنعة الكيمياء؟ فأجاب: نعم، ولكنها كانت كيمياء عليم الأسود الذي كان يصلي العشاء في بغداد والصبح في مكة]... وإنما ذكر عليم الأسود الذي كان من الأبدال وأئمة الطريق لما رواه السلمي في كتاب (مقامات الأولياء) أنه ضرب بيده أسطوانة من رخام في المسجد فإذا هي كلها ذهب، فتعجب من ذلك بعض الحاضرين فقال له عليم: [يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراها لحقيقتك بربك] (ذكر هذه القصة في الفتوحات: I ص234 باب40) كأنه يشير للحديث القدسي الدال على حقيقة

الإكسير: [عبدي أطعني أجعلك ربانياً تقول للشيء كن فيكون].

ومن الصلة الروحية بين ذي النون وجعفر الصادق كان لذي النون وراثة من شعيب وإدريس وعيسى عليهم السلام، وذلك أن الشيخ الأكبر خصص في الفتوحات الباب 463 لمعرفة الأقطاب الاثني عشر الذين عليهم مدار العالم، وبالتأمل في كلامه حول القطب الثاني عشر منهم نجد تناسباً تاماً بينه وبين الإمام جعفر. يقول عنه مع اختصار لكلامه:

[هذا القطب على قدم شعيب عليه السلام، وسورته تبارك الذي بيده الملك، وله علم البراهين وموازين العلوم ومعرفة الحدود، كله روح مجرد حاكم على الطبيعة مؤيد للشريعة، ولا يرى الحق في شيء من تجليه دون أن يرى الميزان بيده يخفض ويرفع... جمع له بين القوتين العلمية والعملية فهو صنّع لا يفوته صنعه بالفطرة، وله في كل علم ذوق إلٰهي من العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية والإلٰهية، وكل هذه العلوم عنده علوم إلٰهية ما أخذها إلا عن الله وما رآها سوى الحق...] إلى آخرما فصله.

وقد كان لذي النون من مشربه الجعفري نصيب وافر من أوصاف وعلوم هذا القطب... وكلام الشيخ حول الصنعة والميزان يشير إلى كيمياء السعادة التي خصص لها الباب (167) من الفتوحات وذكر فيه علاقة الإكسير بحال عيسى عليه السلام الذي كان ينفخ في الطين فيكون طائراً ويحيي الموتى بإذن الله. ومن هنا تظهر العلاقة بين ذي النون وعيسى وشعيب.

فالشيخ الأكبر يقول أن عيسى مرفوع في السماء الثانية التي من وظائفها إمداد الخطباء ورجال الفصاحة الذين من أقطابهم شعيب الملقب بخطيب الأنبياء، وعلى قدمه ذو النون أفصح خطباء عصره في التعبير عن أحوال أهل الله تعالى... ومن علوم سماء عيسى علم الكيمياء، ومن هنا كان لذي النون وراثة للحال العيسوي المتمثل خصوصاً في الزهد والورع والسياحة التي أمره بها شيخه شقران العابد القيرواني الذي كان هو أيضاً عيسوي الحال حسب ما يبدو من سيرته، والله أعلم.

فالكرامات المنسوبة لكليهما مماثلة لمعجزات عيسى، كشفاء المرضى وإحياء الموتى بإذن الله تعالى. وقد صرح الشيخ الأكبر بهذا في تعليقه عن كرامة

استرجاع ذي النون صبياً حياً من تمساح اختطفه من أمه فقال: هذه وراثة عيسوية في إحياء الموتى، ولتلك المناسبة والوراثة كانت الخفافيش تقع على جنازته فإنها الطير الذي خلقه عيسى بيده ونفخ فيه الروح وكان ذلك بإذن ربه. (ك/ف III ص93). لكن الشيخ روى أن أخرين ممن حضروا جنازته رأوها طيراً خضراً ورآها أحد الفقهاء خفافيش، فقال الشيخ: [لو لم يكن الرائي فقيهاً لرآها على غير صورة الخفافيش].

وللتوسع في معرفة أحوال وعلوم الأولياء ورثة عيسى يرجع إلى الأبواب: 37/36/20 من الفتوحات.

وإذا كان ذو النون من ورثة الحال العيسوي فهذا يعني أنه على قلب نافخ الأرواح إسرافيل عليه السلام لاشتراكهما في التحقق باسمه تعالى: (الحي المحيي) وفي هذا المعنى يقول الشيخ (ب73/ص11 ف) عند وصفه لطبقات الأولياء: [ومنهم رضي الله عنهم واحد على قلب إسرافيل عليه السلام في كل زمان، وله الامر ونقيضه جامع للطرفين... فمن كان على قلب عيسى فهو على قلب إسرافيل ومن كان على قلب إسرافيل قد لا يكون على قلب عيسى...] انتهى.

وقد رشحت هذه الصلة الباطنية بين ذي النون وإسرافيل في الظاهر فكان أحد أصحابه الملازمين له ومن رواة أخباره اسمه إسرافيل، واختلف المترجمون هل هو أحد شيوخه أم أحد تلاميذه أم أحد رفاقه. وكان له صاحب آخر اسمه عُزَير. والنبي عزير متعلق هو أيضاً بالإحياء حيث أحياه الله بعد موته وبه أحيا التوراة بعد اندثارها.. ورشحت أيضاً مادة الحياة الإسرافيلية العيسوية على جسد ذي النون فبقيت لحيته سوداء رغم تجاوزه للتسعين سنة من العمر إلى أن مات... يقول الحافظ أبو نعيم في نعته: [كان ذو النون رجلاً نحيفاً تعلوه حمرة، ليس بأبيض اللحية].

ومن العلاقة بين ذي النون وعيسى وشعيب وإسرافيل تبرز علاقة أخرى وهي وراثة ذي النون للمقام الإدريسي قطب رجال الحكمة أو رجال الأنفاس كما يسميهم الشيخ الأكبر في الباب (15) من الفتوحات الذي عنوانه: [في معرفة الأنفاس ومعرفة أقطابها المحققين وأسرارهم] وفيه يقول مع اختصار لكلامه [... والأنفاس روائح القرب الإلٰهي فلما تنسمت مشام العارفين عَرْف هذه الأنفاس

عُرفوا بشخص إلٰهي عنده السر الذي يطلبونه وأقامه الحق فيهم قطباً يدور عليه فلكهم يقال له مداوي الكلوم... فكان يُصير الحديد فضة بالتدبير والصنعة، ويصير الحديد ذهباً بالخاصية، وهو سر عجيب. ولم يطلب على هذا الرغبة في المال ولكن رغبة في حسن المآل ليقف من ذلك على رتبة الكمال] (..) وكان عنده من أسرار إحياء الموات عجائب (..) فمداوي الكلوم هو إدريس عليه السلام كنّاه الشيخ بذلك ليشير إلى علومه المتعلقة بالطب الجسماني والروحاني في عالم الإنسان والمعادن والطبيعة، وليشير أيضاً لعلاقة تلك العلوم بأسرار الحروف وأعدادها والنجوم وأفلاكها، فقد روي في الحديث أن إدريس عليه السلام هو أول من خط بالقلم وأنه رفع للسماوات. فكلمة (مداوي) تشير للدواة وكلمة (كلوم) تشير للكلام أي أن (مداوي الكلوم) هو الذي أظهر الحروف الرقمية وعلوم الحكمة التي من فروعها الكيمياء والطب والفلك. وقوله عنه [كان عنده من أسرار إحياء الموات عجائب] يُبيّن علاقة أدريس بعيسى عليهما السلام. فإدريس: مداوي الكلوم وعيسى كلمة الله. ولكل منهما سر الإكسير والطب وإحياء الموتى حساً ومعنى. وكل منهما رُفع للسماء: عيسى للسماء الثانية حيث فلك كوكب عطارد الكاتب، وإدريس في السماء الرابعة حيث فلك الشمس القطبي المناسب لمعدن الذهب الذي هو غاية صنع الإكسير... ووظائف وعلوم السماءين الثانية والرابعة متداخلة ومشاكلة لبعضها البعض. وإدريس وعيسى يمثلان عند الشيخ الأكبر ركن الحجر الأسود والركن اليماني من بيت الدين العتيق الثابت إلى آرخر الزمان. وللركنان الباقيان هما الخضر وإلياس. ففيهم تتجسد الأركان المعنوية الأربعة للدين التي هي الرسالة والنبوة والولاية والإيمان (الباب73 من الفتوحات).

وإنما قرن الشيخ إدريس بإحياء الموات لأن الكيمياء الروحانية هي التي يستيقظ بها ميت الغفلة فيحيي بالعلم بالله الحي الذي لا يموت... وهو عليه السلام قطب عالم الأنفاس لأن فلكه الشمسي قلب العالم، وبنور الشمس يتنفّس العالم، قال تعالى: [والصبح إذا تنفس].

ومن وراثة ذي النون لإدريس، كان من رجال نفس الرحمٰن الذين خصص الشيخ لهم في الفتوحات عدة أبواب 51/49/35/34/24/15، ووصفهم بأنهم هم المتحققون بأسرار الاسم (الرحمٰن). وصاحب هذا المقام يدرك بواطن الأمور

بواسطة الشم، وهمته عرشية، رحيم بكل المخلوقات، متمكن في باطن الأعراف أي السور المشرف على الجنة والنار، أي أنه من أهل الكمال البرزخي الجامع لطرفي الجمال والجلال، وله معرفة بشؤون الحق في خلقه كنزوله تعالى إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل. وفي الباب (34) الخاص بالمتحقق بمنزل الأنفاس أطنب الشيخ في الكلام على الآية: [لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون] غافر: 57. وهي الآية التي تحقق بها ذو النون حتى قال في إحدى مناجاته في إحدى الليالي بعد أن نظر إلى السماء وماء البحر: [سبحان الله ما أعظم شأنكما بل شأن خالقكما أعظم منكما، ثم لم يزل ينشد هذه الأبيات إلى أن طلع عمود الصبح:

أطلبوا لأنفسكم مثل ما وجدتُ أنا
قد وجدتُ لي سكناً ليس في هواه عَنَا
إن بَعُدْتَ قربني أو قَرُبتُ منه دنا

ويعلق الشيخ على هذا فيقول: [كان ذو النون من القليل الذين يعلمون شأن السماوات والأرض] (ص178 - الكوكب الدري): (حول الآية ينظر الباب 52 والباب 362 من الفتوحات).

ومن ناحية أخرى ثمة صلة بين إدريس والأهرام حتى قيل أن ثمة نسبة بين اسم (هرمس) الذي هو إدريس ولفظة (هرم)... وقد صرح أحد كبار العارفين في القرن السابق وهو الشيخ عبد الواحد يحيى René Guénon في مقال له عنوانه: (تابوت هرمس) بان كل واحد من الأهرام الثلاثة ينطوي على أمهات علوم الأنبياء الثلاثة الذين عاشوا قبل الطوفان وهم آدم وشيث وإدريس عليهم السلام، وللعلوم الإدريسية الهرم الأكبر... وهذا القول يُذكر بما قاله الشيخ الأكبر في كتابه (الإسفار عن نتائج الأسفار) عند حديثه عن سفر إدريس إلى السماوات والبروج وكيف أمر بنقش علومه في الصخور والأحجار حتى لا تندثر عند وقوع الطوفان في عهد نوح عليه السلام. ومن هذه الصلة بين ذي النون وإدريس والأهرام رشحت عند الناس رشحة فقيل أن ذا النون كان يقرأ ما نُقش في الأهرام من العلوم... وهي العلوم التي ذكرها الشيخ في قوله:

[فمن سافر إلى عالم قلبه كما سافر إدريس، عاين الملكوت الأفخم وتجلى

له الجبروت الأعظم، وعاين سر الحياة الذي هو روحها والساري بها في جميع الحيوانات،وفرق بين الروح الكثير والروح القليل، وأعطى كل ذي حق حقه،وعرف ما كتب نقوشه السفلية ومراتب أرواحه العلوية، وانبعاث الفروع من الأصول وانعطاف الفروع على الأصول، وصورة الكون وحكمه، وحكمة الدور وما أشبه هذا من المعارف...] انتهى.

وحيث أن لإدريس المقام الشمسي القلبي القطبي فإن له الجمع بين الأضداد فهو كما قال الشيخ عن الولي الإسرافيلي: له الأمر ونقيضه. وهذا هو مقام كمل أهل الأعراف المتحققين بالفرق في عين الجمع، وبالجمع في عين الفرق، وعنه يقول الشيخ (ف II ب219 ص512).

[فالعارف لا يُعرف إلا بجمعه بين الضدّين، فإنه حق كله، كما قال أبو سعيد الخراز، وقد قيل له: بم عرفت الله فقال بجمعه بين الضدّين، لأنه شاهد جمعهما في نفسه وقد علم أنه على صورته وسَمِعَه يقول: هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وبهذه الآية احتج في ذلك. ثم نظر إلى العالم فرآه إنساناً كبيراً في الجرم قد جمع بين الضدّين، فإنه رأى فيه الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ورأى فيه الأضداد، وهو أيضاً على صورة العالم كما هو على صورة الحق، فانظر ما أعجب هذه اللفظة من أبي سعيد. ولهذا المقام كان يشير ذو النون المصري في مسائله من إيراد الكبير على الصغير وإدخال الواسع في الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع. وقد ذكرنا هذه المسألة في معرفة الخيال من باب المعرفة من هذاالكتاب مستوفاً] (انتهى من باب معرفة البسط).

ومن العلوم الإدريسية أيضاً ما ذكره الشيخ (في II ب/167 ص275 - 276) من علوم السماء الرابعة: [علم تقليب الأمور الإلٰهيةو ومعنى قوله عليه السلام:ا لقلب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن، وبماذا يقلبانه، وغشيان الليل والنهار والنهار الليل وكيف يكون كل واحد منهما لصاحبه ذكراً وقتاً وأنثى وقتاً وسر النكاح والالتحام بينهما، وما يتولد فيهما من المولدات بالليل والنهار، والفرق بين أولاد الليل وأولاد النهار، فكل واحد منهما أب لما يولد في نقيضه وأم لما يولد فيه، ويعلم من هذه السماء علم الغيب والشهادة، وعلم الستر والتجلي، وعلم الحياة والموت، واللباس والسكن والمودة والرحمة، وما يظهر من الوجه الخاص من

الاسم الظاهر في المظاهر الباطنة، ومن الاسم الباطن في الظاهر من حكم استعداد المظاهر، فتختلف على الظاهر الأسماء لاختلاف الأعيان].

ومن علوم هذه السماء أيضاً ما ذكره الشيخ في (رسالة الأنوار):

[وهذا الموضع هو القلب، فإذا تجلى لك هذا العالم علمت الانعكاسات ودوام الدائمات وخلود الخوالد، وترتيب الموجودات وسريان الوجود فيها، وأعطيت الحكم الإلٰهية والقدرة على حفظها والأمانة على تبليغها إلى أهلها وأعطيت الرموز والإجمال والوهب على الستر والكشف].

ومن علومها أيضاً ما ذكره في (ف I ب15 ص155) وهو الباب المخصوص بمعرفة الأنفاس وقطبها إدريس عليه السلام - وهو باختصار:

[علم أسرار الروحانيات، وعلوم الدور، وعلم الضياء والبرق والشعاع وعلم الكمال في المعدن والنبات والحيوان والإنسان والملك، وعلم الحركة المستقيمة، وعلم خلع الأرواح المدبرات، وإيضاح المبهمات، وعلم النغمات وآثارها والعطريات ومزاجها].

ومن علوم هذه السماء أيضاً المسائل التي تحاور فيها الشيخ مع إدريس لما اجتمع به هنالك كما فصله في الباب (167) من (الفتوحات III ص346) وفي الباب السادس من كتابه التنزلات الموصلية.

خلاصة القول أن ذي النون كان من رجال الأنفاس الإدريسيين في مقام الأعراف، ومن ورثة عيسى في الحال، شعيبي العلم والمقال، مدده إسرافيلي ومشربه من عين جعفر الصادق- على الجميع السلام - وكل هذا من المقام المحمدي الجامع صاحب (**ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم**).

بقيت في الأخير قصة الشيخ الأكبر مع ذي النون بعد موته. ففي كتابه (التجليات) يذكر الشيخ اجتماعه البرزخي بأئمة الطريق الذين سبقوه ويفاوضهم في حقائق التوحيد ويرقيهم فيه،وكان منهم ذو النون وصاحبه سهل بن عبد الله التستري (ت: 283هـ) ويؤاخي بينهما. وقد بينتُ في بحث خاص أن كل تجل من الـ109 تجل المؤلفة لكتاب (التجليات) يرجع لآية من سورة البقرة.... وتحت عنوان تجلى سريان التوحيد يقول الشيخ: [رأيت ذا النون المصري في هذا التجلي وكان من

أظرف الناس فقلت له: يا ذا النون عجبت من قولك وقول من قال بقولك: «إن الحق بخلاف ما يُتصور ويُتمثل ويُتخيل» ثم غُشي عَلَيّ ثم أفقت وأنا أرعد ثم زفرت وقلت: كيف يخلى الكون عنه والكون لا يقوم إلا به؟ كيف يكون عين الكون وقد كان ولا كون؟! يا حبيبي يا ذا النون وقبلته وقلت: أنا الشفيق عليك لا تجعل معبودك عين ما تصورته منه ولا تخلي ما تصورته منه، ولا تحجبنك الحيرة عن الحيرة وقال ما قال فنفى وأثبت «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» ليس هو عين ما تُصور ولا يخلو ما تُصور عنه. فقال ذو النون: هذا علم فاتني وأنا حبيس والآن قد سُرِّحَ عني فمن لي به وقد قُبضتُ على ما قُبضت. فقلت: يا ذا النون ما أريدك هكذا، مولانا يقول: «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»والعلم لا يتقيد بوقت ولا بمكان، ولا بنشأة ولا بحالة، ولا بمقام، فقال لي: جزاك الله خيراً قد تبين لي ما لم يكن عندي وتحلت به ذاتي وفُتح لي باب الترقي بعد الموت، وما كان عندي منه خبر فجزاك الله خيراً]. فمرجع هذا التجلي لسريان التوحيد هو الآية (115) من البقرة: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وفي تجلي آخر يسميه الشيخ: (تجلي نور الغيب) يفاوض الشيخ سهل بن عبد الله التستري في التوحيد ويرقيه فيه ويقول في آخره: وواخيت بينه وبين ذي النون... وإنما أواخي بينهما لأن آية هذا التجلي أخت لآية تجلي سريان التوحيد وهي الآية (142) من البقرة: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فالمشرق له النور، والمغرب له الغيب، ولهذا سماه تجلي نور الغيب.

لكن تتلمذ ذي النون على الشيخ الأكبر في البرزخ لم يمنع الشيخ من مدحه مدحاً لائقاً بعظيم مقامه في قصيدة بدأ بها كتابه (الكوكب الدري) وهي: تتألف من 38 بيتاً على عدد اسم (ذو النون) بالحساب الصغير للجمل ونصها:

1 - اللوح والقلم الأعلى مع النونِ ... يدرون ما قلتُه في فضل ذي النون
2 - جرى به القلم الأعلى ففصّل ما ... قد كان أجمله الرحمٰن في النون
3 - جَرَت على السنة البيضاء سيرتُهِ ... فسار في الأمر بين الشد واللين
4 - إذا دعا الله في شيء يَعزّ لهِ ... كأنما الشيء بين الكاف والنون
5 - لله في قلبه نور تولد منِ ... نور الهداية والتوفيق والدين

6 - فكان يكشف ما تُخفي ضَمَائِرُنا ... بـه ويسترها من بعد تعيين
7 - سقى الإلٰـه ضريحاً أنت ساكِنُه ... صَوْبِ الغمام بأرواح الرياحين
8 - لك السياحة في الكونين أيَّدَكم ... بها المؤَيدُ عن كشف وتبيين
9 - فسحتُ في العالم الأعلى بهمتكُم ... وسُحتَ في العالم السفلي بالطين
10 - فكنت يُلْقَى إليك الأمر من كثب ... على التقابل والتثليث في الحين
11 - وكنت تلقى رجالَ الله معتمداً ... عليه والوقتُ بين العز والهون
12 - فتنتقي درراً من جوهر نَطَقَتِ ... به سرائر أهل الله مكنون
13 - أصبحتَ وارث مختار ومُصطنعٍ ... في علمه وهو عنكم غير مخزون
14 - سَرَى لك الأمرُ من مُلْكِ البهاءِ ... على نُجب الفناء بتهليل وتأمين
15 - وفي الرفارف من تنزلكم أثرٌ ... من عَيْن سِرٍّ بقلب الحر مدفون
16 - أسرت عليكم من العلياء ساريةٌ ... تسح ماءً فراتاً غَيْرَ مسنون
17 - فاستخرج الماءُ منكم كل طيبةٍ ... وَطَيّب بين مفروض ومسنون
18 - درّت لبون مواشيكم بفهمكم ... علْمَ السلوك فمنه السر يوليني
19-وجاء مضرب نحل الوحي بالعسل الأصفى ... يُصَفِّي صَفاً وُدّي ويسُريني
20 - وأسكَرَتكم بلا مزج ولا قدحِ ... يُدار في مجلسِ بنتِ الزراجين
21 - فأورثتْ طرباً لا يعتريه اسى ... وليس يعقبه صحو إلى حين
22 - جمعتَ حين أردت العز في عالمِ ... الأهواء ما بين يُرموك وصفِّين
23 - فلم تُبْقِ من الأكوان سُمركُمِ ... في قلبكم أثراً للخُرد العين
24 - هبّت عليكم بريَّا كل طيبةٍ ... تجري بها الريحُ ريحُ الهند والصين
25 - ظفرتَ بالغاية القصوى والناقةِ ... القَصْوا ورثا من الشم العرانين
26 - أفديك من مَلِك يعلو له مَلكٌ ... سر الوجود وسلطان السلاطين
27 - سألتكم ووجود الحق معتمدي ... فيه سؤال قريح القلب محزون
28 - على مكانتك الزلفى ورتبتك العليا ... ومحضرك الأجلى توليني
29 - في عالم القلب والأرواح دائرةِ ... للحفظ من نفثة المرد الشياطين
30 - فأصبحَ القلبُ مخصوصاً بلحظكمِ ... مؤَيداً بعلوم غير مفتون

31 - هَـبَّتْ علينـا ريـاح القـرب طَيِّـبَةِ   كأنَّمــا بُعــثت مِــنْ أرض داريــن

32 - يـرجو اتـصالاً علـى بُعْـدٍ ومنقـصةٍ   بمــا تحقــق ســرى غيــر ممــنون

33 - الله أكبــر لا أبغــي بــه بــدلاً   ولا بــصَفْوَتِه أهــلِ الميامــين

34 - وقـد سـألتُ إلـه العرش ما ذُكِرَتِ   في سورة النور والأعلى وفي التين

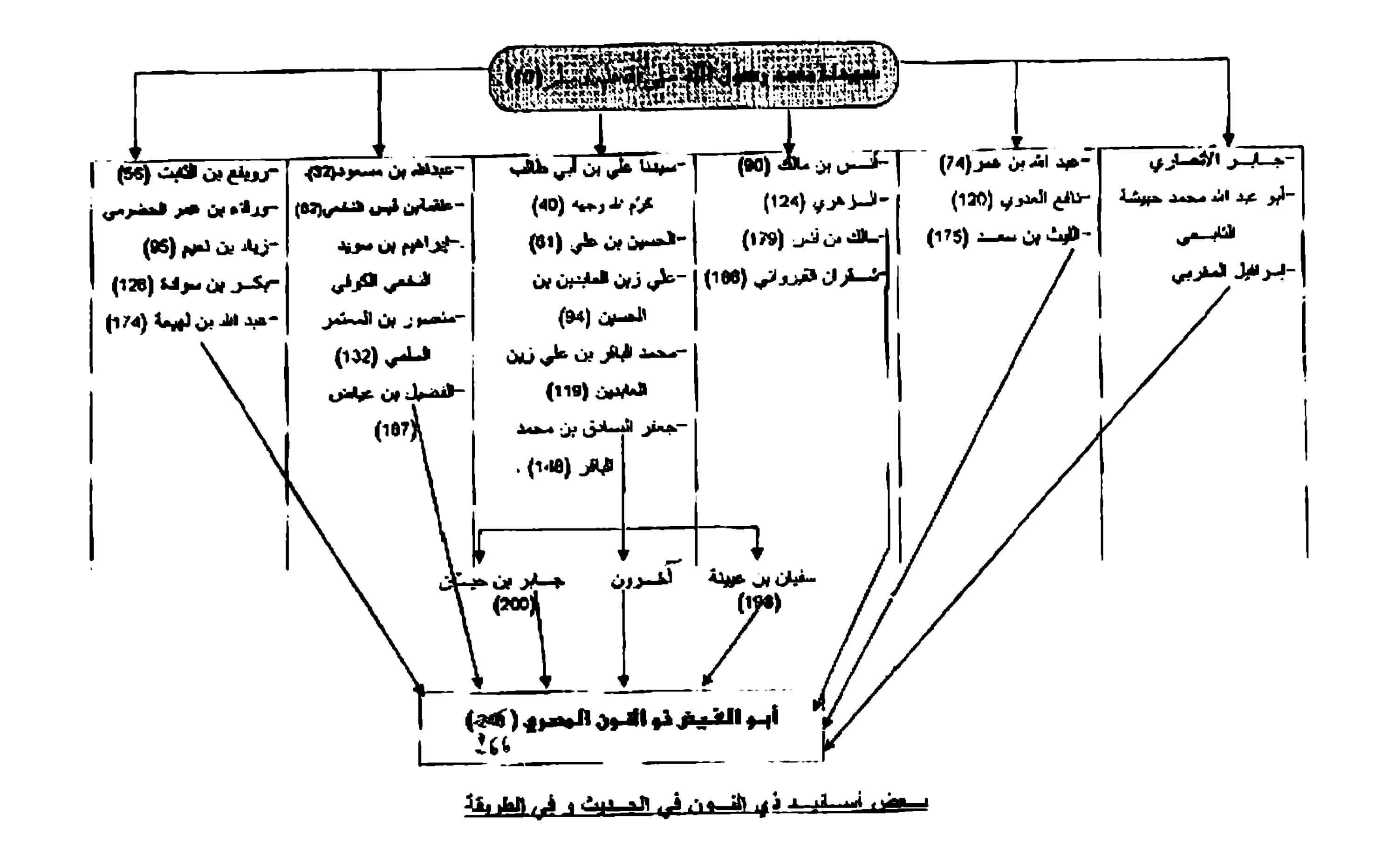
35 - من الصفات التي حلّى الوجود بهاِ   فكــان أبــدع تكــوين وتخمــين

36 - لابْنِـي وقـرة عينـي والمـساعد لـيِ   بالمـصطفين كـذي الـنون وذي الـنون

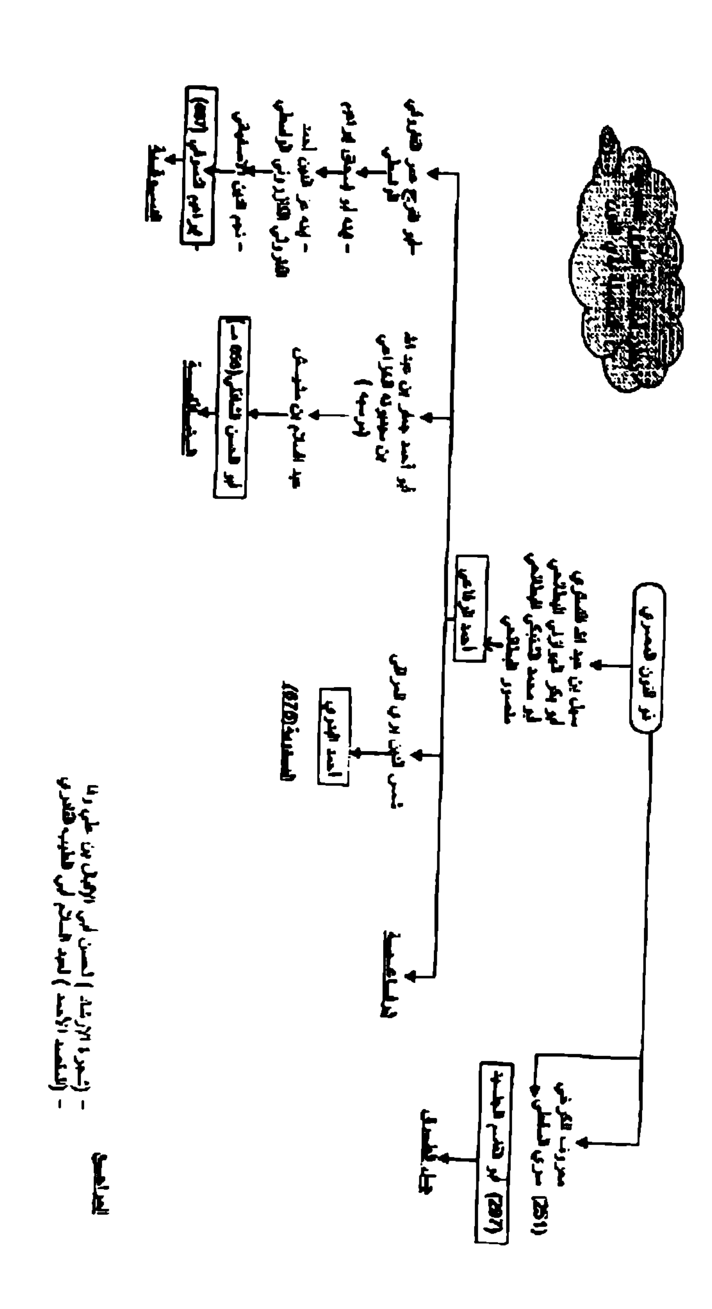
37 - ذا مــن نــبوته وذا مــا مــن ولايــتهِ   هــذا ليــسألَ بالأعلــى وبالــدون

38 - الله ينفعنــي بالقــصد فــيه بمــاِ   ســطرتُه يــوم تــرجيح المــوازين

- تمت بعون الله تعالى-



بعض أسانيد ذي النون في الحديث و في الطريقة


ذو النون المصري
سهل بن عبد الله التستري
أبو بكر الهوازلي البطائحي
أبو محمد الشنبكي البطائحي
منصور البطائحي
أحمد الرفاعي
معروف الكرخي
(251) سري السقطي
(297) أبو القاسم الجنيد
شمس الدين بري العراقي
أحمد البدوي
أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن سيدبونه الخزاعي
عبد السلام بن مشيش
أبو الحسن الشاذلي
أبو الفرج عمر الفاروثي الواسطي
- ابنه أبو إسحاق إبراهيم
- ابنه عز الدين أحمد الفاروثي الكازروني الواسطي
- نجم الدين الأصفهاني
إبراهيم الدسوقي
المراجع
- (شجرة الإرشاد) لحسن أبي الإقبال بن علي وفا
- (المقصد الأحمد) لعبد السلام أبي الطيب القادري

أهم المراجع حول ترجمة وأقوال ذي النون المصري مرتبة حسب عدد المقولات المنسوبة له

1 - **الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري:**

للشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن العربي الحاتمي (ت638 هـ)

- فيه أكثر من 500 مقولة عقب على نحو أربعين منها
- يوجد منه مخطوطان على الأقل.
- مخطوط اصطنبول، خزانة أحمد الثالث مكتبة توبكابي رقم 1378.
- مخطوط لايد Leyde مكتبة الجامعة، رقم 12645.
- ترجمة روجي دلادريار Roger Deladrière ونشره سنة 1988 بدار نشر سندباد بباريس تحت عنوان La Vie Merveilleuse de Dhu -L- Nun l'Egyptien°

2 - **السر المكنون في مناقب ذي النون:**

لجلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (ت911 هـ).

- فيه 402 مقولة لذي النون.
- منه مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 2043.

3 - **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:**

لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني (ت430 هـ).

- به 190 مقولة لذي النون.

مطبوع -ج9: ص331 - 395/ج10: 403.

4 - **تذكرة الأولياء:**

لفريد الدين العطار (ت: 628 هـ).

- 171 مقولة لذي النون.

5 - **مناقب الأبرار:**

لتاج الإسلام بن خميس الموصلي (ت552 هـ).

- 153 مقولة لذي النون.

- مخطوط بالمكتبة البريطانية British Library بلندن Add 23367

6 - تاريخ دمشق:

لأبي القاسم علي بن أبي محمد المعروف بابن عساكر (ت571 هـ).

- 124 مقولة لذي النون.

7 - تهذيب الأسرار:

لأبي سعيد عبد الملك بن أبي عقال الخركوشي الواعظ (ت407 هـ).

- 114 مقولة لذي النون.

- مخطوطة مكتبة برلين 2819.

8 - الكواكب الدري في تراجم السادة الصوفية:

لعبد الرؤوف المناوي (ت1030 هـ).

- 114 مقولة لذي النون مع تعقيبات ابن العربي في الكوكب الدري.

9 - صفة الصفوة:

لابن الجوزي جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن (ت597 هـ).

- 75 مقولة لذي النون (ج: 4 ص287 - 293).

10 - طبقات الصوفية:

لأبي عبد الرحمٰن السلمي (ت412 هـ).

- 31 مقولة لذي النون.

11 - الطبقات الكبرى:

لعبد الوهاب الشعراني (ت973هـ).

- بضع وثلاثون مقولة لذي النون (ج: 1 ص81 - 82).

12 - روض الرياحين في حكايات الصالحين:

لعفيف بن أبي محمد عبد الله اليافعي (ت768 هـ).

- بضع وثلاثون حكاية لذي النون.

13 - طبقات الأولياء:

لسراج الدين أبو حفص عمر بن علي المعروف بابن الملقن (ت804هـ).

- بضع وعشرون مقولة لذي النون.

14 - بهجة الأسرار ولوامع الأنوار [أخبار الصالحين]:

لابن جهضم (ت464 هـ أو 414 هـ).

- 21 مقولة لذي النون.

- المكتبة الظاهرية بدمشق مجموع: 6614.

15 - الرسالة القشيرية:

لأبي القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيري (ت465 هـ).

وشرحها المسمى: [نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية] لمصطفى ابن محمد الصغير العروسي (ت1293 هـ) (ص: 73 - 79).

16 - مراجع أجنبية:

- 1-Massignon: Essai sur les Origines du Lexique technique de la Mystique Musulmane. Paris 1954 vi med

- 2-Khovam: Propos d'amour des mystiques musulmans. Editions des l'orante 1960.

- 3-Shimmel: Mystical Dimensions of Islam. Chapel Hill. North Carolina 1983.

- 4-Demenghem: Vie des Saints Musulmans: Paris 1983. Sindbad Edition.

- 5-Encyclopedie de l'Islam: Tome II page 249 (Nouvelle édition).

17 - مراجع ثانوية:

1 - تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت463 هـ). (ج: 8 ص393 - 397).

2 - وفيات الأعيان لأبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن خلكان (ت381 هـ) ج: 1 ص126.

3 - سير أعلام النبلاء: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت748 هـ) ج: 8 ص142.

4 - مرآة الجنان للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أسعد اليافعي (ت 768 هـ) ج: 2 ص119 - 140.

5 - البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل ابن عمر المعروف بابن كثير (ت

774 هـ) ج: 1 ص317.

6 - درر الأبكار: ص132 و224.

7 - شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي (ت1089 هـ) ج: 2 ص107.

8 - الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي (فهرس الأعلام) - ط.القاهرة 1979.

18 - **المراجع التي ذكرها ابن عربي في مقدمته الكوكب دري هي التي أرقامها السابقة: 15/14/9/7/5/3.**

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني (ت430هـ).

- مناقب الأبرار لتاج الاسلام بن خميس الموصلي (ت552هـ).

- تهذيب الأسرار لأبي سعيد عبد الملك بن أبي عقال الخركوشي الواعظ (ت407هـ).

- صفة الصفوة لابن الجوزي جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن (ت597 هـ).

- بهجة الأسرار ولوامع الأنوار (أخبار الصالحين) لابن جهضم (ت 454 هـ أو 414 هـ).

- الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيري (ت465 هـ).

- المنقطعين لابن مغيث.

- الدخائر والأعلاق لابن سلام الشلبي.

- روايات ابن العربي عن شيوخه.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه دائما أبدا

الإمام أبو مدين والشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن العربي

مقدّمة: هو أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري إمام شيوخ التصوف في النصف الثاني من القرن السادس الهجري. ولد في أوائل ذلك القرن بنواحي اشبيلية، وطلب العلم بفاس، فقرأ الحديث - خصوصا سنن الترمذي - على أبي الحسن علي بن غالب (ت: 568هـ)، وأخذ الفقه وعلوم الشريعة على الفقيه الصوفي علي بن حرزهم (ت: 559هـ) الذي عرّفه بكتب أبي حامد الغزالي (ت: 505هـ) خصوصا«إحياء علوم الدين». وصحب الصوفي أبا عبد الله الدقاق (1)، وأبا الحسن السلاوي، ثم سلك الطريق الصوفية عند الوليّ المغربي الشهير الشيخ أبي يعزى (ت: 572) - (2) - وسافر للحج حيث اجتمع - حسب بعض الروايات - بقطب زمانه الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت: 561) الذي ألبسه الخرقة ولقنه الاسم الأعظم فأكمل تربيته على يديه حتى تأهل للإرشاد والمشيخة. ولما رجع من المشرق استقر ببجاية فذاع صيته وأقبل عليه المريدون من كل فج عميق، إلى أن استدعاه السلطان الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور (ت: 595) إلى عاصمته مراكش، فمات وهو متوجه إليها بالعُبّاد في ضاحية تلمسان وقبره بها مشهور. ربّى عدداً كبيراً من الرجال العارفين، وخلّف عشرا ت من الشيوخ الذين واصلوا الدعوة إلى الله تعالى شرقاً وغرباً. وأما آثاره المكتوبة فمجموعة من الحكم شرحها بعض العلماء (3)، ومجموعة من القصائد لا تزال إلى اليوم تردّد في حلق السماع الصوفي، وبعضها شُطِّر وشُرح (4). وذكر الزر كلي في كتابه (الأعلام) أن له كتابا عنوانه: (مفاتيح الغيب لإزالة الرّيب وستر العيب)، ولا يزال على ما يبدو مخطوطاً في إحدى المكتبات إن صحت نسبته إليه (5). ويقول صاحب الكواكب الدرية أن له تصانيف منها كتاب " أس التوحيد"، لكن يبدو أن العنوان الحقيقي هو (انس الوحيد ونزهة

المريد) وهو الكتاب المجموع فيه بعض حكم وأقوال أبي مدين. واختلف في سنة وفاته بين عامي 588 و594هـ حسبما ذكره معاصر له، وهو الشيخ أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي المعروف بابن الزيات (ت: 617هـ) في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف» (6). والراجح عندي هو: 589هـ، لأن الشيخ الأكبر - وهو أعلم الناس بسيرته إذ يعتبره أكبر شيوخه - يصرح بذلك التاريخ في عنوان الباب 556 من الفتوحات المكيّة الذي هو: [في معرفة حال قطب كان منزله: «تبارك الذي بيده الملك» وهو من أشياخنا درج سنة 589 رحمه الله] ثم يواصل كلامه فيقول (كان هذا الهجير والمقام لشيخنا أبي مدين). والشيخ محيي الدين سافر من تلمسان إلى تونس عام 590 - وعمره حينذاك ثلاثون سنة - لزيارة الشيخ عبد العزيز المهدوي (ت: 621هـ) أحد خلفاء أبي مدين من دون أن يمرّ في طريقه على بجاية. فهل يعقل أن لا يزور حينئذ أبا مدين لو كان حيّاً؟ (7) ومما يؤكد هذا أن الشيخ الأكبر، عند رجوعه من تونس إلى الأندلس، كتب رسالة نفيسة إلى أصحاب المهدوي عامة، ولابن عم الشيخ الأكبر خاصة - وهو أيضا من أصحاب المهدوي، واسمه أبو الحسين علي بن عبد الله بن محمد بن العربي - وفي هذه الرسالة المؤرخة سنة 590هـ يذكر أبا مدين بأسلوب يوحي أنه توفي قبل تلك السنة فيقول: [كان شيخ الشيوخ، سلطان الوارثين، سر العارفين، لسان وقته أبو مدين رضي الله عنه، وكان شيخ جمال الحفاظ، رئيس العلماء عماد الرواة الأثبات، رأس الزاهدين المحدثين، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي (8)، الخطيب المؤلف، قد واخاه ببجاية، وأقر له بالسبق في طريق الحق، وإرشاد الخلق. فكان الشيخ أبو محمد إذا دخل على سيدنا أبي مدين ويرى ما أيده الله به ظاهرا وباطنا، كان يجد في نفسه حالة سنية لم يكن يجدها من قبل حضور مجلسه، فيقول عند ذلك: « هذا وارث على الحقيقة » فقد قال النبي، عليه السلام: لو كنتم في أهليكم كما كنتم عندي لصافحتكم الملائكة في الطرق، أو كما قال عليه السلام، مما هذا معناه. فلشهود النبي عليه السلام في نفس المشاهد حالة ما لا يجدها إلا عند مشاهدته. كذلك الأولياء عند مشاهدة الغير لهم. هذا ضروري يجده كل من جالسهم وشاهدهم...]

صلة الشيخ الأكبر بأبي مدين وأصحابه:

بين الشيخ الأكبر علاقته بأبي مدين عند ترجمته لأحد أخص أصحابه وهو موسى بن عمران السدراني الذي اجتمع به عام 586، وعمر الشيخ حينذاك 26سنة فيقول (9):

[كان من الأبدال، وكان مجهولا له عجائب وغرائب. كان سبب اجتماعي به أني قعدت بعد صلاة المغرب بمنزلي بأشبيلية في حياة الشيخ أبي مدين، وتمنيت أن لو اجتمعت به، والشيخ في ذلك الزمن ببجاية مسيرة 45 يوما. فلما صليت المغرب تنفلت ركعتين خفيفتين، فلما سلمت دخل عليَّ هذا أبا عمران، فسلم فأجلسته إلى جانبي وقلت: من أين؟ فقال: من عند الشيخ أبي مدين من بجاية. قلت: متى عهدك به؟ قال صليت معه هذا المغرب، فرد وجهه إلي وقال: إن محمد بن العربي بإشبيلية خطر له كذا وكذا، فسز إليه الساعة وأخبره عني بكذا وكذا. وذكر ما خطر لي من رغبتي في لقاء. الشيخ، وقال لي: يقول لك: أما الإجتماع بالأرواح فقد صحّ بيني وبينك وثبت، وأما الإ جتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك، فسكِّن خاطرك، والموعد بيني وبينك عند الله في مستقر رحمته. وذكر كلاما خلاف هذا ورجع إليه. كان هذا موسى - ﷺ - من أهل السعة في الدنيا فخرج عنها، ففتح الله عليه في ثمانية عشر يوما، والتحق بالأبدال. كان يتبوأ من الأرض حيث يشاء. وجيء به إلى السلطان فأمر بتقييده، فقيد بالحديد وسير به إليه، فلما قرب من فاس ألقي في بعض المنازل في بيت وأقفل عليه، وبات عليه الحرس. فلما أصبح الصبح فتح الباب فوجد والحديد الذي كان عليه مطروحا، وما وجدوا أحدا.

دخل فاس وقصد دار أبي مدين شعيب فقرع عليه الباب، فخرج الشيخ بنفسه وقال له: من أنت؟ قال: أنا موسى. قال له الشيخ: وأنا شعيب أدخل نجوتَ من القوم الظالمين... أخبرني شيخي أبو يعقوب الكومي عنه أنه وصل جبل قاف المحيط بالأرض فصلّى الصبح على أسفله وصلى العصر على ذروته، سئل عن ارتفاعه فقال: مسيرة ثلاثمائة سنة. وأخبر أنّ الله طوّق هذا الجبل بحية اجتمع رأسها بذنبها. فقال له صاحبه الذي كان معه: سلِّم على هذه الحية تردّ عليك، قال موسى: فسلمت عليها فقالت: وعليك السلام يا أبا عمران، كيف حال الشيخ أبي مدين؟

فقلت لها: وأنّى لك بمعرفة أبي مدين؟ فقالت: عجبا وهل على وجه الأرض من يجهل حاله؟ إن الله تعالى قد أنزل حبّه إلى الأرض ونادى به، فعرفته أنا وغيري فلا شيء من رطب ولا يابس إلا ويعرفه ويحبه].

وأبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي المذكور في النص السابق هو أيضا من أوائل الشيوخ الذين صحبهم الشيخ الأكبر، وهو أيضا من خاصة أصحاب أبي مدين. ذكره الشيخ الأكبر في (روح القدس) وفي الفتوحات (10) وخلاصة ما قاله عنه: [صحب أبا مدين، وكان شديد التعظيم له. سكن مصر وتأهل بالإسكندرية، رغب في مصاهرته أبو طاهر السلفي. عرضت عليه ولاية فاس فأبى. له في الطريق قدم راسخة. كان أبو مدين لسان هذه الطريقة ومحييها بالمغرب يقول فيه: « أبو يعقوب مثل المرساة القوية للسفينة » كان كثير الأوراد، يخفي صدقته، دائم الخدمة للفقراء. دخلت تحت أمره فربىّ وأدّب فنعم المؤدّب والمربي. كبير الهمّة، الغالب عليه إخفاء أحواله. جل ما أنا فيه من بركته وبركة أبي محمد المورروري. أوّل مسألة ألقاها عليّ في أوّل ساعة رأيته فيها وقد أقبل عليّ بكليته أن قال: ما الذنب الذي يأتيه المار بين يدي المصلي حتّى يودّ أن يقف أربعين خريفا؟ فأجبته على ذلك على حد ما وقع له فسرّ بذلك. ولما صحبته لم أكن قط أدري لفظة التصوّف على ماذا تنطلق ولا رأيت كتابا في التصوف. كنت إذا قعدت بين يديه وبين يدي غيره من شيوخنا أرتعد ويتغيّر لوني وتتخدّر جوارحي فيؤنسني فلا يزيدني ذلك إلا إجلالا. وقعت لي معه كرا مات وشهدتها منه. وكان من صدقي في محبته اني أتمناه بالليل في بيتي لمسألة تخطر لي فأراه أمامي فأسأله ويجيبني ثم ينصرف فأخبره بذلك بكرة. ومناقبه أكثر من أن تحصى. سمعته يقول: «إذا شاء الشيخ أخذ بيد المريد من أسفل سافلين وألقاه في علّيين في لحظة واحدة». وكان يقول: « بيننا وبين الحق المطلوب عقبة كؤود ونحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة، فلا نزال نصعد في تلك العقبة حتّى نصل إلى أعلاها، فإذا استشرفنا على ما وراءها من هناك لم نرجع فإنّ ورآءها ما لا يمكن الرجوع عنه». وأفادني شيخنا هذا مسألة الوصال في الصوم، وإذا أحبّ الله عبدًا ابتلاه، وأنا سيد ولد آدم، وآدم ومن دونه تحت لوائي، والتدبير نصف المعيشة، وقلب القرآن يس، وحين فارقته وأنا متوجه إلى مراكش عام 597، وهو بسلا، نظمت فيه قصيدة أودعتها كتاب «إنزال الغيوب على مراتب القلوب».]

والموردوي الذي ذكره الشيخ مع الكومي هو أيضا من تلاميذ أبي مدين وأكمل سلوكه - رغم علوّ مقامه - عند الشيخ الأكبر الذي يقول عنه ما خلاصته (11).

[هو أبو محمد عبد الله بن الأستاذ الموروري من مورور بالأندلس. واحد عصره من ثقته بالله وعظيم إخلاصه. صحب أبا مدين وابن سيدبون، وحج مع عبد الرزاق المغاور. كان أبو مدين يحبّه جدّاً ويسميه الحاج المبرور. قال له يوما: « يا عبد الله كبر عليّ دعائي الناس إلى الله ولا يجيب أحد، وأريد أن أصطفيك لنفسي. تخرج معي إلى بعض الجبال، فألزم مغارة تصحبني فيها إلى أن أموت». قال ففرحت بذلك وعلمت أنّ لي عند الله مكانة فلمّا كان في الليل قال عبد الله نمتُ فرأيت الشيخ في النوم إذا تكلّم على الناس صار شمسا، وإذا سكت صار قمراً. فقصصتها عليه بكرة، فتبسّم وقال: الحمد لله، يا ولدي أريد أن أكون شمسا فإنّ الشمس تُفني كلّ ظلمة وتكشف كل كربة... ولقد أطلعني الله عز وجل ليلة على المقامات ومشى بي عليها حتى وصلت مقام التوكل فرأيت شيخنا هذا عبد الله في وسط ذلك المقام، والمقام يدور عليه كدوران الرحا على قطبها، وهو ثابت لا يتزلزل فكتبت له بذلك. ورأيت له كرامات من طي للأرض ورزق من الغيب وفعل بالهمّة. وجاء إلينا إلى اشبيلية وقال لي: قد قصدتك لتعرفني بالله. فلازمني حتى أعرف الله بالقدر الذي يمكن للمحدث أن يعرفه به من طريق الكشف والشهود لا من طريق الأدلّة النظرية. وتركته على قيد الحياة لما فارقت الأندلس عام 597]. وقبل سنة 590كان الشيخ قد زاره بموروروحيث كتب كتابه «التدبيرات الإلٰهية» في أربعة أيام وأهداه لصاحبه هذا قطب التوكل في زمانه.

ومن تلاميذ أبي مدين الآخرين الذين صحبوا الشيخ الأكبر أبو أحمد السلاوي. قال عنه ما خلاصته (12): [وصل إلينا إلى اشبيلية وأنا في تربية شيخنا أبي يعقوب. كان قوي الحال. صحب أبا مدين 18 سنة. كان كثير الاجتهاد والعبادة، شديد البكاء. بت معه شهرا كاملا بمسجد أبي جراح. فقمت ليلة للصلاة فرأيته نائما والأنوار متصلة منه إلى السماء. كان إذا بكى أجد لدموعه رائحة المسك].

ومن أصحاب أبي مدين الآخرين الذين صحبهم الشيخ الأكبر الشيخ الصالح الفقيه المحدث أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي (ت: 609) صحبه وأخذ عنه دروسا في الحديث بسبتة عام 589 بعد وفاة أبي مدين في نفس

السنة (13)، كما لقي ببجاية سنة 597 من أصحاب أبي مدين أبا إسحاق القرطبي (14). وقبل ذلك، في سنة 593اجتمع في فاس بقطب الزمان الذي سمّاه في كتابه (الدرّة الفاخرة) بالأشل القبائلي لأنّ أصله من بجاية وكان مشلول اليد. ومن المحتمل جداً أن يكون من أصحاب أبي مدين، وورث مقامه في القطبانية الكبرى، وقال الشيخ عنه: [كان كثيراً ما يزورنا فلا يتكلم إلا في القرآن] ثم ذكر قصّة اجتماعه به (15).

ومن الذين كانت لهم علاقة بأبي مدين، ولقيهم الشيخ الأكبر بتلمسان عندما زارها سنة 590 - إثر وفاة أبي مدين بالعباد حيث يوجد أيضاً قبر أحد أخوال الشيخ محيي الدين وهو يحي بن يغان (ت: 537) الذي كان ملكاً بتلمسان ثم تخلّى عن الملك وأصبح من الزهاد العباد إثر لقائه بشيخه الناسك أبي عبد الله عبد السلام التونسي (16) - الشيخ أبو عبد الله الطرطوسي (17). ذكر الشيخ واقعة حصلت بينهما في باب الوصايا من الفتوحات حيث قال (18):

[وإياك وبغض من ينصر الله ورسوله أو يحب الله ورسوله. ولقد رأيت رسول الله ﷺ سنة تسعين وخمسمائة في المنام بتلمسان. وكان قد بلغني عن رجل يقع في الشيخ أبي مدين. وكان أبو مدين من أكابر العارفين. وكنت أعتقد فيه، وكنت فيه على بصيرة. فكرهت ذلك الشخص لبغضه في الشيخ أبي مدين. فقال لي رسول الله: ﷺ «لم تكره فلاناً؟ فقلت: لبغضه في أبي مدين. فقال لي: أليس يحبّ الله ويحبّني؟ فقلت له: بلى يا رسول الله إنّه يحب الله ويحبك. فقال لي: لما تبغضه لبغضه أبي مدين وما أحببته لحبّه الله ورسوله؟ فقلت له من الآن اني والله زللت وغفلت والآن فأنا تائب وهو من أحبّ النّاس إليّ فقد نبّهت ونصحت صلى الله عليك. فلما استيقظت أخذت معي ثوباً له ثمن كبير أو نفقة لا أدري، وركبت وجئت إلى منزله، فأخبرته بما جرى فبكى وقبل الهديّة وأخذ الرؤيا تنبيها من الله، فزالت عن نفسه كراهته في أبي مدين وأحبّه. فأردت أن أعرف سبب كراهته في أبي مدين مع قوله إنّ أبا مدين رجل صالح فسألته فقال: كنت معه ببجايه فجاءته ضحايا في عيد الأضحى فقسمها على أصحابه وما أعطاني منها شيئا، فهذا سبب كراهتي فيه ووقوعي، والآن قد تبت. فانظر ما أحسن تعليم النبي صلى الله عليه وسلم. فقد كان رفيقا رقيقاً.] انتهى. وفي هذه القصّة تنبيه على وجوب تقديم الأولويات وعلى

ضرورة الإنصاف.

وفي قصر كتامة الذي يبعد عن طنجة بنحو 90 كيلومتر جنوبا اجتمع الشيخ بأحد إخوان أبي مدين وأصحابه وهو الفقيه المحدث الصوفي عبد الجليل بن موسى الأنصاري القصري (ت608) مؤلف «مسائل شعب الإيمان» ووصفه ابن قنفد «في انس الفقير - ص 33» بأنّه كان كثير البكاء ومن الصالحين العباد وكذلك وصفه مؤلف التشوف (ص416).

وفي سنة 594 أخذ الشيخ الأكبر خرقة التصوف في فاس عن أحد علماء الأولياء الذين صحبوا أبا مدين وأبا يعزى وهو الشيخ محمدين قاسم التميمي (ت: 604) مؤلف كتاب (المستفاد في ذكر العُبّاد بمدينة فاس).

وخلال سياحته الأخيرة في الأندلس عام 595 اجتمع الشيخ في بلده مرسية بمن سمّاه: «الأوحدي الإمام أبي أحمد بن سيدبون (ت: 624هـ)»وهو من خلفاء أبي مدين. وقد ذكره في الباب 282 من الفتوحات المتعلق بسورة العلق (19) خلال إشارته لآيتها: «اقرأ باسم ربك» فقال عنه: [ولقيت الشيخ أبا أحمد بن سيدبون بمرسية وسأله إنسان عن اسم الله الأعظم فرماه بحصاة يشير إليه إنّك اسم الله الأعظم. وذلك أن الأسماء وضعت للدلالة، فقد يمكن فيها الاشتراك، وأنت أدل دليل على الله وأكبره]. وفي الباب 283 يعود إلى ذكره (20) فيقول عنه وعن أبي حامد الغزالي التبس عليهما الأمر في قولهما إنّ الإنسان يعصم من الشيطان إذا ارتقى عن عالم العناصر وفتحت له أبواب السماء. فردّ الشيخ عليهما أنّ ذلك صحيح لو كان المعراج جسما وروحاً كمعراج رسول الله ﷺ، وأما من عرج به خاطره أو روحانيته فلا يأمن من التلبيس إن لم يكن له علامة إلٰهية يكون فيها على بينة من ربه. وعندما لقيه الشيخ في زيارته الأخيرة له وجده في حالة قبض ثم قال عنه: [فرحلت من عنده وقد بكى لفراقي متفجعاً وخرج معي إلى الطريق مشيعاً...] (21).

وإثر وفاة الشيخ أبي مدين عام 589 عزم الشيخ الأكبر على زيارة اثنين من أكبر خلفائه بتونس. فسافر إليهما عام 590 ومكث عندهما نحو سنة. إنّهما الشيخان ابن خميس الكتاني الجراح وعبد العزيز المهدوي. ذكر الشيخ ابن خميس في الفتوحات وروح القدس والدرّة الفاخرة (22) وخلاصة ما قال فيه:

[هو عبد الله بن خميس الكتاني جرائحي مدينة تونس. كان من سادات القوم مرابط بمرسى عبدون، لقيته وزرته حافياً على قدميّ. ألهمه الله بقدومي إليه قبل وصولي عنده فاستقبلني مستبشراً وهو يتوكأ على عصا لكبر سنّه. جلست معه أياما نتذاكر في المعارف. وكان يجتمع بالخضر الذي لقيته أنا أيضاً بتونس].

وتوفي ابن خميس في نفس هذه السنة 590التي صحبه فيها الشيخ وكان قد سلك الطريق عند أبي مدين الذي كان يحبّه ويجلّه حتى قال مرّةً معبراً عن شوقه له: « لو كان لي جناح لطرت إلى الجرّاح ».

وأمّا صاحبه المهدوي فيقول عنه ابن قنفد في «أنس الفقير» (ص97 - 98) [الشيخ الإمام العارف بحر الأنوار ومعدن الأسرار أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر (...) ارتحل إلى بجاية برسم لقاء أبي مدين ليكمل تربيته في ستة من الأخيار (...) وله الكتابة الحسنة والشعر الرائق. وكانت بينه وبين الشيخ أبي مدين ﷺ مكاتبات ومراسلات]. وكان الشيخ الأكبر شديد التعظيم للشيخ المهدوي فأهدى له كتاب (روح القدس) وكتب في مناقبه كتابا عنوانه: «فضائل الشيخ عبد العزيز المهدوي» وإليه يتوجه في خطبة الفتوحات واصفا له ب «العاقل الأديب الولي الحبيب ». وقبل سفره النهائي إلى المشرق مكث عنده بتونس نحو تسعة أشهر خلال سنة598

هـ. بعض احوال ابي مدين ومقاماته

ممّا سبق يتبيّن أنّ الشيخ الأكبر كان على صلة روحيّة وثيقة عميقة مع أبي مدين رغم عدم اجتماعهما الجسدي. ويمكن القول أنّ السنوات العشر الأولى من سلوك الشيخ في الطريق رياضة وتربية - من 580 إلى 589 - كانت جُلّها في دائرة روحانية أبي مدين. وجل الشيوخ الذين صحبهم في المغرب والأندلس والجزائر وتونس ومصر كانوا من أصحاب وتلاميذ أبي مدين أوْ لهم صلة بمدرسته الروحية. ولهذا نجد الشيخ يكثر من ذكره في كتبه معظما لمقامه، فذكره في الفتوحات نحو 50 مرّة. ولم يَفُقْهُ في كثرة الذكر في الفتوحات من أئمة التصوف إلاّ أبو يزيد البسطامي (ت: 261هـ) الذي تردد ذكره فيها نحو: 145 مرة. كما ذكره أيضا في العديد من كتبه الأخرى. فذكر طرفا من أقواله وأحواله في (محاضرة الأبرار) وفي كتاب الباء وفي (مواقع النجوم) وفي (منزل القطب والإمامين) وغيرهما من كتبه ورسائله. وحتى في (فصوص الحكم) في فص لوط ﷺ يبين أن أبا مدين كان من

أقطاب التوكل والتفويض ودوام الافتقار والعجز في حضرة الحق تعالى فيقول:

[فيظهر العارف التام المعرفة بغاية العجز والضعف. قال بعض الأبدال للشيخ عبد الرزاق ﷺ: قل للشيخ أبي مدين بعد السلام عليه، يا أبا مدين لم لا يعتاص علينا شيء وأنت تعتاص عليك الأشياء. ونحن نرغب في مقامك وأ نت لا ترغب في مقامنا؟ وكذلك كان مع كون أبي مدين ﷺ كان عنده ذلك المقام وغيره (أي مقام الأبدال أهل الهمّة المتصرفة). ونحن أتمّ في مقام الضعف والعجز منه. ومع هذا قال له هذا البدل ما قال].

ويصف الشيخ الأكبر من أحوال أبي مدين تمكنه في مقامات الورع والتجريد والتوكل. يقول عنه مثلاً (23) عند كلامه على علم المناسبة: [وكان رجل من التجار يقول لشيخنا أبي مدين: أريد منك إذا رأيت فقيراً يحتاج إلى شيء تعرّفني حتى يكون ذلك على يديّ. فجاءه يوما فقير عريان يحتاج إلى ثوب. وكان مقام الشيخ وحاله في ذلك عدم الاعتماد على غير الله في جميع أموره في حقّ نفسه وفي حقّ غيره، فإن الشيوخ قد أجمعوا على أن من صحّ توكله في نفسه صحّ توكله في غيره. فتذكر أبو مدين رغبة التاجر، فخرج مع الفقير إلى دكان التاجر ليأخذ منه ثوبا. فماشاه إنسان أنكره الشيخ فسأله عن دينه فإذا هو مشرك، فعرف المناسبة وتاب إلى الله من ذلك الخاطر، فالتفت فإذا بذلك الرجل قد فارقه ولم يعرف أين ذهب. فلما أخبرت بحكايته علمت أنّ الله قد أرسل إليه من خاطره شيخا ينبهه].

ومن وقائع أبي مدين المشهورة التي حصلت له في بداياته والدالة على بلوغه في التجريد غايته ما ذكره عنه الشيخ الأكبر (24) وهو أنه نسي في جيبه دينارا في حال تجريده وكان كثيرا ما ينقطع للتعبد في جبل الكواكب. وكانت هناك غزالة تأتي إليه فتدر عليه فيكون ذلك قوته. فلما جاء إلى الجبل جاءت الغزالة وهو محتاج إلى الطعام فمدّ يده على عادته إليها ليشرب لبنها، فنفرت عنه، وما زالت تنطحه بقرونها. ففكر في سبب ذلك فتذكر الدينار فأخرجه من جيبه ورمى به فرجعت إليه الغزالة وآنست به ودرّت عليه] ويبرر أبو مدين تجريده المطلق هذا خلال بداياته بما ذكره عنه الشيخ الأكبر عند حديثه عن صوم الضيف فيقول ما ملخصه (25): [كان شيخنا أبو مدين بالمغرب قد ترك الحرفة وجلس مع الله على ما يفتح الله له، وكان على طريقة عجيبة مع الله في ذلك الجلوس فإنّه كان ما يردّ شيئا

يؤتى إليه به مثل الإمام عبد القادر الجيلي سواء، غير أنّ عبد القادر كان أنهض في الظاهر لما يعطيه الشرف. فقيل له: يا أبا مدين لما لا تحترف؟ فقال: الضيف عندكم إذا نزل بقوم وعزم على الإقامة كم توقيت زمان وجوب ضيافته عليكم؟ قالوا: ثلاثة أيام فقال: نحن أضياف ربنا تعالى نزلنا عليه في حضرته على وجه الإقامة عنده إلى الأبد فتعينت الضيافة ثلاثة أيام. وأيام ربنا كما قال: «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون» فإذا أقمنا عنده ثلاثة آلاف سنة وانقضت ولا نحترف يتوجه اعتراضكم علينا. فاستحسن ذلك منه المعترض. فانظر في هذا النفس إن كنت منهم].

وللصوفية عناية كبيرة في انتقاء المأكل الحلال الذي لا شبهة فيه، لأنّ السنة النبوية بيّنت أنّ قبول الطاعات والعبادات منوط باللقمة الحلال، فمن أعظم نعم الله على عبده توفيقه لتناول ما لا شبهة فيه. ولتنبيه أصحابه على هذه النعمة وإرشادهم إلى شكر الله عليها سَنّ لهم ركعتين بعد الفراغ من الطعام يقرأ في الأولى «لإيلاف قريش» وفي الآخرة «قل هو الله أحد» (26). وفي قصيدته المشهورة في بيان أخلاق أهل الطريق التي مطلعها:

ما لـذّة العـيش إلا صـحبة الفقـرا   هـم السلاطين والسادات وا لأمـر ا

بيّن أنّ من أخلاقهم الجود وإطعام الطعام والحلم الذي هو جود معنوي، فقال في وصف شمائل الفتوّة:

وبالتفتـي علـى الاخـوان جـد أبـدا   حسا ومعنى وغض الطرف إن عثرا

وفي الباب 146من الفتوحات في معرفة مقام الفتوّة ذكر الشيخ الأكبر طريقة أبي مدين في اختيار أكله فقال ما ملخصه (27):

[كان الشيخ أبو مدين رحمه الله إذا جاءه مأكول طيب أكله، وإذا جاءه مأكول خشن أكله، وإذا جاع وجاءه نقد علم أنّ الله قد خيره إذ لو أراد الله أن يطعمه أي صنف شاء من المأكولات جاء به إليه. فينظر ما فيه صلاح المزاج للعبادة لالاتباع الشهوة...]

وخلال مجاهداته في بداياته، صحب أبو مدين الشيخ أبا يعزى (: 572) وقصّته معه عند لقائهما الأوّل مشهورة ذكرها الشيخ الأكبر في الباب 438 من الفتوحات عند بيانه الفرق بين الأحوال المحمديّة والأحوال الموسوية فقال ما ملخصه (28).

[ألا ترى إلى رسول الله ﷺ كيف أسري به إلى المقام الذي قد عُرف، فلما خرج إلى الناس بكرة تلك الليلة وذكر ما جرى بينه وبين ربه تعالى. أنكر عليه بعضهم لكونهم ما رأوا لذلك أثراً في الظاهر بل زادهم حكما في التكليف - أي فرض الصلاة -، وموسى عليه السلام لما جاء من عند ربه كساه الله نوراً على وجهه يعرف به صدق ما ادّعاه فما رآه أحد إلاّ عمي من شدّة نوره، فكان يتبرقع. وكان شيخنا أبو يعزى بالمغرب موسوي الإرث، فأعطاه الله هذه الكرامة فكان ما يرى أحد وجهه إلاّ عمي فيمسح الرائي إليه وجهه بثوب مماً هو عليه فيرد الله عليه بصره، وممّن رآه فعمي شيخنا أبو مدين رحمة الله عليهما حين رحل إليه فمسح عينيه بالثوب الذي على أبي يعزى فردّ الله عليه بصره، وخرق عوائده بالمغرب مشهورة، وكان في زماني وما رأيته لما كنت عليه من الشغل، وكان غيره من الأولياء المحمديين ممّن هو أكبر منه في العلم والحال والقرب الإلٰهي لا يعرفهم أبو يعزى ولا غيره]

ومن كرامات أبي يعزى التي ذكرها في الفتوحات قوله (29):

[حكى لنا عن جماعة منهم أبو البدر عن شيخنا عبد القادر رحمه الله أنه قال: إنّ السنة تأتيني إذا دخلت فتخبرني بما يكون فيها وما يحدث، وكذلك الشهر والجمعة واليوم، وكذلك كان الشيخ أبو يعزى أبو النور ببلاد المغرب كان إذا دخل رمضان جاء يعلمه بما قبل فيه من العمل وممن قبل...]

وحيث أنّ مدار التصوّف على حسن الخلق فقد أشار الشيخ إلى بعض مكارم أخلاق أبي مدين خصوصاً في معاملاته، مثال ذلك قوله (30):

[كان شيخنا أبو مدين وقع بينه وبين أبي الحسن بن الدّقاق، وكان ابن الدقاق ممّن يغشاه ويحضر مجلسه، فانقطع عن حضور مجلسه لأجل ذلك، فاستدعاه الشيخ أبو مدين وقال له: يا أبا الحسن ما شأنك انقطعت؟ إنّ شيطاني خاصم شيطانك ونحن على ودّنا كما كنا ما تغيّرنا ولا ندخل أنفسنا بينهما. فتذكر أبو الحسن وقبل وصيّة الشيخ واستغفر الله ورجع إلى حضور مجلسه].

وهذه القصّة تذكّر بما ذكره إبليس فيما رواه الشيخ خلال مقارنته لقلوب الأولياء بالكعبة المشرّفة فقال (31):

[أخبرني بعض الأولياء من أهل الله وهو عبد الله بن الأستاذ الموروري أنّ

الشيخ عبد الرزاق أو غيره، الشك مني بل غيره بلا شك فإني تذكرته، رأى إبليس فقال له: كيف حالك مع الشيخ أبي مدين عبد صالح إمام في التوحيد والتوكل كان ببجاية؟ فقال إبليس: ما شبهت نفسي مما نلقي إليه في قلبه إلاّ كشخص بال في البحر المحيط فقيل له: لم تبول فيه؟ قال: حتى أنجسه فلا تقع به الطهارة فهل رأيتم أجهل من هذا الشخص؟ كذلك أنا وقلب أبي مدين، كلما ألقيت فيه أمراً قلب عينه].

وفي هذا النصّ وصف أبي مدين بالإمام في التوحيد،وهو ما أكّد عليه الشيخ الأكبر. ففي الباب 501 من الفتوحات وهو في معرفة حال قطب كان منزله ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ - الأنعام: 40 - يقول (32):

[... فيعطي هذا الذكر بكرم الله ما ليس عند أحد من خلق الله ممّن ليس له هذا الذكر والدؤوب عليه، ولم أسمع بأحد تحقق به في زماني مثل الشيخ أبي مدين ببجاية رحمه الله]. وكذلك قال في الباب 504 وهو في معرفة قطب كان منزله: (قل الله ثمّ ذرهم) - الأنعام: 91 - إلى هنا كان هجير شيخنا أبي مدين رحمه الله، وزاد بعضهم قوله تعالى: (في خوضهم يلعبون) (33). والهجير هو الذكر الذي يلازمه الذاكر حتى يتحقق بمعانيه ويتخلّق بها. وإلى تلك الآية يشير أبو مدين في قصيدته المشهورة التي مطلعها

الله قــل وذر الوجــود ومــا حــوى	إن كــنت مــرتادا بلــوغ كمــال
فالكـــــل دون الله إن حققـــــته	عــدم علــى التفـصيل والإجمــا ل

وكذلك قوله:

إذا نظـرت بعـين عقلـك لـم تجـد	ســواه علــى الــذوات مــصورا
وإذا طلـــبت حقــيقة مــن غيــره	فــبذيل جهلــك لا تــزال معثــرا

ومع هذا التحقق بكمال التوحيد يقرر أبو مدين أنّ من كمال السالك تحققه الدائم بالعبودية. وهو ما ذكره الشيخ الأكبر في الباب 369 من الفتوحات عند كلامه على الآية: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ الأنفال: 17 - قال عنها (34) [فأثبت ونفى وحسبنا الله وكفى. فكان الشيخ أبو العباس بن العريف الصنهاجي الإمام في هذا الشأن يقول: وإنّما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم. وكان الشيخ

أبو مدين يقول: لا بدّ من بقاء رسم العبودية ليقع التلذذ بمشاهدة الربوبية. وكان القاسم بن القاسم من شيوخ رسالة القشيري يقول: مشاهدة الحق فناء ليس فيها لّذة. وكل قائل صادق.]

وفي الباب 119 في ترك التوكل يعود الشيخ إلى حال أبي مدين في توكله وتوحيده فيقول (35): [...يقول تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ فلا نعتمد عليه. ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ - النحل: 96 فنعتمد على الله في بقائه، فأفنى وأبقى. والإفناء حال أبي مدين في وقت إمامته، ولا أدري هل انتقل منه بعد ذلك أم لا؟ لأنّه انتقل عن الإمامة قبل أن يموت بساعة أو ساعتين، الشك مني لبعد الوقت].

قوله عن أبي مدين أنّه كان إماماً، يعني به أنّه كان الإمام الوزير الأوّل لقطب زمانه حسب ترتيب دوائر الولاية في سُلم معين وفي كل درجة منه عدد معين من الأولياء. وقد فصل الشيخ كل تلك الطبقات في الباب 73 من الفتوحات. وقد كرر ذكره لإمامة أبي مدين في العديد من مكتوباته. فيقول مثلاً في الباب 24 (36) وهو يتكلم عن مقام ملك الملك: [ومن أقطاب هذا المقام ممن كان قبلنا محمد بن علي الحكيم الترمذي، ومن شيوخنا أبي مدين رحمه الله وكان يعرف في العالم العلوي بأبي النجا وبه يسمونه الروحانيون، وكان يقول رضي الله عنه: سورتي من القرآن: تبارك الذي بيده الملك، ومن أجل هذا كنا نقول فيه إنّه أحد الإمامين لأنّ هذا هو مقام الإمام]. وأعاد هذا الخبر في (مواقع النجوم) وفي كتاب (منزل القطب والإمامين) حيث يقول عن مقام الإمام:

[وفي هذا المقام عاش الشيخ أبو مدين ببجاية إلى أن قرب موته بساعة أو ساعتين خلعت عليه خلعة القطبية ونزعت عليه خلعة الإمامة وصار اسمه عبد الله وانتقلت خلعته باسم عبد الرب إلى رجل ببغداد اسمه عبد الوهاب. وكان الشيخ أبو مدين قد تطاول له بها رجل من بلادخرسان. مات الشيخ قطبا كبيرا. وكان له من القرآن تبارك الذي بيده الملك].

يعني الشيخ أنّ اسم القطب في كل زمان هو عبد الله واسم وزيره الإمام الأوّل عبد الربّ. وحيث أنّ لاسم (الربّ) في اللغة خمس معاني هي: (المربي، المصلح، السّيد، المالك، الثابت)، فللإمام الأوّل عبد الربّ خمسة أسرار وأصناف من العلوم. وأما اسم الإمام الثاني فعبد الملك، ولهذا فمنزل القطب والإمامين هو

المعوذتان حيث توجد تلك الأسماء الثلاثة كما فصّله الشيخ في البابين 270 و271 من الفتوحات، وكما أشار إليهما في مناجاة القطب ومناجاة الإمام الأكمل من كتاب (منزل القطب والإمامين) الذي فصّل فيه بعض مميّزات مقام الإمام الأوّل أي مقام أبي مدين فيقول عنه:

[فلهذا الإمام معرفة سرّ الأسرار. وله التدبير الإلٰهي. وله في العدد أسرار إلٰهية لا يعرفها غيره. ويختص هذا الإمام بعلم الصنعة المعشوقة (يعني علم الكيمياء وصنعة الإكسير) ويعلم خواص الأحجار وهي عنده مكتمة. وربما قد يحصل له من معرفة أسماء الانفعالات ما يكون منها حقيقيا. وله في المحاربات والمكائد أمر عجيب. وهو على النصف من عمره مع العالم وعلى النصف مع القطب إلى أن ينتقل إلى القطبية أو يموت. وقد تظهر صولته في الكون بالسيف، وقد تظهر بالهمّة على حسب ما سبق له في الأزل. وهذا الإمام عنه تظهر أسرار المعاملات على هذه الهياكل الترابية. وله خمسة أسرار: سرّ الثبات به يعلم حقائق الأمور، وبه يدبر وبه يفصّل ويولد ويزوج، ويعبر على سر الرموزات وفك الطلسمات وأصول الأشياء الظاهرة والباطنية والحقيقية وغير الحقيقية، وله خرق السفينة، وله إقامة الجدار، وليس له قتل الغلام من حاله وكشفه، فإن قتله يوماً مَا فعن أمر القطب. وأما السر الثاني من الخمسة فهو سر التمليك به يرحم الضعفاء وينجي الغرقى ويكسب المعدوم ويقوى الضعيف ويحمل الكل ويعين على نوائب الحق ويجود على من أساء ويعفو عن الجرائم ويصفح ويقيل العثرات ويجمع بين المتعاشقين والوالدة وولدها، وهو يطوى الطريق على القاصدين لِما اشتاقوا إليه، وما أعطته الحقيقة الرحمانية على عمومها من هذا السر ينبعث ظهوره في الوجود. وأما السرّ الثالث فهو سر السيادة وبه يفتخر ويبدي حقيقته ويقول: أنا سيّد ولد آدم (...) وما أعطته الحقيقة التي تظهر مكانته ورفعته فمن هذا السرّ. وأما السر الرابع فهو سر الصلاح، وعن هذا السر الذي له يحمل الخلق على المكاره التي فيها نجاتهم (...) فبهذا السرّ يقطع الإمام القلوب على غير الله ويردها إلى الله. وما من حالة من هذه الأحوال إلاّ والناس يجدونها في نفوسهم ولا يعرفون من أين تنبعث، ومعدنها قلب هذا الإمام (...). وأما السر الخامس فهو سرّ التغذية وبه ينزل المطر ويدر الضرع ويطيب الزرع وتحدث الشهوات وتنضج الفواكه وتعذب المياه، وبه تكون القوّه التي تسري

في أهل المجاهدات والمحاضرات حتى يواصلوا الأيام الكثيرة من غير مشقّة (...) وله تمدّ الحقائق الإبراهيمية والميكالية والمحمدية والإسرافيلية والجبريلية والآدمية والرضوانية والمالكية. فإنّ مدار بقاء العالم على هذه الثمانية. وسرّ بقاء العالم غذاؤه]. وقد فصّل الشيخ هذه الثمانية العرشية في الباب الثالث عشر من الفتوحات. وهذه الأسرار ألإماميه ظهرت بعض رشحاتها حول أبي مدين كما يبدو من وصف الشيخ لحال أحد أولاد أبي مدين فيقول (37):

[كان للشيخ ولد صغير من سوداء. وكان أبو مدين صاحب نظر. فكان هذا الصبي وهو ابن سبع سنين ينظر ويقول: أرى في البحر في موضع كذا وكذا سُفنا وقد جرى فيها كذا وكذا. فإذا كان بعد أيام وتجيء تلك السفن إلى بجاية مدينة هذا الصبي التي كان فيها، يوجد الأمر على ما قاله الصبي. فيقال للصبي: بما ذا ترى؟ فيقول: بعيني. ثم يقول: لا إنما أراه بقلبي. ثم يقول: لا إنما أراه بوالدي إذا كان حاضراً ونظرت إليه رأيت هذا الذي أخبرتكم به، وإذا غاب عني لم أر شيئا من ذلك. ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى في العبد الذي يتقرّب إلى الله بالنوافل حتى يحبّه يقول: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الحديث].

وفي الباب 270 من الفتوحات في معرفة «منزل القطب والإمامين» وهو منزل سورة الناس يفصّل بعض مميزات مقام هذا الإمام الأوّل فيقول عنه ما خلاصته (38):

[له التصرف بجميع الأسماء الإلٰهية التي تستدعي الكون كالخالق والرازق والملك، وليس له تصرّف بأسماء التنزيه بخلاف الإمام الآخر الثاني. ويُلجأ إليه في الشدائد الكبار فيفرجها الله على يده. وله الكرم والإنعام على الخلق من حيث لا يشعرون، ولقد أنعم عليّ هذا ببشارة بشرني بها وكنت لا أعرفها في حالي، وكانت حالي، فأوقفني عليها، ونهاني عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ وقال لي: لا تنتم إلاّ لله، فليس لأحد ممن لقيته عليك يد مما أنت فيه، بل الله تولاك بعنايته، فاذكر فضل من لقيت إن شئت ولا تنتسب إليهم وانتسب إلى ربك. وكان حال هذا الإمام مثل حالي سواء لم يكن لأحد ممن لقيه عليه يد في طريق الله إلاّ الله. هكذا نقل لي الثقة عندي عنده، وأخبرني الإمام بذلك عن نفسه عند اجتماعي به في

مشهد برزخي اجتمعت به فيه، لله الحمد والمنّة على ذلك. وولاة أمور الخلق راجعون إلى هذا الإمام، ويدفع الله به الشرور، وله سلطان قوي على الأرواح النارية]. ومن الراجح أن يكون ذلك الذي اجتمع به في مشهد برزخي هو أبو مدين نفسه. ومن العجيب أن الشيخ ذكر في كتابه (مواقع النجوم) أنّ الذي أخبره بانتقال أبي مدين من الإمامة إلى القطابة هو قطب زمانه الشيخ أبو يزيد البسطامي (ت: ٢٦١ هـ) المتوفى قبل ولادة أبي مدين بأزيد من قرن. وفي هذا دلالة على اشتراك بينهما في بعض الأحوال والمقامات. وبالفعل ففي العديد من المواقع يذكرهما الشيخ معا كقوله في الباب 43 من الفتوحات في معرفة جماعة من أقطاب الورعين وعامة ذلك المقام (39):

[فاعلم أنّ أبا عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي كان من عامة هذا المقام وأبا يزيد البسطامي وشيخنا أبا مدين في زماننا كانا من خاصته]. وفي الباب 336 المتعلق بسورة الفتح وهو في معرفة منزل مبايعة القطب يقول (40):

[اعلم أيّدك الله أنّ المبايعة لا تكون إلا لواحد الزمان خاصة، وأنّ واحد الزمان هو الذي يظهر بالصورة الإلٰهية في الأكوان، هذه علامته في نفسه ليعلم أنّه هو. ثم له الخيار في إمضاء ذلك الحكم أو عدم إمضائه والظهور به عند الغير فذلك له. فمنهم الظاهر، ومنهم من لا يظهر ويبقى عبدا إلاّ إن أمره الحق بالظهور فيظهر على قدر ما وقع به الأمر الإلٰهي لا يزيد على ذلك شيئا، هذا هو المقام العالي الذي يعتمد عليه في هذه الطريق، لأنّ ما خُلق بالأصالة إلا ليكون لله، فيكون عبدا دائما. ما خُلق أن يكون ربّاً. فإذا خلع الله عليه خلعة السيادة وأمره بالبروز فيها برز عبداً في نفسه سيدا عند الناظر إليه، فتلك زينة ربه وخلعته عليه. قيل لأبي يزيد البسطامي رحمه الله في تمسح الناس به وتبركهم، فقال رضي الله عنه: ليس بي يتمسّحون وإنّما يتمسّحون بحلية حلانيها ربيّ أفأمنعهم ذلك وذلك لغيري. وقيل لأبي مدين في تمسح الناس به بنيّة ألبركه وتركهم يفعلون ذلك: أما تجد في نفسك من ذلك أثر؟ فقال: هل يجد الحجر الأسود في نفسه أثرا يخرجه عن حجريته إذا قبّلته الرسل والأنبياء والأولياء وكونه يمين الله؟ قيل: لا. قال: أنا ذلك الحجر.]

والظهور عند الخلق للهداية والدعوة إلى الله بأمر الحق هو ما عبّر عنه أبو مدين في قوله (من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق، ومن علامات

صدق فراره عن الخلق وجوده للحق، ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق) روى الشيخ عنه هذا الكلام عند ذكره لأنواع الورثة من الحديث النبوي: «العلماء ورثة الأنبياء» في الباب 73 من الفتوحات (41) وفي الباب 45 في معرفة من عاد بعد ما وصل ومن جعله يعود وفيه يقول: [إنّ الراجعين على قسمين: منهم من يرجع اختيارا كأبي مدين، ومنه من يرجع اضطرارا مجبورا كأبي يزيد لما خلع عليه الحق الصفات التي بها ينبغي أن يكون وارثا وراثة إرشاد وهداية خطا خطوة من عنده فغشي عليه فإذا النداء: ردّوا عليّ حبيبي فلا صبر له عني. فمثل هذا لا يرغب في الخروج إلى الناس وهو صاحب حال. وأما العالي من الرجال وهم الأكابر وهم الذين ورثوا من رسول الله ﷺ عبوديته فإن أمروا بالتبليغ فيحتالون في ستر مقامهم عن أعين الناس ليظهروا عند الناس بما لا يعلمون في العادة أنّهم أهل الاختصاص الإلٰهي، فيجمعون بين الدعوة إلى الله وبين ستر المقام].

أمّا أبو مدين فكان مشربه من قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾- الضحى: 11 - فكان يأمر أصحابه بإظهار الطاعات فإنه لم يكن عنده فاعل إلاّ الله وهجيره ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ - الأنعام: 40 - (42) ولهذا نجد الشيخ الأكبر خلال تفصيله لأنواع طبقات الأولياء وأعدادهم يقول:

[ومنهم رضي الله عنهم ثمانية عشر نفسا أيضا هم الظاهرون بأمر الله عن أمر الله لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان. ظهورهم بالله، قائمون بحقوق الله، مثبتون للأسباب، خرق العوائد عندهم عادة. آيتهم: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ - الأنعام: 91 - وأيضا: ﴿ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾- نوح: 8 - كان منهم شيخنا أبو مدين رحمه الله، كان يقول لأصحابه: أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة، وأظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة يعني خرق العوائد والباطنة يعني المعارف].

وبالفعل فقد اشتهر كثير من تلاميذ أبي مدين وخلفائه بإظهار تلك المعارف والكرامات، كما ظهرت منه هو خصوصا في مواقف الغيرة الإيمانية (42)، حتى أنه روي عنه قوله بأن جميع كرامات الصالحين المذكورة في رسالة القشيري وقع مثلها لأصحابه. ذكر هذا القول الشيخ الأكبر في كتابه (الكوكب الدري في مناقب ذي

النون المصري) خلال ذكره لكرامة عجيبة وقعت أمام الملأ في مسجد بالأندلس لإظهار مكانة أحد خلفاء أبي مدين وهو أحمد بن سيدبون المذكور سابقا. ولكن أبا مدين، لم يحجبه الظهور عن دوام تحققه بالعبودية وطلب المزيد من العلم بالله تعالى حتى أنّه إذا سمع الآية: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ - الإسراء: 85 - يقول: القليل الذي أُعطيناه ما هو لنا بل هو معار عندنا، والكثير منه لم نصل إليه فنحن الجاهلون على الدوام (43). وقوله هذا يذكر بقول الخضر لموسى عليهما السلام لما رأى طائرا ينقر في البحر: «يا موسى يقول هذا الطائر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص من هذا البحر منقاري.». وفيهما قال أبو مدين لما علم الخضر رتبة موسى وعلو قدره بين الرسل امتثل ما نهاه عنه في قوله: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ - الكهف: 76 - فلما سأله في الثالثة عن إقامة الجدار فارقه امتثالاً لنهيه فإنّ الله يقول: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ - الحشر: 7 - (44)

ولمثل هذا التدبّر في القرآن الكريم واستنباط لطائف المعاني من آياته كان يحث أبو مدين مريديه فيقول: «لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد.» (45).ويحكي الشيخ الأكبر عنه أيضا أنّه كان يقول لهم: «أطعمونا لحما طريا لا تطعمونا القديد» أي لا تنقلوا إلينا من الفتوح إلاّ ما تفتح به عليكم في قلوبكم، لا تنقلوا إلينا فتوح غيركم. يرفع بهذا همّة أصحابه لطلب الأخذ من الله تعالى (46). وأعطى في الفتوحات نماذج من مفاهيمه فمن ذلك قوله (47):

[كان شيخنا أبو مدين رحمه الله يقول في هده الآية: «فإذا فرغت» من الأكوان «فانصب» قلبك لمشاهدة الرحمن «وإلى ربك فارغب» على الدوام. وإذا دخلت في عبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها وقل: «يا ليتها كانت القاضية». الحاقة: 27 - وكان يقول في إشارته لباء البسملة: «ما رأيت شيئا إلاّ ورأيت الباء عليه مكتوبة» أي بالله قام كل شيء وظهر (48).

وأهل الله قائلون بالجمع بين الأخذ بالظواهر والأخذ بالإشارات إلى البواطن. وكان شيخنا أبو مدين يذم الطرفين على الانفراد ويقول: إنّ الجامع بين الطرفين هو الكامل في السنّة والمعرفة (50).

ومن أقوال أبي مدين الأخرى التي عرضها الشيخ الأكبر في فتوحاته قوله: [اختلف أصحابنا في مقام المعرفة والعارف ومقام العلم والعالم، فطائفة قالت مقام المعرفة رباني، ومقام العلم إلٰهي، وبه أقول، وبه قال المحققون كسهل التستري وأبي يزيد وابن العريف وأبي مدين (49). وكان يقول: يدخل أهل الدارين - الجنة والنار - فيهما: السعداء بفضل الله وأهل النار بعدل الله، وينزلون فيهما بالأعمال ويدخلون فيهما بالنيات. ويعقب عليه الشيخ بقوله: وهذا كلام صحيح وكلام محرر عليه حشمة (51).

وعن حديث: «لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرة من كبر» كان يقول: صدق يزَالُ - أي الكبر - فيدخل صاحبه الجنّة دونه ويبقى هو في النار صورة مجسّده، أو يعود الكبر إلى من هو له فيأخذ كل ذي حق حقه (53).

وكان يقول: [سرّ الحياة سرى في الموجودات كلها فتجمّدت به الجمادات ونبتت به النباتات وحييت به الحيوانات، فكل نطق تسبيحه بحمده لسر سريان الحياة فيه]. ويعلق الشيخ الأكبر على تعبيره هذا فيقول: [فهو وإن كان رحمه الله ناقص العبارة لكونه لم يعط فتوح العبارة فإنّه قارب الأمر ففهم عنه مقصوده] (54).

والاسم الأعظم (الله الحي القيوم) الذي منه تسري الحياة في كل الكائنات وبسرّه تقوم الموجودات هو الاسم الذي للقطب به تعلق وتحقق خاص. وهو المقام الذي ارتقى إليه أبو مدين قبل وفاته بقليل كما سبق ذكره. وخلاصة ما قاله الشيخ الأكبر في بعض أوصاف القطب ومقامه:

[فأما القطب وهو عبد الله، وهو عبد الجامع، فهو المنعوت بجميع الأسماء تخلقا وتحققا. وهو مرآة الحق، ومجلى النعوت المقدّسة، وصاحب الوقت، وعين الزمان، وسرّ القدر. وله علم الدهور، والكشف الذاتي المطلق، الغالب عليه الخفاء، لا تعتريه شبهة ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه. يوفي الطبيعة حقها على الحد الإلٰهي، ويضع الموازين ويتصرّف على المقدار المعيّن. الوقت له، ما هو للوقت، هو لله لا لغيره. حاله العبودية والافتقار. فمرتبته الإلحاح في السؤال والشفاعة في حق طبيعته. يضع الأسباب ويقيمها ويدل عليها ويجري بحكمها، ينزل إليها حتى تحكم عليه، وتؤثر فيه بخلاف أصحاب الأحوال. والقطب منزه عن الحال، ثابت في العلم، مشهود فيه، فيتصرّف به. لا تطوى له أرض ولا يمشي في هواء ولا على ماء

ولا يطرأ عليه شيء من خرق العوائد إلا نادرا لأمرٍ يراه الحق فيفعله، لا يكون ذلك مطلوبا للقطب يجوع اضطرارا لا اختيارا. يحب الجمال المقيّد في الزينة والأشخاص. تأتيه الأرواح في أحسن الصور. يغار لله ويغضب لله. ولا يتمكن من الخلافة حتى يحصل معاني حروف أوائل سور القرآن مثل ألف لام ميم وغيرها. فهو مركز الدائرة ومحيطها، عليه مدار العالم، وله رقائق ممتدّة إلى جميع قلوب الخلائق. وله من البلاد مكة ولو سكن حيث سكن بجسمه. وعندما يلي مرتبة القطبية يبايعه كل روح وحيوان وجماد ما عدا الإنس والجان إلا القليل منهم. وقد صنفنا في هذه البيعة وكيفية انعقادها كتابا كبيرا سميناه: «كتاب مبايعة القطب في حضرة القرب» ذكرت فيه سؤالات المبايعين له التي وقعت في زماننا لقطب وقتنا]. وبعد أن ذكر الشيخ الأكبر نيل أبي مدين للقطبية في كتابه (مواقع النجوم - ص 140) قال:

[وإني لأعلم وارثه الآن في ذلك المقام ألإمامي وأعرفه غاية المعرفة ولله الحمد على ذلك]. وكان ذلك في رمضان من سنة 595 بمدينة المرية بالأندلس، بعد وفاة أبي مدين بست سنوات.

وقد اورد الشيخ الاكبر في كتابه مسامرات الاخيارمرائي ومشاهد عديدة لبعض الصالحين سمعوا فيها من الامام ابي مدين كلاما كثيرا غزيرا جله حول التحقق بحقائق التوحيد. وقد اورده كله الشيخ محمود محمود الغراب في كتابه شرح كلمات الصوفية من كلام الشيخ الاكبرفي آخر الباب الخاص بابي مدين. ونختم بتخميس الشيخ الاكبر لقصيدة أبي مدين المشهورة والتي مطلعها: «ما لذّة العيش إلاّ صحبة الفقراء»، وهذا التخميس مأخوذ من كتاب " إرشاد السالكين إلى مرضاة رب العالمين. وأخيرا قصيدته الطويلة (51 بيتا) في مدح ورثاء أبي مدين وهي في ديوانه الكبير المخطوط (ديوان المعارف).

تخميس الشيخ الأكبر لقصيدة الإمام أبي مدين

(أبيات أبي مدين بين قوسين)

يــا طالــبا لــذا ذات الــدّنا وطــرا إذا أردت جمــيع الخيــر فــيك يــرى

المستــشار أمــين فاســمع الخبــرا

(مـا لـذة العـيش إلا صـحبة الفقـرا هـم الـسلاطين والـسادات والأمـرا)

قـوم رضـوا بيـسير مـن ملابـسهم والقـوت لا تخطـر الدنـيا بهاجـسهم
صـدورهم خالـيات مـن وساوسـهم
(فاصحبهمو وتـأدب فـي مجالـسهم وخـل حظـك مهمـا قدمـوك ورا)
أسـلك طـريقهمو إن كـنت تـابعهم واترك دعاويك واحذر أن تراجعهم
فـيما يـريدونه واقـصد مـنافعهم
(واستغنم الـوقت واحـضر دائما معهـم واعلم أن الرضا يختص من حضرا)
كـن راضـيا بهمـو بهـم وتـصل إن أثبـتوك أقـم أو إن محـوك فـزل
وإن أجاعـوك جـع أو أطعمـوك فكـل
(ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل: لا علم عندي وكن بالجهل مستترا)
ولا تكـن لعـيوب الـناس منـتقد وإن يكـن ظاهـرا بـين الوجـود بـدا
وانظـر بعـين كمـال لا تعـب أحـدا
(ولا تـر العـيب إلا فـيك معـتقدا عيـبا بـدا بيـنا لكـنه اسـترا)
تـنل بـذلك مـا تـرجوه مـن أدب والـنفس ذلـل لهـم ذلا بـلا ريـب
بـل كـل ذلـك ذلّ نـاب عـن أدب
(وحـط رأسـك واستغفر بـلا سـبب وقـم علـى قـدم الانـصاف معـتذرا)
إن شئت منهم بـريقا للطـريق تـشم عـن كـل مـا يكـرهوه مـن فعالـك ذُم
والـنفس مـنك حـسن الفعـال أدم
(وإن بـدا منك عيب فاعترف وأقـم وجه اعتذارك عما فيك منك جرى)
لهـم تملـق وقـل داووا بـصلحكمو بمـرهم العفـو مـنكم داء جـرحكم
أنا المسيء هبوا لي محض نصحكمو
(وقـل عبـيدكمو أولـى بـصفحكمو فـسامحوا وخـذوا بالـرفق يـا فقـرا)
لا تخـش مـنهم إذا أذنـبت همـتهم أسـنى وأعظـم أن تـرديك عـشرتهم
ليـسوا جبابـرة تـؤذيك سـطوتهم
(هـم بالتفـضل أولـى وهـم شيمتهم فـلا تخـف دركـا مـنهم ولا ضـررا)
إذا أردت بهـم تـسلك طـريق هـدى كـن بالـذي يطلـبوه مـنك مجـتهدا
فـي نـور يـومك واحـذر أن تقـول غـدا
(وبالتفـتي علـى الإخـوان جـد أبـدا حسا ومعنى وغض الطرف إن عثرا)

أصـدقهم الحـق لا تـستعمل الدنـسا   لأنهـم أهـل صـدق سـادة رؤسـا
واسـمح لكـل امـرئ مـنهم إلـيك أسـا
(وراقـب الـشيخ فـي أحـواله فعـسى   يـرى علـيك مـن استحـسانه أثـرا)
واسـأله دعـوته تحظـى بدعـوته   تـنل بـذلك مـا تـرجو ببـركته
وحـسن الظـن واعـرف حـق حـرمته
(وقـدم الجـدَّ وانهـض عـند خدمـته   عـساه يرضـى وحـاذر أن تـرى ضجرا)
واحفـظ وصـيته زد مـن رعايـته   ولـبه إن دعـا فـورا لـساعته
وغـض صـوتك بالـنجوى لطاعـته
(ففـي رضـاه رضـا الـباري وطاعـته   يرضـى علـيك فكـن مـن تركها حذرا)
وألـزم بمـن نفـسه نفـس مسايـسة   فـي ذا الـزمان فـإن الـنفس آيـسة
مـنهم وحـرفتهم فـي الـناس باخـسة
(واعلـم بـأن طـريق القـوم دارسـة   وحال من يدعيها اليوم كيف ترى)
يحـق لـي إن نـأوا عنـي لألفـتهم   ألازم الحـزن ممـا بـي لفـرقتهم
علـى انقطاعـي عـنهم بعـد صـحبتهم
(متـى أراهـم وأنَّـى لـي بـرؤيتهم   أو تـسمع الأذن منـي عـنهم خبـرا)
تخلفـي مـا نعـي مـن أن ألائمهـم   مـنهم أتـيت فلمنـي لـست لائمهـم
يـا رب هـب لـي صـلاحا كـي أنـادمهم
(ومـن لـي وأنَّـى لمثلـي أن يزاحمهم   علـى مـوارد لـم آلـف بهـا كـدرا)
جلت عن الوصف أن تحصى مآثرهم   علـى الـبواطن قـد دلـت ظواهـرهم
بطاعـة الله فـي الدنـيا مفاخـرهم
(أحـبهم وأداريهـم وأوثـرهم   بمهجتـي وخـصوصا مـنهم نفـرا)
قوم على الخلق بالطاعات قد رؤسوا   مـنهم جليـسهم الآداب يقتـبس
ومـن تخلـف عـنهم حظـه الـتعس
(قـوم كـرام الـسجايا حيثما جلـسوا   يبقـى المكـان علـى آثـارهم عطـرا)
فهـم بهـم لا تفـارقهم وزد شـغفا   وإن تخلفـت عـنهم فانـتحب أسـفا
عـصابة بهـم يكـسى الفتـى شـرفا
(يهدي التصوف من أخلاقهم طرفا   حـسن الـتألف مـنهم راقنـي نظـرا)

جررت ذيل افتخاري في الهوى بهمو لما رضوني عبيدا في الهوى لهمو

وحقهم في هواهم لست أنسهم

(هم أهل ودي وأحبابي الذين همو ممن يجر ذيول العز مفتخرا)

قطعت في النظم قلبي في الهوى قطعا وقد توسلت للمولى بهم طمعا

أن يغفر الله لي وللمسلمين معا

(لا زال شملي بهم في الله مجتمعا وذنبنا فيه مغفورا ومغتفرا)

يا كل من ضمه النادي بمجلسنا ادع الإله بهم يمحو الذنوب لنا

وادع لمن خمس الأصل الذي حسنا

(ثم الصلاة على المختار سيدنا محمد خير من أوفى ومن نذرا)

بسم الله الرحمن الرحيم

***وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما:**

- قال الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن العربي الحاتمي في ديوانه:

''المعارف الإلهية ''معرفا بحال الشيخ أبي مدين المتوفى عام 589 ه بتلمسان:

1 - ضياؤك نور الشمس بل هو أرفع ... وكفك سيب الغيث بل هو أنفع

2 - وقلبك قلب الهاشمي وراثة ... وعلمك ذو السبطين ما فيه مدفع

3 - وأمرك فاروق فينفذ بالذي ... تشاء ولا خلق هنالك يدفع

4 - وسرك يسري في الوجود خلافة ... فيحفظ قسط العدل فيه ويرفع

5 - فلله أسرار من أسرار غيبه ... يمن عليكم في الشهود ويرجع

6 - وما هو إلا إن نظرت تحققا ... بروق تروق الناظرين وتلمع

7 - وأسرار صدق لا يراها محقق ... من الغيب إلا يات وهو مقنع

8 - تلوح من أعلام اليقين لسره ... فتبصره عند اللقاء يتبرقع

9 - لقد وقفت شمس البها في سمائها ... لأمرك إيقانا بأنك يوشع

10- تبارك ملك الله سورتك التي ... أتتنا بها الأرسال والناس هجع

11- فمن رسله موسى ألى الشرق سيره ... لإلياس حيث البدر بالأفق يطلع

12- وعمران بالغرب السني رفيقه ... عبيد لدني كريم سميدع

13- تشعب قلبي في شعيب فعنده ... فريق وعندي منل ذاك مضيع

14- وذاك لخسراني وعظم خطيئتي ... علي إذا ناداه لو كان يسمع

15- أبا مدين دان الوجود تواضعا ... لمجدك والأسرار خرس وخشع

16- فكنت تمد العالمين وراثة ... بقومة وقت إذ مضى ليس يرجع

17- رضعت ثدي المكرمات ومن يكن ... شبيهك ثدي المكرمات يرضع

18- نظمت جواهر المعاني قلادة ... فلاح إلى الأبصار سلك مرصع

19- وأطلع [في الغرب شمسا] منيرة ... عليها من الإجلال برد ملفع

20- هـلال علـيه هالـة مـن يقيـنه ... محكمـة الأقطـار لا تتـصدع
21- لقـد سـخرت جـن الـبلاد وإنـسها ... لأمرك حتى قمت بالأمر تـصدع
22-وأحييت رسم الدين في الغرب فازدهى ... وقـدما رأتـه أعـين وهـو بلقـع
23- وأجريت فيهم سر روحك فاستوى ... ومـا زال يعـدوه مـصيف ومـربع
24- وقمـت بميـزان الـشريعة حاكمـا ... وبيـنت مـنها مـا يـضر ويـنفع
25- دعـوت الـورى لله دعـوة عـارف ... بـه لا يـرى شيئا سـوى الله يـصنع
26- ورثـت النبـي الأبطجـي تخلقـا ... فـصحبك زهـر بالدجـنة تطلـع
27- فكـان لكـم مـن كـان صدّيق وقـته ... أتاك بمـا قـد كـان بـالأمس يجمـع
28- فخـص بـسر لا يفـارق نفـسه ... فتبـصره يجلـو القلـوب فتـسطع
29- وكـان لـك المختار فـاروق عـصره ... يحـدّث أسـرار العلـي فتـسمع
30- وكان لكم موسى المعلم في الدجى ... [...] فيتلو الـنور والقلـب يخشع
31- إذا دخـل المحـراب هـو مثـيلكم ... وروض مـناجاة المهـيمن ممـرع
32- يحبـره تحبيـر مـن غـاص فكـره ... ببحر وجـود الحق والحق يـسمع
33- فيبـرز درّ العلـم فـي صـدف التقـى ... علـى أنـه صـعب عزيـز ممـنع
34- فيـضحى لـه الـشيخ المكـرم مـولعا ... وفـي مـثل هـذا ينبغـي يـتولع
35- يغـار علـيه أن يـراه معـين ... [...] فيـراه حـتفه يـتطلع
36- ويحفظـه حتـى يجـيء زمانـه ... وإخـوانه لديـه والقلـب يخـشع
37- فـيهدي بـه قلبا مـع الوصـف واقفـا ... فـتلحظه نحـو الحقـيقة يهطـع
38- وذاك مـن شـأن المـراد [...] ... إذا جـاءه داعـي الهدايـة يـسرع
39- فمـا فـيه سـر باطنـي وظاهـر ... ولا مغـصل إلا ولله طائـع
40- أبـا مـدين والله مـا جـاء شـامخ ... لمجـدك ألا مقـنع الـرأس يخـضع
41- وذاك لأمـر مـا يفـل حـسامه ... بـه تبـصر الأشـياء حقـا وتـسمع
42- كـأن بـلاد الله حلقـة خـاتم ... علـيك وأرمـاح العـداوة تـشرع

43- غداة بدت للناس أعلام مجدكم وما علموا أن الربى لا تضعضع

44- متى خيف أمر أو توقع هارب أمنت من الأمر الذي يتوقع

45- لافاعل إلا الله ينفذ حكمه وكيف يرى شيخ الحقيقة يجزع

46- لقد مات من ورث النبي لموتكم شعيب ومال الولي لا يضيع

47- سقى جدثا ضم المكارم والعلى من الغيث صوب مسجم ليس يقلع

48- فلي كبد حري وعين شجية وقلب على فقدالحبيب يوجع

49- وإني إذا ما الليل أرخى سدوله أنوح كما ناح الحمام المفجع

50- عليك سلام الله ما حن تائق إلى الملإ الأعلى لكم ومودع

51- يحركه شوق فيهمي بمدمع فلا دمعه يرقى ولا الشوق يقلع

المراجع

1- ف: الفتوحات المكية لمحيي الدين محمد بن العربي - دار الكتب العلمية بيروت - 9 أجزاء. سنة 1420هـ - 1999م.

2- ر: روح القدس في محاسبة النفس - مطبعة العلم دمشق 1970 - لابن العربي.

3- م: "محاضرة الأبرار " لابن العربي.

4- ت: التشوف إلى رجال التصوف للتادلي - تحقيق أحمد التوفيق - طبعة الرباط سنة 1404 - 1984.

5- أ: "أنس الفقير وعز الحقير" لأحمد بن قنفد القسنطيني (ت: 810 هـ) نشرة محمد الفاسي وأدولف فور - الرباط -

6- د: الدرة الفاخرة مترجم للفرنسية بعنوان Les Soufis D'Andalousie ترجمه من الإنجليزية Sindabad - Gérard La coute 1979.

① - حول أبي عبد الله الدقاق راجع: ف: 1 ص369 - 3 ص20 - 8 ص 316/ أ: 27/ت: 156 - 157/ جذوة الاقتباس لابن القاضي - الرباط 1973 ص 170/ سلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني - فاس. ص 102 من الجزء: 3/وقد أحال أدولف فور على البحث الذي نشره الفريد بيل Alfred Bel عن أبي مدين وشيخه الدقاق في. 31 .t. 1 p "Mélanges René Basset"

② - حول أبي يعزى راجع: ف:4 ص398 - 7 ص74- 8 ص384/ت: 213... 222/ قال أحمد التوفيق محقق التشوف عن أبي يعزى: وهذا المترجم من أشهر من وقع الإجماع على مكانتهم بالمغرب. خصص أبو العباس العزفي لأخباره ومناقبه تأليفا عنوانه: دعامة المتقين (...) وذكره ابن الأبار في التكملة (1060) وابن عبد الملك في الذيل والتكملة (...) وذكره ابن قنفد في أنس الفقير، وأفرد له ابن العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي الصومعي تأليفا عنوانه: (المعزى في مناقب أبي يعزى). وممن ذكره من أصحاب كتب التراجم: ابن القاضي في جذوة الاقتباس (643) وقد اعتمد على كتاب المستفاد للتميمي المعاصر لأبي يعزى، واليومي في المحاضرات (ص132) والنصري في الاستقصا (210: 2)، والعباس بن إبراهيم في

الأعلام (406) وابن صعد في النجم الثاقب، والكتاني في سلوة الأنفاس (216: 3): والشعراني في لواقح الأنوار، والمناوي في طبقاته.

③ من شرّاح حكم أبي مدين الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد القادر المعروف بباعشن وعنوان شرحه: (البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد علي أنس الوحيد ونزهة المريد من كلام العارف بمولاه سيدنا ومولانا أبي مدين رحمه الله تعالى وأرضاه) - طبع بمصر عام 1306هـ - وشرحها أيضا الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي (ت: 1933م) - بالمطبعة العلاوية بمستغانم 1944 م - شرح منها 101 حكمة من مجموع 178 حكمة. وذكر المقري في نفح الطيب أنّ أبا الحجاج يوسف بن موسى ألجذامي المنتشافري له تأليف منها (لمع البهيج ونفح الأريج في ترجيز كلام الشيخ أبي مدين من عبارات حكمية وإشارات صوفية) - الجزء السادس ص 145 -

④ شرح الشيخ ابن عطاء الله السكندري (ت: 709 هـ) قصيدته التي مطلعها «ما لذّة العيش إلا صحبة الفقراء» وهي نفسها التي خمسها الشيخ الأكبر.

⑤ الطبعة السابعة للأعلام للزر كلي - جزء3 ص 177 - بيروت 1986.

⑥ ت: 319.

⑦ حول عبد العزيز المهدوى ينظر: أ: 97 - 98/ كتاب (الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي) للنبال - طبعة تونس - ص 219/ كتاب (الحلل السندسية) لمحمد الوزير.

(8): ف: (3) 455/أ: 34/

(9): ف: (3) 12، (4) 465، (5) 192/ر: 113/ أ: 38 - 39/ ت: 330 - 331

(10): ف: (1) 380، (2) 349/ ر: 79... 82/

(11): ف: (2) 421، (7) 112، () 319، (8) 326/ر: 99/ (5): 119 /وفي محاضرات الأبرار روايات المورروري عن أبي مدين (طبعة القاهرة 1906) جزءان.

I: 110 - 145 - 173 - 188 - 199.

II: 31 - 148 - 175 - الخ...

(12): ر118// (13): أ: 32/ ت: 415 - 416/ (14): ر122/

(15): د: 171 - 172/ف (7) 112 - 113

(16): ف: (3) 29/ت: 123... 124/ وحول أبي محمد عبد السلام التونسي ينظر: ت: 110... 112/كتاب (الأعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام) للعباس بن إبراهيم - تحقيق عبد الوهاب بن منصور - الرباط 1974 - 1984م جزء8 ص470/كتاب البستان لابن مر يم: الجزائر 1908. ص 122

(17): د: 175/ (18): ف (8): 310/ (19) ف: (4)، 405/ (20): ف: 377

(21) كتاب الكتب ص10 من رسائل ابن العربي - مطبعة حيدر آباد: 1361هـ/حول ابن سيدبون ينظر نفح الطيب للمقري (ج 2 ص 616)

(22) ف: (1): 283/ر: 125/ د: 175

(23) ف: (1) 538/ (24): ف: (2): 152/ (25): ف: (2): 405/ (8): 292

(26) ف: (8) 294/ (27): ف: (3): 352/ (28) ف: (7): 74 /

(29) ف: (4) 398/ (30): ف: (8): 358/ (31): ف (2): 421/

(32) ف: (8) 203/ (33): ف: (208 - 209/ (34): ف (6): 150/

(35) ف: (3) 302 - 303/ (36) ف: 279/

(37) ف: (1): 335 (38) ف (4): 302 - 303/ (39) ف: (1): 370/ (40) ف (5): 201/

(41) ف: (1) 379 - 380/ف: (3): 35/

(42) ف: (2): 312/ف: (3): 19 - 334/ (43): ف (1): 382 - 383/ (..) ف: (4): 223/

(44) ف: (3): 393/ (45) ف: (5): 137/ف (8): 136/

(46) ف: (1): 423/ف (4): 200/ (47) ف: (2): 368/

(48) ف: (1) 158/ف (2): 106 (49) ف (3): 478/ (50) ف (2) 404

(51) ف: (4) 415/ (52) (53) ف: (5) 173

(54) ف: (7) 388.

الأمير عبد القادر الجزائري مع الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

الفصل الأول: ترجمة الأمير[1]

قدّس الله سره

هو الإمام الأوحد، والعلم المفرد، العارف بالله، والتقي الأواه، عالم الأمراء، وأمير العلماء، الأمير الخطير، السيد عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري.

ولد في شهر رجب سنة 1222هـ/1807م في القيطنة، وهي قرية جده في أيالة وهران، من أعمال الجزائر. وتربى في حجر والده إلى أن بلغ سن التمييز، فحفظ الكتاب العزيز في المدرسة التي أسسها والده في القيطنة وتلقى بها بعض العلوم. وكان والده كأسلافه من العلماء الأعلام الذين يرجع إليهم في مشكلات الأحكام. ولما بلغ أربع عشرة سنة سار إلى وهران لاستكمال فنون العلوم.

وفي سنة 1241هـ/1826م سافر مع والده منها براً إلى الحجاز على طريق مصر، وبعد أداء فريضة الحج قصد المدينة المنورة لزيارة الحضرة الشريفة النبوية، ومنها توجها إلى دمشق بصحبة الركب الشامي. ثم سافرا إلى بغداد فزارا حضرة القطب الرباني الشيخ (عبد القادر الجيلاني) قدس الله سره، وأخذ كل منهما الإجازة بالطريقة القادرية، عن الشيخ محمود القادري، نقيب الأشراف، وشيخ السجادة القادرية، ثم رجعا إلى دمشق، ومنها عادا إلى الحجاز فحجا مرة ثانية، ثم رجعا إلى الوطن، وذلك سنة 1243هـ/1827م. وكان في مدة سفره يتولى خدمة أبيه بنفسه، مع كثرة الخدم الذين كانوا معهما.

وفي سنة 1832/1248م بايعه أهل الجزائر وولوه القيام بأمر الجهاد وذلك

(1) ترجمة مقتبسة من الترجمة التي كتبها ابنه محمد باشا في مقدمة كتاب الامير ذكرى العاقل وتنبيه الغافل.

بعد أن طلبوا مبايعة والده، واعتذر عن قبولها، فلما ألحوا عليه أشار عليهم بمبايعة ولده المشار إليه، لما رأى منه من الكفاية بما يتعلق بهذا الأمر الجلل، ولما اشتمل عليه من الأوصاف الجميلة التي تجعل النفوس الأبية خاضعة له ومنقادة إليه. فلما بايعوه قام بأمر الجهاد أتمّ قيام وجمع كلمة المسلمين في تلك الأقطار، وأحسن السياسة في رعيته، مقتفياً آثار أسلافه وأجداده الأدارسة الذين كانوا ملوكاً في المغرب الأقصى والأوسط والأندلس، فتمكن حبه في قلوبهم وبذلوا نفوسهم في طاعته، وامتثال أمره. وقد جرت بينه وبين دولة فرنسا، حروب تشيب لها الأطفال، استمرت نيفاً وخمس عشرة سنة. وفي مدة إمارته ضرب سكة سماها المحمدية.

وبينما كان مهتماً بذلك هاجمته العساكر المراكشية من خلفه لأسباب يطول شرحها، وفي أثناء محاربة هذا الجيش رأى أن الثبات بمقاومة هاتين الدولتين العظيمتين لا سبيل إليه، فجنح إلى السلم ثم فاوض أعيان من كانوا معه من المجاهدين في أن يتأمن دولة فرنسا لنفسه وأهله ومن يتبعه من قومه على أن يحملوه إلى الإسكندرية أو عكا من أرض الشام، فوافقوه على ذلك. وفي الحال خابر قائد الجيس الفرنسوي فيما اتفقوا عليه، على شروط قررها له، فأجابه ما طلبه واشترطه ثم حصل مركباً حربياً وحملوه ومن معه كانوا ينيفون على الثمانين نفساً إلى طولون وبعد ستة أشهر نقلوه إلى أمبواز، فأقام بها أربع سنين وستة أشهر.

ولما أفضى أمر فرنسا، إلى نابليون الثالث زار الأمير بها، وأظهر له تحية وإكراماً. وأسف أسفاً شديداً على تأخير الوفاء بإنجاز الشروط إلى ذلك الوقت،وبشره بالتسريح إلى بلاد الإسلام، وأخذ عليه العهد على أن لا يرجع إلى الجزائر، وأهداه سيفاً مرصعاً....ثم ركب الأمير ومن معه مركباً حربياً وسافر إلى الآستانة العلية فتلقاه بعض الوزراء على الميناء ومعهم العجلات السلطانية والخيول الجياد، وتقابل مع حضرة السلطان فاحتفل به احتفالاً عظيماً، وعامله بما يليق بمثله، وأكرمه غاية الإكرام، وأنعم عليه بدار عظيمة، في مدينة بروسة، بما اشتملت عليه من الأثاث والرياش فسكنها مع آله وحشمه. وأقبل على بث العلم وإفادة الناس.

وفي سنة 1270هـ/1854م ذهب إلى الآستانة. ومنها إلى باريز. ثم رجع إلى بروسة وحصل له، في هذه الحركة إقبال عظيم، واحتفال جسيم.

وفي سنة 1271هـ/1855م عزم على مبارحة بروسة، لتوالي الزلازل بها.

فاختار الإقامة بدمشق فأتى إليها، فتلقاه أهلها باحتفال عظيم، وأنزلته الدولة العلية في أحسن دار.

وفي سنة 1273هـ/1857م توجه لزيارة بيت المقدس والخليل. ثم رجع إلى دمشق. وأقبل على قراءة الكتب العلمية كالبخاري ومسلم. وكان قسم من دار الحديث، قد استولى عليه بعض الأجانب فسعى في استخلاصه منه، ببذل أموال طائلة.

وفي سنة 1277هـ/1860م وقعت الواقعة المشهورة في ذلك التاريخ، فبذل الأمير جهده في إسعاف المسيحيين، قياماً بما يوجبه أمر الدين، ولشجاعته وحسن تدبيره - قدس سره - تيسر إنقاذ ألوف عديدة منهم فأهدته الدولة التركية العلية، وسائر الدول العظام، علامات الشرف، من الدرجة الأولى. ثم سافر إلى حمص وحماه؛ فزار في حمص، أسد الله، سيدنا خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ورجع إلى دمشق.

وفي سنة 1279هـ/1862م قصد البلاد الحجازية، وأقام بها مدة سنة ونصف مقبلاً بها على العبادة، والخلوة، والحج والاعتمار، وحصل له هناك فتح عظيم، أشار إليه في قصيدته الرائية، التي مطلعها:

أمسعود جاء السعد والخير واليسر وولّت ليالي النحس ليس لها ذكر[1]

وفي سنة 1271هـ/1864م توجه إلى الآستانة لزيارة ساكن الجنان، السلطان عبد العزيز خان، والسعي في إسعاف من نسبت إليه الواقعة المنوه عنها، وتخفيف الجزاء، فاجتمع به، وأكرمه غاية الإكرام، وأهداه الوسام العثماني من الدرجة الأولى، وهو أكبر وسام في ذلك العصر، وأسعفه بمطلوبه. ثم توجه منها إلى باريز، للمقصد نفسه، فكان له الفضل في المسألة بدءاً وعوداً.

ثم توجه من باريز إلى لندن، فاحتفلوا به غاية الاحتفال. ثم عاد إلى الشام. ومن ذلك الوقت قويت الصلات بينه وبين ملوك أوروبا، والرؤساء المشهورين هناك. فكان ذلك وسيلة لقضاء حوائج المسلمين الذين هم في مستعمراتهم وحصل لهم - بذلك - من المنافع ما لا يوصف.

---

(1) القصيدة منشورة في ديوانه، الطبعة الثالثة (من 197.213) تحقيق الدكتور ممدوح حقي.

وفي سنة 1286هـ/1871م دعي إلى مصر لحضور الاحتفال بافتتاح خليج السويس، الذي دعي إليه ملوك أوروبا، وأمراؤها، فذهب إليه ثم رجع إلى دمشق.

وفي سنة 1288هـ/1871م أرسل نسخة من الفتوحات المكية مع عالمين جليلين إلى قونية، لمقابلتها وتصحيحها على نسخة موجودة هناك بخط مؤلفها الشيخ الأكبر - قدس الله سره - وبعد تصحيحها بكل إتقان قرأها على بعض الخواص من العلماء، فحصل لهم بذلك نفع عظيم.

وفي منتصف ليلة السبت التاسع عشر من شهر رجب الفرد سنة 1300هـ انتقل هذا الأمير الجليل إلى رحمة الله تعالى في قصره الكائن قرب قرية دمر، التي تبعد عن دمشق، مسافة ساعة[1] بعد أن مرض نحو خمس وعشرين يوماً. وكان مشتغلاً فيها بالمراقبة والذكر، ولم تبد منه شكوى، وانما كانت تلوح عليه سيماء الاستبشار بلقاء الله تعالى، والرضا بأحكامه. وقد تولى غسله، وتكفينه، نزيله الشيخ عبد الرحمٰن عليش أحد علماء الأزهر. وحمل نعشه المبارك على أكتاف الرجال الأماجد إلى الجامع الأموي وبعد الصلاة عليه شيعه أهل دمشق، بغاية الاحتفال والتعظيم ولم يزالوا سائرين بجنازته، من الهيبة والوقار ما تخشع له القلوب إلى حجرة الشيخ الأكبر، فدفن بها في جواره، ورجع الناس متأسفين على فراقه لمحاسن أوصافه، ومكارم أخلاقه.

وقد خلف - رحمه الله - عشرة من البنين أكبرهم: الأمير محمد، ويليه الأمير محيي الدين، والأمير الهاشمي، والأمير إبراهيم، والأمير أحمد، والأمير عبد الله، والأمير علي والأمير عمر، والأمير عبد المالك، والأمير عبد الرزاق. وخلف أيضاً ستاً من البنات وزوجة، وأربع أمهات أولاد.

وقد كان - طيب الله ثراه - مربوع القامة، معتدل الجسم، أبيض اللون، أسود الشعر، كث اللحية، أقنى الأنف، أضبط (أي يعمل بيساره جميع ما يعمله بيمينه) أشهل العينين، يمشي الهوينا.

وكانت له مبرات كثيرة، من جملتها: أنه كان يوزع مائتي ليرة في كل شهر،

---

(1) قدميه، إذ لم تكن السيارات المسافة بين دمشق ودمر هي سبع كيلومترات تقريباً، وقوله: مسافة ساعة، أي للماشي على قد وجدت بعد.

على العلماء والفقراء، فضلاً عما كان ينفقه في وجوه البر. وكان خرجه أكثر من دخله الوافر، فقد توفي وعليه ديون اقتضت بيع بعض أملاكه لوفائها. وهذا أكبر دليل على وفور كرمه. وهو يعظم أهل العلم، حسن المسامرة، لطيف المعاشرة لا يرد سائلاً، ولا يخيب قاصداً. وكانت رسائله تترى إلى سائر الجهات، بحيث لو جمعت لبلغت عدة مجلدات. لا ينسى أحداً من الذين تعودوا إحسانه، ولم يكن عنده شيء من الكبر، الذي تنزهت عنه نفسه المطمئنة، ولا يتأنق في الملابس والمطاعم لتحققه بالزهد، والتواضع، وعدم النظر إلى زينة الحياة الدنيا. وله - رحمه الله - خلوة بمنزلة في قرية أشرفية صحنايا، كان يتحنث فيها شهر رمضان مع العزلة التامة، وكان مُدّة عمره يتعبد على مذهب الإمام مالك (رضي الله عنه) وكان يتنافس بزيارته الفضلاء، ويتمثل بأشعار الأدباء، وكانت تأتي إليه من كل فج ويكافئ عليها بالجوائز العظيمة، حتى جمع له من القصائد، التي مدح بها في حياته ديوان ضخم، ورثاه الشعراء البلغاء.

وله تآليف مفيدة، أشهرها «المواقف» في التصوف، وتعليق على حاشية لأحد أجداده في علم الكلام، و«المقراض الحاد»، والرسالة المسماة «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل». ومن اطلع على هذه المؤلفات، عرف قدر فضله، وسعة علمه. وكانت له سليقة جيدة في نظم القريض. وكان يتمثل في المعارض، ببيت من قصيدته الحماسية المشهورة، وهو:

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي[1]

هذه لمعة من ترجمة حياة الأمير الشهير- قدس الله سره - وأغدق عليه سحائب الرضوان والمبرة، بجاه جده خاتم الرسل الكرام، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

(1) القصيدة في ديوانه المنشور، بتحقيق الدكتور ممدوح حقي، ص41 - 43.

الفصل الثاني: تصوّف الأمير عبد القادر

البعد الصوفي في شخصية الأمير ليس بعداً عارضاً أو طارئاً ألجأته إليه الظروف، بل هو متجذّر في أعماق فطرته، ويلمع من ثنايا سيرته من بدايتها إلى نهايتها. ويمكن تقسيم مساره الصوفي إلى ثلاث مراحل: التعلق ثم التخلق ثم التحقق.

- المرحلة الأولى: من ولادته في شهر رجب 1222هـ (سبتمبر 1807م) إلى مبايعته أميراً للقيام بالجهاد سنة 1248هـ (1832) ثم طيلة فترة جهاده التي انتهت عام 1262هـ (1847م) وهو في الأربعين من عمره، وهي مرحلة تعلقه بالتصوف والتعرف على رجاله. فقد ولد الأمير ونشأ في زاوية والده محيي الدين شيخ الطريقة القادرية (1) المنسوبة إلى إمام التصوف في القرن السادس الهجري الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت: 561هـ) الذي تتلمذ عليه قطب التربية الروحية في عصره الإمام شعيب أبي مدين (ت: 589هـ) - الذي اشتهر أمره في بجاية، وضريحه مزار مشهور في العبّاد بضاحية تلمسان - وهو الذي يعتبره الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي (ت: 638هـ) أكبر شيوخه.

ورث محيي الدين والد الأمير إمامة الطريق من أسلافه المشهورين بالصلاح والعلم والولاية والشرف، حيث أن نسبهم يصعد إلى الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم (2). وامتد إشعاع زاويته إلى أصقاع المغرب الإسلامي. ووالده مصطفى (ت: 1212هـ) كما كان شيخاً للقادرية، وكان أيضاً من ورثة الطريقة الحاتمية - أو الأكبرية - طريقة الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن العربي الحاتمي الطائي. أجازه فيها المحدث الصوفي الشهير السيد محمد مرتضى الزبيدي (ولد بالهند سنة 1145 وتوفي بمصر سنة 1205هـ 1719م).

وهذه الوراثة الأسرية للمشرب الأكبري، قد زادت رسوخاً عندما صحب محيي الدين وابنه عبد القادر - وهو في نحو العشرين من عمره - الشيخ المربي الشهير إمام الطريقة النقشبندية محمد خالد النقشبندي (1193 - 1242) وذلك خلال أقامتهما في دمشق إثر حجهما عام (1240هـ 1828م) (4). وهناك زارا ضريح الشيخ الأكبر لأول مرة. واقتداء بالوالد مصطفى بن المختار الذي سافر إلى بغداد ثلاث

مرات لزيارة زاوية وضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني وشيوخ الطريق هناك، توجه كذلك محيي الدين وابنه عبد القادر إلى بغداد لنفس الهدف، فجددا الإجازة في الطريقة القادرية من الشيخ محمود القادري، ومكثا بها ثلاثة أشهر، ومنها توجها للحج مرة ثانية.

وبوفاة الوالد محيي الدين عام 1249هـ (1833م) انتقلت الخلافة الروحية في الطريقة القادرية والسلوك النقشبندي والمشرب الأكبري إلى الأمير عبد القادر وهو حينئذاك زعيم الجهاد وعمره حوالي 27 سنة. ولاشتغاله بتكاليف الإمارة والجهاد، قام أخوه محمد السعيد بشؤون الطريقة، وقد توفي بدمشق عام 1278هـ وخلفه في المشيخة ابنه محمد المرتضى (1316 - 1245هـ/1829 - 1902م) الذي تزوج إحدى بنات الأمير. وكان له أتباع في الشام والجزائر، وله مكتوبات وأشعار في التصوف والإرشاد.

وفي أحضان أسرته منذ صباه بدأ الأمير مطالعاته في التصوف، ومنها كتاب «إرشاد المريدين» لوالده، ومنظومة جد جده المختار التي شرحها الإمام اليوسي (5). يقول الأمير:

[كنت مغرماً بمطالعة كتب القوم (يعني الصوفية) رضي الله عنهم، منذ الصبا، غير سالك طرقهم، فكنت أثناء المطالعة أعثر على كلمات تصدر من سادات القوم وأكابرهم يقف منها شعري وتنقبض منها نفسي، مع إيماني بكلامهم على مرادهم، لأني على بينة من آدابهم الكاملة وأخلاقهم الفاضلة] (6).

ثم ذكر أنه لما سلك مقاماتهم وذاق مواجيدهم صدرت منه هو أيضاً مثل تلك العبارات الشاطحة في حالات غيبية روحية يغيب فيها الذاكر عن نفسه في إحدى الحضرات العلوية بحيث تصير تلك الحضرة هي الناطقة على لسانه، ثم استشهد بقول الجيلي: [كل من اجتمع هو وآخر في مقام من المقامات الكمالية كان كل منهما عين الآخر في ذلك المقام]. ويحذر العقول القاصرة من الفهم السقيم لأحوال أهل الله تعالى أمثاله فيقول في الموقف 284: [واحذر أن ترميني بحلول أو اتحاد أو امتزاج أو نحو ذلك، فإني برئ من جميع ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإني فهمت منهما ما فهمت أنت وزدت عليك. وكلام الله وكلام رسوله بحر زخار لا نهاية لمدلولاته ولا قرار. وكل من قال

في مسألة هذا مراد الله تعالى لا زائد عليه، أو مراد رسوله صلى الله عليه وسلم لا غير، فقد أعظم الفرية] (7).

زيادة على مطالعاته الصوفية كان للأمير علاقات يومية برجال التصوف من أسرته وفي زاوية والده ومن الشيوخ الذين تتلمذ عليهم (8).

ولما تزعم الجهاد وحكم البلاد توسعت دوائر علاقاته بشيوخ مختلف الطرق الصوفية داخل الوطن وخارجه. ووجد الأمير من شيوخ أغلب الطرق الصوفية تأييداً ومؤازرة لجهاده (9). ومن أشهر الشيوخ خارج الجزائر الذين ساندوه إمام الطريقة الحراقية الدرقاوية في المغرب الشيخ محمد الحراق التطواني (1188 - 1261هـ) الذي خاطبه الأمير في إحدى رسائله له بقوله:

[فإنا نعلم أنك وجميع المؤمنين متهولون من أمرنا مع الكفار منتظرون ما يرد عليكم من عندنا من الأخبار.... وما أصابنا من خير فببركتكم ودعائكم ورضاكم عنا. ولا تنسونا من صالح دعائكم] (10).

ومنهم شيخ الطريقة البودشيشية القادرية المغربي المختار بن الحاج محيي الدين بن الحاج المختار (ت: 1914م) الذي تزعم الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي قرب الحدود المغربية الجزائرية (11)، ومنهم في مصر شيخ الأزهر مفتي المالكية وشيخ الطريقة الشاذلية الإمام محمد عليش (ت: 1882 م) وابنه عبد الرحمٰن (ت: 1930م) (12).

ومما يدل على أصالة وعمق الطابع الصوفي في الأمير، أن الهموم الكبرى للجهاد المتواصل والمشاكل المستعصية في إدارة البلاد لم تلهه عن دوام ذكره لربّه وتبتله في العبادة. وإشراقاته الروحية كانت أحياناً تفيض فتلوح على ظاهره ويتنبه لها حتى أعداؤه. خلال إحدى معاركه، ذات ليلة تسلل رجل دون أن يراه الحراس إلى خيمة الأمير وهو منهمك في تلاوة القرآن، وعندما سمع صوت الأقدام رفع رأسه فرأى زنجياً طويل القامة واقفاً أمامه وفي يده خنجر، لكن فجأة رمى الرجل الخنجر وخر مرتمياً على قدمي الأمير قائلاً: [لقد جئت لأطعنك، ولكن منظرك قد جردني من سلاحي، فقد رأيت هالة النبي فوق رأسك] ووقف عبد القادر ببطء دون أن يظهر عليه أي تأثر، ووضع يده على رأس الزنجي وقال: [لقد دخلت خيمتي قاتلاً، وإنّ الله الذي قد هداك إلى التوبة قد حكم على أن تخرج منها بريئاً، فاذهب

وتذكر أنّ عبد الله قد عفا عنك] (13)... حتى عدوه الشرس الألدّ السفاح الجنرال بوجو شعر بلوائح الولاية التي تشع من الأمير فوصفه في بعض رسائله بأنه في شكله يشبه المسيح، واعترف بمثل ذلك الجاسوس ليون روش فيقول عنه: [يحمل بيده اليمنى دائماً سبحة سوداء، يسبح بها بسرعة، ولا يتوقف عن التسبيح عندما يخاطبه مخاطب. وإن بحث فنان على صورة لعابد من عباد القرون الوسطى يضعها على لوحته، فإنه لن يجد حسب رأيي، نموذجاً أفضل من الأمير، إن مزيجاً من مضاء العزيمة على الجهاد، ومن الزهد، يضيء محياه بفتنة رائعة].

ويروي روش أنه كان في ليلة من الليالي الشتاء أثناء حصار نائماً في خيمة الأمير، وبينما هو نائم عاد الأمير منهوكاً من عمليات الحصار، وظن أن روش مستغرق في نوم عميق، فأدى فريضة الصلاة ثم استغرق في التضرع إلى الله والابتهال، وكانت عيناه متطلعتين إلى السماء، وشفتاه مفتوحتين كأنه ما زال يتلو الآيات، وبلغ حالة من الذهول والتشوف إلى الله توحي لمن ينظر إليه بأنه فارق العالم الدنيوي وتسامى إلى العالم العلوي (14).

كانت هذه حالة الأمير خلال الفتنة التي تأججت بينه وبين شيخ الطريقة التجانية في عين ماضي بنواحي الأغواط محمد الحبيب (ت: 1269هـ) ابن مؤسس الطريقة الشيخ أحمد التجاني (ت: 1230هـ)، وفي هذه الفتنة يظهر خلق آخر من أخلاق الأمير الصوفي، وهو خلق الرجوع للحق عند تبينه، وعدم الانتصار للنفس، فبعد المعاهدة التي تمت بينه وبين الشيخ محمد الحبيب تبينت للأمير حقيقة الشيخ، وكان الأمير قد استعان في حصاره له، بأسلحة ومدافع بعثها له الفرنسيون وفق معاهدة التافنا، وبأمر من الحاكم العام فالي. لكن بعد أن وضعت الفتنة أوزارها تحقق الأمير أن موقفه من الشيخ نتج عن مكر من سماهم بالفتانين، فكتب الأمير للشيخ محمد الحبيب معتذراً في رسالة مؤرخة في يوم 23 من ذي القعدة عام 1254 هـ وهي لا تزال محفوظة بزاوية عين ماضي - بعثها مع أحمد بن الشيخ محمد الحبيب الذي بعث إليه كرهينة وأرسل معه هدايا - ونص الرسالة بعد الحمدلة والصلاة: (إلى السيد محمد الحبيب ابن العلامة السيد أحمد التجاني لقد وصلني جوابك الذي لا إيماء بعده بعد أن عجزت عن الولوج داخل حصنكم وبعد أن أدركت حقيقتكم وعلمت أن ما دار بيننا إنما هو وشاية فقط وتدخل الفتانين بيننا،

ولهذا فإني أرجو عفوكم عنا وهذه هدية متواضعة تصلكم مع ابنكم أحمد عساها تجدد الروابط الأخوية بيننا. من الفقير إلى مولاهم الغنى كثير الذنوب والأوزار عبد القادر بن محيي الدين المصطفى بن المختار عامله الله بلطفه في الدنيا ودار القرار) (16).

فانظر إلى هذا التواضع والإنصاف من أمير في أوج عزته وعنفوان شبابه إذ كان عمره حينذاك 32 سنة.

المرحلة الثانية: تتألف من فترتين: فترة سجنه ثم فترة السنوات الأولى من استقراره في دمشق بعد إقامته في بروسة بتركيا.

- فترة الاعتقال ما بين 1847 و1852 (1264 - 1270هـ): نكث حكام فرنسا عهدهم بترك الأمير حراً هو ومن معه ليذهبوا إلى المشرق، فأمضوا قريباً من خمس سنوات في سجن تولون Toulon وبو Pau وأمبواز Amboise ومات منهم خلالها نحو خمس وعشرون شخصاً. ولم يستسلم الأمير للقنوط رغم مرارة المحنة، فجعل من سجنه مدرسة لتعليم أصحابه، فكانوا يتدارسون كتب الشريعة والتصوف والأدب والتاريخ. وكتب حوالي سنة 1850م رسالة (المقراض الحاد) في الدفاع عن الإسلام رداً على انتقادات قسيس مسيحي؛ وجعل الأمير من سجنه أيضاً خلوة للذكر والتفكر والتعبد، فأشرقت عليه مطالع الفتح النوراني وحصلت له وقائع روحانية ومشاهد ومرائي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخليل إبراهيم عليه السلام، وهو ما أومأ إليه في الموقفين 83 و211 من كتابه المواقف (17)، وتحت وطأة خذلان الأصدقاء وخيانة وشماتة الأعداء لم تتزلزل فتوته الصوفية وشهامته الهاشمية. جاءه في سجنه الجنرال دوماس مكلفاً من قبل فرنسا ليتقدم إليه بأسخى العروض: مكانة مرموقة في فرنسا، قصر ملكي وحرس شرف، وكل الأبهة والرفاهية الجديرة بأمير في مقابل أن ينسى الوعد الرسمي الذي أعطاه له حكام فرنسا مقابل وضع حد لجهاده. وكان عبد القادر يستمع الاقتراح المغري المخزي في صمت وازدراء، وعندما ألح عليه في الرد ركز عينيه فيه وأجابه بحدة وتعجب: (... عجباً إن مواهبك الدبلوماسية التي لا أشك فيها هي مفيدة جداً لفرنسا، ولكني أرجوك أن لا تبددها معي عبثاً). ثم أخذ بطرف برنسه بكلتا يديه ومال نحو النافذة، وقال بصوت حاد: (لو حملت إليّ باسم ملكك كل ثروات فرنسا وأمكنك وضعها في

طرف برنسي لفضلت أن أرمي بها جميعاً حالاً في هذا البحر الذي يلطم بأمواجه جدران سجني على أن أعيد عليكم الوعد الذي أعطي لي من ذلك العهد إلى قبري...) (18).

هذا الجنرال الفرنسي دوماس المكلف بحراسة الأمير أثناء سجنه في قلعة «لامالق» Lamalgue يكتب إلى أسقف مدينة الجزائر دوبوش DUPUCH الذي كانت بينه وبين الأمير مراسلات، يصف له حالته في السجن فيقول:

[... إنك بالتأكيد لن تندم على زيارتك له، إنك عرفت عبد القادر في أيام عزه، عندما كانت كل الجزائر تقريباً تعترف بحكمه. حسناً، إنك ستجده أعظم وأجل في محنته منه في عزه، إنّه ما يزال، كما عرف عنه، يسمو إلى أعلى الدرجات إنك ستجده معتدلاً بسيطاً جذاباً متواضعاً ثابتاً لا يشكو أبداً، معتذراً لأعدائه - حتى أولئك الذين ما زال يمكن أن يعاني على أيديهم كثيراً - ولا يسمح أن يذكروا بسوء في حضرته] (19).

- الفترة الثانية: من هذه المرحلة الثانية في المسافر الصوفي للأمير تبدأ من خروجه من السجن عام 1270هـ/1852م إلى سنة حجه عام 1279هـ/1862م، فبعدما خرج من السجن وقضى سنتين في بروسة بتركيا حيث ألف كتابه: - ذكرى العاقل وتنبيه الغافل- عام 1271هـ/1855م وقدمه لمجمع الخالدين في باريز (20)، توجه في ربيع الثاني من عام 1272هـ/1855م لدمشق ليستقر بها، وقبل أن ينزل منزله ذهب مباشرة لزيارة مقام الشيخ الأكبر وكأنّه هو مضيفه الأول... ثم أنزله حاكم دمشق عزت باشا في المنزل الذي سكنه وتوفي فيه الشيخ الأكبر قبل ذلك بنحو ستة قرون (21).

وفي دمشق توسعت دوائر علاقات الأمير بشيوخ التصوف (22)، وقيل أنه أخذ الطريقة المولوية التي أسسها الصوفي الشاعر الشهير جلال الدين الرومي (ت: 672هـ) دفين قونية بتركيا، أخذها عن الشيخ درويش صبري (23).

وفي هذه الفترة أتيح له دراسة كتب الشيخ الأكبر التي لم يطلع عليها من قبل، وهي تعد بالمئات. وكلما ازداد عكوفاً عليها زاد بها شغفاً وازدادت العلاقة الروحية بينه وبين الشيخ عمقاً... فهو مثلاً يقول في الموقف 358 عن كتاب «التجليات»: [لو كتب بماء العيون كان قليلاً في حقه وهو أحق بقول القائل: هذا

كتاب لو يباع بوزنه ذهباً لكان البائع مغبوناً... أودع فيه من الحقائق والعلوم الإلٰهية ما لا يصدر إلا منه، ولا أقول لا يصدر إلا من مثله، فافهم].

وخلال كلامه في الموقف 248 على حركات الأفلاك يقول عن كتاب (عقلة المستوفز) أن الشيخ لم يذكر فيه إلا «ما أعطاه الكشف الصحيح وما هو الأمر عليه في حقيقته. وفي الفتوحات ذكر ما عليه علماء الهيئة وما تعطيه المشاهدة البصرية لأهل الأرصاد».

المرحلة الثالثة: مرحلة التحقق والفتح الكبير.

من معاناته الوجدانية ومطالعاته ومعرفته لكثير من الشيوخ تيقن الأمير أن التحقق الكامل بالسلوك العرفاني الخالص لا يحصل إلا بما قاله في الموقف الرابع: [إن كل من لم يسلك طريق القوم ويتحقق بعلومهم حتى يعرف نفسه لا يصح له إخلاص ولو كان أعبد الناس وأورعهم وأزهدهم وأكثرهم تدقيقاً وبحثاً عن دسائس النفوس وخفايا الغُيوب. فإذا رحمه الله تعالى بمعرفة نفسه صح له الإخلاص].

ومعلوم عند رجال التربية الروحية أن معرفة العبد نفسه ليعرف ربّه لا يتحقق إلا بالأخذ عن الشيخ المربي الوارث الكامل الحي وذكر الاسم الأعظم المفرد (الله). وتطلعت همة الأمير لذلك إلى أن حصل على مقصوده في مكة المكرمة خلال حجه عام 1279هـ/ (1863م) وعمره نحو 57 سنة حيث أخذ الطريقة الدرقاوية الشاذلية عن الشيخ محمد بن مسعود الفاسي (المتوفى بمكة عام 1289 هـ)، وهو أخذها بليبيا عام 1242هـ عن الشيخ محمد حسن بن حمزة ظافر المدني (ت: 1268هـ) ناشر الطريقة الدرقاوية في ليبيا والشرق الأوسط والحجاز وتركيا حتى سميت باسمه (المدنية)، وهو أحد خلفاء محيي الطريقة الشاذلية في القرن الثالث عشر الشيخ العربي الدرقاوي المغربي (1151هـ/1239هـ) (24).

ومن الأسباب التي جعلت الأمير يسلم زمام سلوكه الروحي للشيخ محمد الفاسي هو تطابق المنهج والمشرب الدرقاوي الشاذلي في التربية الروحية والأذواق العرفانية مع المنهج والمشرب.فوجد عنده ما يُرْوي ظمأه العرفاني الحاد، ويلبّي ما تصبو إليه همته العالية من التحقق بكمال المعرفة والولاية. وسرعان ما قطع الأمير معارج السلوك بإشراف شيخه في الحرمين الشريفين حيث قضى عاماً ونصف عام متجرداً للذكر والتوجه والعبادة في خلوات انقطع فيها لذكر اسم الجلالة (الله).

وخلوته الأولى كانت في غار حراء بجبل النور حيث تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي لأول مرّة... وكما ذهب الشيخ الأكبر للطائف بعد حجه عام 599هـ لزيارة ضريح الصحابي عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - حيث كتب «حِلْية الأبدال»، فكذلك فعل الأمير إثر خروجه من خلوته الأولى، فذهب إلى الطائف سائحاً معتكفاً مدة ثلاثة شهور... ثم في أواخر رجب من عام 1280 - أي بعد عام من وصوله للحجاز - استقر في المدينة المنورة فشرع في خلوة أخرى دامت شهرين... يقول ابنه محمد في كتابه «تحفة الزائر» عن هذه الوقائع: [واختار الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة المكرمة أستاذاً له فأخذ عليه الطريق وتلقى شؤونها عنه، ولازم الرياضة والخلوة والاجتهاد، وعكف على ما في تلك الطريقة الميمونة من الوظائف والأوراد إلى أن رقى معارج الأسرار إلى حضائر القدس ذات الأنوار. ووقعت له كرامات وخوارق، وأحرز بقوة سعده أحوالاً سنية وأنفاساً محمدية. وما تم له الارتقاء إلا وهو في غار حراء لأنه انقطع فيه أياماً عديدة إلى أن جاءته البشرى بالرتبة الكبرى، ووقع له الفتح النوراني، وانفجرت ينابيع الحكم على لسانه، وفاضت عيون الحقائق بين أرواح جناحيه، وانفتح له باب الواردات، فاستظهر من القرآن العظيم آيات ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحات، فكتب من خلوته إلى حضرة أستاذه يصف بدايته ونهايته، ويثني على الله بما أولاه على يده بقوله:

[أمسعود جاء السعد والخير واليسر   وولت جيوش النحس ليس لها ذكر](25)

ثم ذكر بقية القصيدة المؤلفة من 111 بيتاً، وهي تدل على ضرورة صحبة المربي الحي لكل من أراد التربية الروحية الكاملة مهما كان مبلغه من العلم الظاهر. وما تم للأمير ذلك رغم ورعه وزهده وجهاده ومجاهداته ومعارفه ومواجيده، إلا بتحقيقه لهذا الشرط، ولم تطب ثمار صلته الروحية بالشيخ الأكبر إلا بصحبته لأستاذه محمد الفاسي الدرقاوي الذي لقنه الاسم الأعظم ورفعه إلى التحقق الكامل بالمعارف الأكبرية.

يقول عنه ابنه محمد أنه دخل المدينة المنورة في 26 رجب 1280هـ [ونزل محلاً لصيقاً بجدار المسجد، وهو في الأصل بيت سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وله خوخة في المسجد وهي التي قال فيها صلى الله عليه وسلم «كل خوخة في المسجد تسد إلا خوخة أبي بكر». فانقطع الأمير في ذلك المحل المبارك مدة

شهرين فقويت بها معارفه، وانكشفت له الحقائق القرآنية والأحاديث النبوية. ومن طالع مواقفه في الحقائق وقف على ما أشرنا إليه (...) واستمر الأمير مدمناً على أداء وظيفة أوراده في الخلوة والجلوة لم يلحقه في ذلك فتور. وفي الشهر الأخير من إقامته في المدينة المنورة كان يكثر من زيارة أُحُد وقبور الشهداء والصلاة في مسجد قبا] (26).

وما رجع الأمير لمقره في دمشق إلا وهو عارف واصل وشيخ كامل مفتوح عليه في المعرفة والتربية الروحية على المنهاج الشاذلي والمشرب الأكبري زيادة على معرفته العميقة بأساليب التربية في الطرق الأخرى.

وخلال هذه المرحلة الأخيرة، مرحلة التحقق والتمكين التي تواصلت معارجها وفتوحاتها حتى وفاته وعمره 78 سنة - كعمر أستاذه في عالم الأرواح الشيخ محيي الدين - انتقلت علاقة الأمير بالشيخ الأكبر من القوة إلى الفعل، وعبّر عنها في كتابه «المواقف»، وذكر فيه بعض وقائعه ومشاهده الروحية لشيخه الأكبر كما في المواقف 294 و298 و346، 372.

وفي دمشق ظهرت ثمرات سلوكه الصوفي، فالتف حوله جماعة من أهل العلم والصلاح وشيوخ الطريق يقتطفون منها غذاء التربية وعوارف معارف روح وريحان...

يقول عنه جواد المرابط:

[وفي دمشق كانت له سيرة هي القدوة لأكرم الناس، وقد كان فيها آية من آيات الله أشرقت عليها من وجوده. وفيها نسي إمارته وجاهه ومجده، نسي كل شيء إلا خالق الأشياء، فكان منه المؤمن العابد والداعية إلى الله. وفيها درّس وألف وأقام مجالس العلم وحلقات الذكر وفيها ألف كتاب المواقف (...) وسمعت من المرحوم عمي السيد يوسف أنّ سبب الصلة بين الشيخ محمد مبارك الحسني الجزائري الشهير بتقواه وورعه وصلاحه وبين الأمير عبد القادر ما كان يعلمه الشيخ مبارك من زهد حقيقي للأمير. وقد ذكر لي من زهده أنه كان يدخل الخلوة أربعين يوماً في أشرفية صحنايا، وأحياناً يكون قوته في خلوته كسرة من الخبز صغيرة مع قليل من الزيت بقدر ملعقة، وأن عادته أنه كان يتقلل من الطعام ومن الدنيا، يأخذ ما يأخذ للضرورة وبقدر الحاجة (...) كان يفعل الأمير كل ذلك في حين كان يأكل عشرات الضيوف

وعشرات الخدم من مطبخه وهو ما كان يتناول إلا لوناً واحداً من الطعام. ثم قال لي المرحوم السيد يوسف إن الأمير كما قال الجنيد عن المتصوفة أنهم لم يأخذوا التصوف عن القيل والقال، ولكن من مجاهداتهم نفوسهم وكبحهم شهواتهم وتركهم الدنيا وقطعهم المألوفات والمستحسنات، فليس الاعتبار عندهم للخرقة وإنما الاعتبار للحرقة. لقد كان الأمير عظيماً في عمله، عظيماً في حروبه، عظيماً في سلطانه على نفسه، عظيماً في زهده، عظيماً في روحه؛ وإنّما يدرك عظمة تلك الروح من يعلم - كما كان يعلم الأمير - أن الثروة والسلطة والجاه ما من شيء من ذلك يهب السعادة، وأن الزهد في ذلك كله هو السعادة] (27).

وأخيراً أوصى الأمير بدفنه جوار أستاذه في الصالحية بدمشق. يقول في ذلك ابنه محمد: [ودفن مع أستاذه الأكبر (...) المرء مع من أحبّ، وفيه تنبيه على أنهما من طينة واحدة. فلهذا كان يقتفي آثاره ويتعهد معاهده، ومال زال يغترف من بحر فتوحاته، ويقتبس من مشكاة تجلياته، ويتحقّق بنصوص فصوص حكمه، ويتخلق بحسن أخلاقه وشيمه، حتى حاكاه في القول والفعل، وسار على قدمه حذو النعل بالنعل، فشيد أركان الشريعة والطريقة، فهو محيي الدين في الحقيقة (...) وله في التصوف المقام الشامخ، والباع الطويل والقدم الراسخ، ومواقفه الكريمة أعدل شاهد بكمال ذوقه في تلك المواقف] (28).

ومن بين آلاف برقيات ورسائل التعزية، انتخب أهله أربعة أبيات فيها ذكر للمواقف وهي لصديقه الحميم شيخ دمشق وكبير علمائها، السيد عبد المجيد الخاني، فنقشت على شاهدة قبره وجعل عدد الشطر الثاني من البيت الأخير يساوي بحساب الجمل سنة وفاة الأمير، أي عام 1300هـ، وهي:

لله أفـــق، صـــار مـــشرق دارتـــي	قمـرين هـلا مـن ديـار المغـرب
الـشيخ محيـي الـدين، ختـم الأولـيا	قمـر (الفـتوحات) الفـريد المـشرب
والفـرد عـبد القـادر الحسني الأمير	قمـر (المواقـف) ذا الولـي ابـن النبـي
مـن نـال مـن أعلـى رفـيق، أرّخـوا	أزكـى مقامـات الـشهود الأقـرب

مراجع حول فصل «تصوّف الأمير»

- ت - تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر - تأليف محمد بن الأمير عبد القادر - جزءان المطبعة التجارية بالإسكندرية 1903.

- مو - المواقف للأمير عبد القادر - دار اليقظة العربية - دمشق 1386هـ/ 1966م.

- ح - حياة الأمير عبد القادر - شارل هنري تشرشل - ترجمة أبي القاسم سعد الله - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر - الطبعة الثانية 1982م.

- نص - التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري - جواد المرابط - دار اليقظة - دمشق 1966م.

Es - كتاب Ecrits spirituels بالفرنسية لميشال شود كيفيكز دار نشر ساي 1982.

- تس = تاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله أبي القاسم - تسعة مجلدات - ط 1. دار الغرب الإسلامي بيروت 1998.

- حر = الحياة الروحية للأمير عبد القادر - الأكاديمية الجامعية لمدينة الجزائر - ملتقى الجزائر 29 يونيو - 1 يوليو 1998.

- م = مذكرات الأمير عبد القادر - شركة دار الأمة 1994 الجزائر.

- ف = فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني - دار الغرب الإسلامي ط2 - 1402هـ.

- مل = كتاب الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر والقيم الإنسانية - دار الحكمة - 2001 الجزائر.

1 - حول زاوية والد الأمير: م 8 - 29.

2 - حول نسب الأمير: ك27 - 28/ت: 297 - 304.

3 - حول إجازة الزبيدي لجد الأمير: II Es 22: تنظر ترجمة الزبيدي في كتاب فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني تحت رقم 300 وفي تاريخ الجبرتي.

وحول سلسلة شيوخ الطريقة والخرقة الأكبرية من الأمير إلى الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي ينظر Es 183 - 184. وكتاب كلود عداس بالفرنسية Ibn Arabi ou la quéte du soufre rouge 372... 377.

4 - حول صحبة الأمير ووالده للشيخ خالد النقشبندي: ت: II 304 وعناوين بعض المراجع حول الشيخ خالد ينظر: مل 122 مجلة مسالك رقم 5 الجزائر 2001 Es 27.

5 - II 301.

6 - مو 34.

7 - مو 869.

8 - حول بعض شيوخ الأمير: م30... 37.

9 - العديد من شيوخ القادرية والدرقاوية والشاذلية والرحمانية وفرع العزوزية بالجنوب الشرقي الجزائري كانوا من خلفاء وقضاة دولة الأمير.

10 - حول علاقة الأمير بالشيخ الحراق: مل 123 - 129/124 - 131 ينظر أيضاً مجلة مسالك رقم 5 - ص28.

11 - حول جهاده وعلاقته بالأمير ينظر المجلة المغربية «الإشارة» العدد 12 شعبان 1412هـ مقال لأحمد الغزالي: «من منسي تاريخنا الجهادي والروحي».

12 - حول علاقة الأمير بالشيخ عليش وابنه عبد الرحمن: مل 110 - 111/ Es 191 - 192/ ترجمة عليش في كتاب «شجرة النور الزكية» لمحمد مخلوف تحت رقم 1543 - وكتاب بالفرنسية لميشال فالسان عنوانه ° L'islam et la fonction de René Guénon,

13 - ح 238 - 239.

14 - محمود عياد، عبد القادر الإنسان، مجلة الثقافة، عدد 75 (رجب شعبان 1403هـ) ص277.

16 - حول ما وقع بين الأمير ومحمد الصغير التجاني ينظر:

- ح الفصل التاسع ص: 125... 134/ت حوادث 1254هـ (1838م).

- مذكرة ماجستير لابن يوسف تلمساني بعنوان «الطريقة التجانية وعلاقاتها ببايلك الغرب والأمير عبد القادر (1782م - 1839م) وهي من منشورات معهد

التاريخ بالجزائر سنة 1986م - 1987م.

- كتاب (أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه) لعبد الباقي مفتاح.

- المجلة الإفريقية عدد 47 مارس 1864 ص354 - 371 - عدد 48 نوفمبر 1864، ص 434 - 453.

17 - حول مبادئ فتوحات الأمير في السجن ينظر: نص 18 - 19.

18 - محمد بلغراد، الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر - مجلة التاريخ - النصف الأول من سنة 1983م - عدد خاص في الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر - ص: 77 - 78.

19 - ح: 257 - 258.

20 - كتابه هذا: (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) نشره ابنه محمد باشا في مطلع القرن العشرين، ثم أعاد نشره وتحقيقه ممدوح حقي في دمشق عام 1976م.

21 - 66 II.

22 - حول علاقات الأمير بالعلماء وبالصوفية ينظر: مل 106 - 134.

23 - تس 59 IV.

24 - تنظر عناوين مراجع حول شيخ الأمير محمد الفاسي ومحمد ظافر المدني والدرقاوي في مجلة مسالك العدد 5 الجزائر 2001 ص28 و: مل 124.

25 - 136 II - 137.

26 - 142 II - 143.

27 - تص.

28 - 267 II.

الفصل الثالث: التعريف بكتاب المواقف للأمير عبدالقادر

1 - ما هو العنوان الصحيح للكتاب؟

الجواب يعطيه الأمير في الموقف 360 حيث يظهر أنّه اختار لعنوان كتابه أولاً لفظة (المواقف)، ولما وصل إلى الموقف 360 ورد عليه الإلهام بأن يزيد في العنوان، فقال: « قيل لي: زد في تسمية كتابك: المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف». فهذا هو العنوان الصحيح الكامل. والعنوان الموجود في طبعة الجزائر سنة 1996م فيه زيادة حيث تقرأ: (المواقف الروحية في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف والإلقاءات السبوحية). وأمّا العنوان الموجود في طبعة دمشق سنة 1967م فهو: (كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد).

2 - زيادة على كتاب المواقف، ما هي المراجع التي فيها ذكر للكتاب وكيفية تأليفه؟

توجد على الأقل ثلاثة مراجع أصلية:

- المرجع الأول كتاب (تحفة الزائر في مآثر عبد القادر وأخبار الجزائر) للأمير محمد بن الأمير عبد القادر، ففي جزئه الثاني يقول:

[وله (أي الأمير عبد القادر) في فن التصوف المقام الشامخ والباع الطويل والقدم الراسخ. ومواقفه الكريمة أعدل شاهد بكمال ذوقه في تلك المواقف والمشاهد...] (1).

وفي خاتمته يؤكد أن هذا الكتاب هو أهم مكتوبات الأمير فيقول عنه: [وبرع في فنون علم الشريعة والحقيقة، وله تآليف عديدة، وحسبك منها كتاب المواقف في علم الحقيقة، وهو لعقد تآليفه واسطة النظام ولمطلع مجده بيت القصيد وحسن الختام، ومن أمعن النظر في خطبته أدرك منها فضله وأقر بعلو مرتبته] (2).

كذلك في مقدمة ديوان والده يذكر الأمير محمد كتاب المواقف فيقول: [ولم أتعرض لذكر ما له من النظم في الحقيقة واللطائف، حيث أنه قدس الله سره أثبتها في كتابه المسمى (بالمواقف)].

- المرجع الثاني هو كتاب [الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية] (3) للشيخ عبد المجيد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن مصطفى الخاني الدمشقي الذي كان هو وأبوه محمد (ت: 1319هـ) من أخص أصحاب الأمير، وجده محمد كان من خاصة أصحاب الشيخ المربي الشهير خالد النقشبندي (ت: 1242هـ) وكلفه الشيخ خالد بالرعاية الروحية لمحيي الدين والد الأمير لما دخل في دائرة تربيته خلال إقامتهما بدمشق في سفرهما للحج عام 1240هـ (1826م) (4). وأما أبوه محمد الخاني فكان من الملازمين للأمير، وهو الذي جمع جل المواقف كما صرح بذلك في الموقف 363 حيث يقول أنه هو الذي أم الجنازة على الأمير في جامع بني أمية وواراه بالقرب من ضريح الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي (5) ثم قال: [وكنت أراجعه كثيراً في بعض المسائل وأسأله حول بعض إشكالات الفتوحات والفصوص وغيرها، فلكثرة حبه للخير وبذله، مع كثرة أشغاله، كان يقيد ما ظهر له بالكشف ويوضحه ويعطيني إياه، وكنت حريصاً عليه فأقيده في (المواقف) بإذنه، كما يشير إلى ذلك قوله في بعض المواقف «قد سألني بعض الإخوان»... والتصريح باسمي في شرح فص شعيب وفص إسماعيل وفص آدم عليهم الصلاة والسلام، وجزاه الله عني خير ما جازى به أحداً عن أحد، فإن تفضلاته على هذا العبد لا تنضبط، وكنت طلبت منه شرح خطبة الفتوحات وشرح فص آدم فابتدأهما ولم يتمهما، فوجدت ما كتبهما في كناشه مع فوائد أخرى ومبشرات له، ومن جملتها بعض ما قيدته هنا، فأحببت تقييدها كالذيل لمواقفه خوف ضياعها مستمداً ومستأذناً من روحانيته الشريفة، قدس الله وطهر روحه اللطيفة...]. وهذا الكلام من الشيخ محمد الخاني نقله ابنه عبد المجيد في كتابه (الحدائق الوردية)، وفيه وصف الأمير بأنه (وارث العلوم الأكبرية) ثم أتبعه بنص الموقف 365 كما هو في طبعة الجزائر.

- المرجع الثالث: هو كتاب جواد المرابط وعنوانه «التصوف والأمير عبد القادر» (6) وقد أخذ مؤلفه المعلومات التي ذكرها عن عمه يوسف المرابط وهو عن أبيه عبد الرحمن المرابط الذي كان صديقاً للأمير ورفيق صباه في الجزائر، ودعاه الأمير للالتحاق به في دمشق.

3 - ما السبب الذي دفع الأمير لكتابة المواقف وما مصدرها؟

دافع الأمير لكتابة المواقف هو غرامه بالمشرب العرفاني للشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي (7) لأنه - في اعتقاده - يمثل أعلى مناهل المعرفة الإحسانية في الإسلام، وهو ما عبر عنه أكبر مدافع عن نفس المشرب في القرن الحادي عشر الهجري الشيخ عبد الغني النابلسي (ت: 1143هـ) في أبيات قصيدة له يقول فيها:

كتاب الله جامع كل شيء	وسنة أحمد المختار شرح
وشرحهما الفتوحات التي من	جناب القدس جاء بهن فتح
لشيخ شيوخنا العربي من قد	أتانا منه فيض هدى ومنح
ووالله العظيم يمين عبد	صدوق ما عليه بذاك جنح
أئمة ديننا ما صنفوا في	شريعتنا كتلك ولا يصح
وكيف وقد حوت لعلوم رسم	وكشف كله للناس نصح
وفي الإسلام ليس لها نظير	فيحوي ما حوت وهو الأصح

فكرس الأمير جهده الروحي في الشام لنشر المعارف الأكبرية، وعبر في المواقف عن عميق إجلاله للشيخ الأكبر، فوصفه بأنه خاتم الورثة المحمديين (8) وإمام العالمين بالله تعالى ورسله (9) وإمام المكاشفين من الأولياء (10) وإمام المحققين (11). وصرح بمصدر المواقف فقال عن الشيخ الأكبر: [فإنه خزانتنا التي منها نستفيد ما نكتب إما من روحانيته وإما مما كتبه في الكتب] (12).

وليغترف الأمير من البحر الأصلي للفتوحات أرسل في سنة 1287هـ (1871م). أي 12 سنة قبل وفاته - عالمين من أصحابه إلى مدينة قونية حيث توجد النسخة الأصلية للفتوحات، فقاما بتحقيق هذا الكتاب الضخم. وهذان العالمان هما: الجزائري محمد الطيب المبارك الذي كان شاعراً أديباً صوفياً هاجر مع والده من بلده دلس حيث ولد عام 1255هـ، واستقر في دمشق عام 1263هـ ومات ودفن بالمزة عام 1313هـ (13)، والثاني هو أحد شيوخ النقشبندية الناشرين للمشرب الأكبري في التصوف محمد الطنطاوي - ولد بمصر عام 1240هـ.

كيف ابتدأت كتابة المواقف؟

خلال الأيام الأولى من حلول الأمير بدمشق في ربيع الآخر من عام 1272هـ (1856م) وقع أن أحد زائري الأمير كان معه ابنه، واستأذن الابن بالانصراف

من والده، فأذن له قائلاً: (الله معك)، فعلق الأمير على هذا الدعاء من الأب بكلام جميل حول العلاقات بين الأب والابن، مستلهماً الآية 4 من سورة الحديد: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (14). وبعد أن انتهى من كلامه طلب ثلاثة من سامعيه تسجيل ما نطق به، فأذن لهم، وكان ذلك منطلق نواة كتاب المواقف (15). وهؤلاء الثلاثة هم الشيخ محمد الخاني المذكور سابقاً والشيخ محمد الطنطاوي المذكور سابقاً أيضاً، والثالث هو الشيخ عبد الرزاق البيطار (1253هـ 1335هـ/1837م - 1916م) وهو عالم وفقيه صوفي أديب مؤرخ، ومن تآليفه كتاب «المنة في العمل بالكتاب والسنة» وكتاب «المباحث والغرر في حكم الصور»، و«حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» في ثلاثة أجزاء، وفيه ترجمة حافلة للامير ولابيه ولابنيه محمد ومحي الدين، وفيه وصف دقيق لفتنة المسيحيين في دمشق عام 1860م، ودور الأمير في إطفائها.

فكتاب المواقف مؤلف من نصوص كتبها الأمير تلقائياً ابتداء من نفسه، ونصوص أملاها الأمير على أولئك الثلاثة، والعديد منها أجوبة عن أسئلة طرحت عليه؛ ومجموعها شكل كتاب المواقف الذي ظهرت منه مخطوطات في حياة الأمير، ثم تكاثرت نسخها بعد وفاته. وبعض النسخ خرجت خلال حياة الأمير قبل انتهائه من إكمال كل المواقف، مما يفسر النقص الواقع فيها. مثلاً في طبعة الجزائر للمواقف يوجد فيها 368 موقفاً بينما في طبعة دمشق يوجد 372 موقفاً. والموقف 364 في طبعة الجزائر أطول بأزيد من الضعف مما هو عليه في طبعة دمشق.

فكتاب المواقف استغرق جمعه سنوات عديدة خلال استقرار الأمير بدمشق أي ما بين سنتي (1272 و1300هـ/1856 و1883)، وتعددت أزمنة وأمكنة تأليفه بحسب الواردات التي كانت ترد على الأمير، فهي تارة في أمبواز بفرنسا، وطوراً في مكة، وتارة في المدينة المنورة وأغلبها في دمشق.

4 - ما هي مخطوطات المواقف ومطبوعاته؟

أشهر مخطوطات المواقف هي الموجودة في مكتبة الظاهرية بدمشق، ومنها خمسة تحت الأرقام: 1528 إلى 1530، 9236، 9264 إلى 9268، 11424 و6995 المكتوبة خلال حياة الأمير. وفي مكتبة أنقرة يوجد مخطوط للموقف 366؛ وهناك مخطوطات أخرى في المكتبات الخاصة كمخطوطة الأمير بدر الدين الجزائري

وغيره (16).

وقد طبع الكتاب بأجزائه الثلاثة لأوّل مرّة بالقاهرة سنة 1329هـ (1911م) اعتماداً على مخطوطة الشيخ البيطار - المذكور سابقاً - وعلى نفقة أخت عزة باشا حاكم دمشق خلال إقامة الأمير بها. فَمِمَّا جاء في هذه الطبعة: [طبع على نفقة السيدة نبيهة هانم حرم العالم النبيل محمود باشا الأرناودي، تنفيذاً لوصيته وإحياء لعاطر ذكراه، وذلك بإهدائه مجاناً لحضرات العلماء بالمعاهد الدينية الإسلامية].

- ثم طبع للمرة الثانية بأجزائه الثلاثة بدمشق عام 1966 - 1967م (1387هـ) بدار اليقظة العربية بموافقة وإشراف الأمير محمد سعيد حفيد الأمير عبد القادر، ويقول طابعها أن هذه الطبعة بوبت ورتبت بالاستناد إلى النسخة الأصلية المكتوبة بخط الأمير نفسه، وقوبلت على نسخة عالم الشام الكبير الأستاذ جمال الدين القاسمي المحفوظة بادر الكتب الظاهرية، ونسخة الشيخ عبد الرزاق البيطار المحلاة هوامشها بتقييدات وملاحظات بخط الأمير المؤلف، كما قام بمراجعتها وتصحيحها لجنة من علماء دمشق.

- وطبع الكتاب للمرة الثالثة بالجزائر عام 1996م بالتصوير المباشر من النسخة المخطوطة المحفوظة بالمكتبة الوطنية الجزائرية. وناسخها هو الشيخ محمد الخاني المذكور سابقاً. ثم طبع في سنة 1425هـ (2004) بدار الكتب العلمية ببيروت بزيادة تخريج الأحاديث النبوية ببيان مراجعها، واخيرا طبع في الجزاير ايضا بتحقيق عبدالباقي مفتاح في سنة 2005 وفي سنة 2007.

5 - ما معنى كلمة (المواقف)؟

المواقف جمع موقف، وفي مصطلحات الصوفية الموقف هو البرزخ الفاصل بين مقامين أو حالين يوقف فيه السالك ليعرّف بالآداب اللائقة بالمقام الذي سيعرج إليه (17). وفي طبقات الصوفية نجد ثلاثة منهم قد سبقوا الأمير في استعمال هذه الكلمة: الأول هو الشيخ محمد بن عبد الجبار النفري (ت: 354هـ) فله كتاب من أروع ما كتب في الأدب العرفاني الصوفي الرفيع وعنوانه (المواقف والمخاطبات)، يشتمل على فصول كثيرة، في كل فصل موقف من مواقف المعرفة، يتجلى الحق تعالى فيه على عبده مخاطباً إياه بما يليق بذلك الموقف (18). وقد شرح هذا الكتاب أحد عمالقة المشرب الأكبري وهو الشاعر العارف عفيف الدين

التلمساني (ت: 690هـ).

أما الثاني فهو الشيخ عبد القادر بن محمد المعروف بابن قضيب البان (ت: 1040هـ بحلب) وهو أيضاً أكبري المشرب، وله كتاب (المواقف الإلٰهية) المؤلف من ثمان وعشرين موقفاً، أولها (موقف نفس الرحمٰن) وآخرها (موقف الجنان) وفيه وصف لمشاهده الروحية ومخاطبات الحق - تعالى - له (19).

والثالث هو عبد الله البوسناوي (ت: 1054هـ) له كتاب (مواقف الفقراء)، كما له شرح على فصوص الحكم، وشرح التائية الكبرى لابن الفارض (ت: 632هـ).

أما عند الأمير فيبدو أن كلمة موقف تشير إلى ترقي وعي الولي العارف من الشعور بالزمان المقيد الحادث إلى حضرة الآن الدائم فوق الأزمنة، فكأنّ دفق تيار الزمان بين الماضي والحاضر والمستقبل يتوقف في مركز ديمومة الدهر الواحد الذي لا يتجزأ، مثلما كان يقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند تلقيه الوحي، أو خلال معراجه حيث انطوى الأزل والأبد بقاب قوسين أو أدنى في حضرة: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝ ﴾ - القمر: 50... وعبّر الأمير عن هذا التحقق فقال في الموقف الأول الذي هو أم المواقف كلها: [قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب: 21 هذه الآية الكريمة تلقيتها تلقياً غيبياً روحانياً، فإن الله تعالى عودني أنه مهما أراد أن يأمرني أو ينهاني أو يبشرني أو يحذرني أو يعلمني علماً أو يفتيني في أمر استفتيته فيه إلا ويأخذني منّي مع بقاء الرسم، ثم يلقي إلي ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يردّني إليّ، فأرجع بالآية قرير العين ملآن اليدين، ثم يلهمني ما أراد بالآية. وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة وقد تلقيت - والمنة لله تعالى - نحو النصف من القرآن بهذا الطريق، وأرجو من كرم الله تعالى أن لا أموت حتى أستظهر القرآن كله - (وقد حقق الله رجاءه) - فأنا بفضل الله محفوظ الوارد في المصادر والموارد، ليس للشيطان عليّ سلطان إذ كلام الله تعالى لا يأتي به شيطان...].

فمواقف الأمير إذن هي عبارة عن تلك الحالات الروحية الشريفة التي يأخذه فيها الحق تعالى عن نفسه في حضرة قدسه ويحققه بحقيقة آية من آيات

القرآن العظيم.

6 - ما هي البنية الكلية للمواقف؟

يتألف الكتاب من مقدمة رائعة على شكل مقامة، ثم من مجموعة من القصائد الصوفية، ثم فصول لكل فصل موقف، وعددها 372 موقفاً، في ثلاثة مجلدات.

أقصر المواقف في بضعة سطور، وأطولها في عشرات الصفحات، ويمكن تصنيفها إلى ستة أنواع:

أ: المواقف المفتتحة بالآيات. وفيها شروح صوفية لتلك الآيات وكثيراً ما تتخللها آيات أخرى وأحاديث نبوية. وعدد هذه المواقف مائة وبضع وتسعون. والملاحظ أحياناً وجود عدة مواقف لنفس الآية كالآية ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ الحديد: 4. لها المواقف 252/137/132/78 أو تفسير سورة بكاملها أو جلها كسورة التكوير (موقف 291) أو سورة الشمس (موقف 86) أو الفاتحة (مواقف: 59/14...) أو سورة الناس (موقف 175).

ب: المواقف المفتتحة بالأحاديث النبوية أو القدسية والشارحة لها، وتتخللها آيات أو أحاديث أخرى، وعدد هذه المواقف نحو الخمسة والأربعين.

ج: المواقف التي هي أجوبة على أسئلة حول كتاب الفتوحات المكية، وعددها نحو الثلاثة عشر (20).

د: خمسة مواقف لشرح أبواب من فصوص الحكم وهي فصوص لقمان (موقف 294) وإسماعيل (355) وشعيب (358) وآدم (367) عليهم السلام.

هـ: نحو العشرة مواقف يصف فيها الأمير بعض وقائعه الروحانية (21).

و: نحو التسعة مواقف لشرح حكم وأقوال وأبيات شعر صوفي (22).

8 - ما هي أهم مواضيع المواقف؟

أهم مواضيعها هي:

- حقيقة وحدة الوجود بالمعنى الإسلامي الأصيل والوجدان العرفاني العميق، لا بالمفهوم الفلسفي الإلحادي الذي يخلط بين الخالق والمخلوق، بل بالمفهوم القرآني في توحيد الأفعال ووحدة الأسماء الصفاتية وأحدية الذات من حيث أنه تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الآية: 11 الشورى. و:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ الآية 115 من البقرة.

- مكانة الإنسان الكامل الخليفة المخلوق في أحسن تقويم، ومظهره الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ينظر مثلاً الفصل 34 من الموقف 284/الموقف 367 في شرح فص آدم عليه السلام/ الموقف 370).

- تفصيل مراتب الوجود، خصوصاً في الموقف 284 المذيل بنحو أربعين فصلاً، ت يقع في نحو 160 صفحة، وفيه فصّل مراتب الوجود تفصيلاً رائعاً واسعاً لم يسبق إليه، وهي شروح لفصول من الباب 198 من الفتوحات. وقال الأمير أنه يمكن أن يجعل هذا الموقف رسالة مستقلة عنوانها: [بغية الطالب على ترتيب التجلي بكليات المراتب].

- شمولية الرحمة لكل الخلق.

- مدارج السلوك ومعارج المقامات والأحوال العرفانية.

- ضرورة الالتزام ظاهراً وباطناً بالشريعة المحمدية وعقيدة السلف الصالح.

ومن أطول المواقف الموقف 209 حول حقيقة كلام الله تعالى (نحو 10 صفحات) والموقف 250 في وسع الرحمة والوجوب الإلٰهي (نحو 14 صفحة) والموقف 277 حول علم البدء (نحو 15 صفحة) والموقف 298 حول جوارح الإنسان والعذاب في الآخرة (نحو 47 صفحة). ومن أطولها وأعمقها المواقف التي شرح فيها الأبواب الخمسة من الفصوص المذكورة سابقاً.

ويذكر الأمير في آخر الموقف 294 وفي الموقف 298 أنّ شرحه لبعض فصوص الحكم هو الشرح الأحسن حسبما بشره بذلك الشيخ الأكبر نفسه، بل يعتبر نفسه كالمعيد بالنسبة للأستاذ محيي الدين ومن ذلك قوله: [فإن أكثر الناس بل أكثر العلماء من محدث ومفسر وفقيه جاهلون بتفاصيل هذه المسألة (...) وإني بقصوري عن فهم كلامه كما ينبغي أعترف، ومن البحر المحيط لخاتم النبوة أرتشف، ومن جدول خاتم الوراثة المحمدية أغترف] وبالفعل فبمقارنة شروح الشارحين لأبواب من الفصوص مع شروح الأمير، نلاحظ أنّ الأمير توسع في الشرح بسطاً وعمقاً لم يسبق إليه.

ونفى الأمير كتباً تنسب خطأً للشيخ فقال في الموقف 284: [وما ينسب

لسيدنا خاتم الولاية محيي الدين من الكتب المؤلفة في علم التدبير والكيمياء فزور وافتراء. كذا ما ينسب لسيدنا محيي الدين من الكتب المؤلفة في الملاحم والجفر كالشجرة النعمانية وغيرها. وقد اجتمعت به رضي الله عنه في واقعة وسألته عن الجفر المنسوب إليه، فقال: كذب وزور. وكذا الفتاوى المنسوبة إليه كذب وزور].

وكما كان الأمير فارساً مجاهداً لا يجارى، فهو أيضاً في ميدان المعارف العليا جريء مغوار لا يخشى انتقاد المنكرين الجامدين من علماء الرسوم، فيقول عنهم مثلاً في آخر الموقف السادس: [فلا يكدرون صفونا بجعجعتهم ولا يروعوننا بمعمعتهم]. وفي آخر الموقف 64 يقول: [واحذر أيها الواقف على هذا أن ترمينا بحلول أو اتحاد أو زندقة أو إلحاد، فنحن بريئون من فهمك الأهوج وعقلك الأعوج].

وفي العديد من المسائل يرد على الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة خصوصاً في تأويلهم النصوص الشرعية عندما يخرجونها عن ظاهر مدلولها اللغوي المعروف، وفي ميلهم إلى التنزيه العقلي بتأويل الآيات والأحاديث المثبتة للأسماء والنعوت الإلٰهية، ويؤكد أنّ من أكبر أخطائهم كلامهم في ذات الله تعالى بأفكارهم وهو ممنوع شرعاً. ويؤيد مذهب السلف في العقائد، ولكنه ينتقد انتقاداً لاذعاً الذين يزعمون اتباع السلف وينكرون المعارف الصوفية ومواجيد أهل الله تعالى.

ولا يخشى الأمير من مجابهة عمالقة في العرفان الصوفي مع أدبه الكبير معهم، فهو مثلاً يصف الشيخ عبد الكريم الجيلي (ت: 832هـ) بالعارف الكبير. لكنه في المواقف 123 و248 و246 يردّ عليه بقوة ووضوح في ثلاث مسائل خالف فيها الشيخ الأكبر وفصلها في كتابه «الإنسان الكامل». وكذلك يصف أحمد بن المبارك الفاسي (ت: 1156) بالشيخ المتفنن في آخر الموقف 226، لكن يردّ عليه اعتراضه على مقولة حجة الإسلام الغزالي (ت: 505هـ) المشهورة «ليس في الإمكان أكمل مما كان»، في كتابه المشهور الذي كان يُدَرِّسه الأمير وعنوانه: [الذهب الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز]. وفي آخر الموقف 242 يردّ بصرامة على تصحيح الحافظ ابن حجر قصة الغرانيق، ولكن يسأل الله له العفو والسماح. وفي الموقف 248 يرد على ابن خلدون وأضرابه ويصفهم بالجهلاء بطريق أهل الله. كما يرد على سعد الدين التفتازاني، وغيره من المتكلمين والفلاسفة والحكماء.

وتتبع الأمير لمشرب الشيخ الأكبر لم يكن عن تقليد جامد وانبهار بلا حدود بل كان عن بصيرة نافذة ووعي كامل ناتج عن تحقق وجداني وذوق عرفاني، فهو لا يتردد أحياناً في إبداء مفاهيم تختلف عما كتبه الشيخ محيي الدين ولكن لا تناقضه (23).

9 - لمن هو موجه كتاب المواقف؟

كان الأمير عليماً بعلو المفاهيم التي فصلها في المواقف بحيث لا يمكن لأكثر علماء الرسوم فهمها، وبالتالي فهم ينكرونها، فقال في بداية خطبة الكتاب معرفا به ما ملخصه: [هذه نفثات روحية، وإلقاءات سبّوحية، بعلوم وهبية، وأسرار غيبية، من وراء العقول، وظواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب، والنظر في كتاب، قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا (...) وما قيدتها لمن يقول هذا إفك قديم، ويحجر على الله تعالى، من علماء الرسم، فإننا نتركهم وما قسم الله تعالى لهم، فإذا أظهروا ملاماً وخصاماً تلونا: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ ولا نجادلهم، بل نرحمهم ونستغفر لهم، ونقيم لهم العذر من أنفسنا في إنكارهم علينا. وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم، ولا الحكيم المعلم، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسل المرسلة والصحابة والتابعين. وإن لم يصدق الجمهور والعموم فعند الله تجتمع الخصوم].

ولهذا فرأيي في مطالعة المواقف هو رأي الإمام جلال الدين السيوطي (ت: 911) في كتب الشيخ الأكبر حيث يقول في رسالته (تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي): [والقول الأفضل عندي في ابن عربي هو اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه إلا الراسخون في العلم].

والأمير نفسه يحذّر في العديد من مواقفه من نشرها عند غير أهلها، لأنها موجهة لأولي الكفاءة العرفانية والسلوك الروحي المناسب لمستواها الرفيع، ويكرر مراراً على أنّه رغم غرابة الحقائق التي فصلها في المواقف على غير أهلها فما هي إلا نتيجة الإخلاص في العمل ظاهراً وباطناً بالشريعة المحمدية، يقول مثلاً في الموقف 231:

[.. إنّ القوم (أي الصوفية) لما استقامت ظواهرهم وبواطنهم على الطاعات واتباع السنة قولاً وعملاً وحالاً، قوي نور إيمانهم فتثوروا (أي بحثوا) قاموس

القرآن والسنة، إذ ذاك بستانهم الذي فيه يتنزهون، وفي أرجائه يترددون، ظهرت لهم منها أشياء كانت مندمجة مستورة عن العموم، وما هي بخارجة عن الأصل الذي هو الكتاب والسنة، ولا زائدة عليهما حتى يقال: الحقيقة غير الشريعة، كلا وحاشا! وإنما ظهرت أسرار الكتاب والسنة وإشاراتهما ظهور السمن من اللبن عندما خضّ وحرك (...) فاقبل يا أخي ما جاءك من كلام أهل الله تعالى، ودع كلام كل ناعق. فما فهمته على وجهه فتلك الغنيمة الباردة. وما اعتاص عنك فهمه فكله إلى أهله كما تفعل في متشابه الكتاب والسنة مع التصديق به إلى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده بدلالتك على من يفك معماه، ويفصح لك عن معناه... فإياك يا أخي أن يصدك صاد أو يعارضك معارض عن محبة هذه الطائفة العلية والتصديق لكلامهم، فإنّ محبتهم عنوان السعادة، والإعراض عنهم عنوان الشقاوة].

وفي الموقف الثالث يقول:

[... وكل من ادعى أنّه شم رائحة من طريق أهل الله تعالى ولم يزدد للشرع تعظيماً وللسنة إتباعاً، فهو مفتر كذاب].

ويؤكد على أن فتوحات العارفين بالله ليست نتيجة بحث فكري ولا رياضات نفسية بل نتيجة اتباع الشرع،فيقول مثلاً في آخر الموقف 173: [فمن أراد معرفة إلٰه الرسل والأنبياء، ومن تبعهم - عليهم الصلاة والسلام - فليتبع سنتهم، ويقف عند حدودهم التي حددوها، ويقتدي بهم ظاهراً وباطناً، ويستعمل الأسباب التي وضعها كمّل العارفين الداعين عباد الله – تعالى- إلى معرفته على طريقة الأنبياء، فليواظب عليها فإنّه لا سبيل إلى معرفة الله المعرفة المطلوبة منها إلا بهذه الطريق لا بغيرها من الطرق العقلية أو الرياضية على غير طريق الرسل وسننهم. اللّهم إنّي قد بلغت النصيحة...].

وفي هذا الإطار الشرعي القرآني ينبغي أن تفهم كل المسائل المفصّلة في المواقف، وفي مقدّمتها مسألة وحدة الوجود، وهي المسألة المحورية التي منها تتفرع جلّ المسائل الأخرى. وكم كرر الأمير التحذير من الفهم السقيم لها. كقوله في الموقف 358 الذي شرح فيه فص شعيب من فصوص الحكم لابن العربي.

(اعلم أن الإنسان لا يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة بالنظر إلى حكم الشرع: إما أن يكون ظاهرياً محضاً متغالياً بحيث يؤديه ذلك إلى التجسيم والتشبيه،

فهذا مذموم ومذهب باطل، وإما أن يكون جارياً مع حكم الشرع على فهم اللسان الذي جاءت الشريعة به، حيثما مشى الشارع مشى، وحيثما وقف وقف،قدم بقدم، فهذا هو الحق المحمود الوسط، وإما أن يكون باطنياً محضاً معتقداً مشرب الباطنية من غير نظر إلى الشرع، وهو القائل بتجريد التوحيد حالاً وفعلاً، وهذا يؤدي إلى تعطيل الشرائع وقلب أعيانها (...) كما هو مذهب الزنادقة الإباحيين الاتحاديين، فإنهم يقولون بالتوحيد المحض الذي هو مقام الجمع، فينفون الشريعة التي هي مقام الفرق، فهم أكفر من اليهود والنصارى، وأضر من المسلمين من الشياطين المردة، بإنكارهم أحكام الله، وما كفاهم حتى ادعوا مقام الربوبية والتجسيم بقولهم أنهم هم الله، ويقولون سقط عنا التكليف، لأننا وصلنا إلى أن صارت ذواتنا هي الله، وقولهم كل شيء نراه هو الله. وليس والله هذا مذهب أهل الله، وإنما أهل الله إذا أنزلهم الله في مقام التوحيد المحض كملهم بالأعمال الصالحة وأوقفهم عند حدود الشريعة، وإذا أنزلهم في مقام الفرق حفظهم من الشرك وأشهدهم قيام العالم بوجود الحق (...) فلا بد من الفرق: عبد ورب، آمر ومأمور (...) وبعض الملاحدة يقول: الحركة والسكون بيد الله، فهو الآمر والمأمور والسامع والمخاطب والمخاطب، فهذا على بصيرة تشقيه وتحول بينه وبين سعادته. وهذا لا يصدر عن أحد له علم بالله عن ذوق (...) ولهذه العلة منع بعض أهل الله تلامذته من مطالعة كتب الحقائق لإشرافه على قصور ذلك المريد عن فهمها كهؤلاء الزنادقة، فإن قاصر الفهم لا يخلو إما أن يتأول كلامهم على خلاف ما أرادوه فيهلك مع الهالكين، أو يضيع العمر في النظر في الكتب من غير فائدة، فنهي مثل هذا عن مطالعة كتب الحقائق واجب). انتهى كلام الأمير، وهو في غاية الوضوح، والعديد من نصوص المواقف الأخرى تؤكده.

10 - ما مدى أثر كتاب المواقف في العالم الإسلامي؟

خلال إقامة الأمير بالشام، وبعد وفاته انتشرت مخطوطات المواقف في الأوساط الصوفية، وكان لها أثر هام في إحياء ونشر المشرب الأكبري، ففي العديد من كتب التصوف التي ظهرت منذ مطالع القرن الرابع عشر نجد نقولاً من المواقف أو إشارات إليها. مثال ذلك نصوص المواقف الكثيرة التي استشهد بها الشيخ الفاسي محمد بن جعفر الكتابي (ت: 1345هـ) في كتابه الضخم (جلاء القلوب).

وأكتفى بذكر شخصيتين تأثرا بمواقف الأمير:

- الأول هو الشيخ محمد عبده (1266 - 1323هـ/1849 - 1905م)، وصلته بالأمير تكلم عنها تلميذه رشيد رضا (ت: 1935) في كتابه «تاريخ الإمام» فيقول: [وكانت بين الرجلين صلات وأحاديث في شؤون المسلمين، أشار إليها الشيخ عبده في إحدى رسائله إليه بقوله: « ورجائي ألا يزيل فكرك ما تفارقنا عليه وسبق الكلام فيه مراراً». فكانت الرسائل بينهما متبادلة].

ووصف الشيخ عبده الأمير في رسالة تعزيته بأنه« منتهى وصف الواصفين وغاية مدح المادحين». وكان الشيخ عبده - مثل صاحبه جمال الدين الأفغاني (1839م - 1898م) - من المعجبين بابن العربي والدارسين لكتبه حتى أنه قال لرشيد رضا: (كل ما أنا فيه من نعمة في ديني أحمد الله تعالى عليها فسببها التصوف). ويؤكد هذا قول رشيد رضا عنه: [وأما علوم التصوف فكان فيها - أي محمد عبده - من الراسخين، وقد قال لي: إنني أقرأ الفتوحات المكية كما أقرأ تاريخ ابن الأثير، لأن لغوامضها مفتاحا من علمه لا يخفى عليه شيء منها] وليس من المستبعد أنّ ذلك المفتاح قد أخذه الشيخ عبده من الأمير (24).

- الرجل الثاني الذي نهل من مواقف الأمير هو أحد أعلام شيوخ الأزهر، إمام المذهب المالكي وشيخ الطريقة الشاذلية الشيخ عبد الرحمٰن عليش (ت: 1349 هـ/ 1930م) الذي صحب الأمير في دمشق، وكان من خاصة المقربين عنده، وحضر الساعات الأخيرة من حياته، وهو الذي تولى غسله وتكفينه. وقد ورث من الأمير مشربه الأكبري، وسرى هذا المشرب في أصحابه، خصوصاً وأن إشعاعه لم يقتصر على العالم الإسلامي بل امتد إلى أوروبا، حيث اتصل به مثقفون غربيون في إيطاليا وفرنسا، ومنهم من أسلم وأخذ عنه الطريق الشاذلي والمشرب الأكبري مثل الكاتب الفنان السويدي عبد الهادي أقلي Ivan Aguéli (ت: 1917) والعلامة الشهير العارف، الفرنسي المولد، والمصري المهجر والمدفن، الشيخ عبد الواحد يحيى René Guénon (ت: 1951) المعتبر بحق رائد التصوف في الغرب؛ وأقد أهدى أحد أهم كتبه للشيخ عليش واصفاً إياه بالعالم المالكي المغربي الملهم الفكرة الأولى لذلك الكتاب. والملاحظ أن هذا المشرب الأكبري هو الطابع المميز لأكثر المثقفين الغربيين الذين يعتنقون الإسلام في العقود الأخيرة. ومن هنا كان اهتمام

بعضهم بالأمير ومواقفه (25).

هذا وإن المواقف هي التي جعلت الأمير معدوداً من أعلام التصوف في القرن الثالث عشر، ومذكوراً في كتب طبقات الأولياء، ولنكتف بمثالين:

- المثال الأول: هو ما نجده في كتاب (جامع كرامات الأولياء) لقاضي المحكمة الشرعية ببيروت الشيخ يوسف النبهاني (ت: 1350هـ) - وقد أخذ الطريقة الدرقاوية عن نفس الشيخ الذي أخذ عنه الأمير أي الشيخ محمد بن مسعود الفاسي (ت: 1289هـ) - حيث خصّص للأمير ترجمة يقول فيها: [هو الإمام العارف بالله السيد الشريف الحسيني الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري، المتوفى في دمشق الشام سنة 1300هـ، رحمه الله تعالى، له كرامات كثيرة، وكان من أكبر العارفين بالله - تعالى - مع الأخلاق المحمدية والكمالات الدينية والشهرة التي ملأت الخافقين، ولم يقع في كونه من أفراد عصره خلاف ما بين اثنين؛ ومن أجل مناقبه وأعظم كراماته الكبرى المشتملة على كرامات كثيرة لا تعد ولا تحصى: (مواقفه) التي جمع فيها وارداته الإلٰهية، وعبّر عنها بالمواقف، فقد اشتملت من العلوم والمعارف والأسرار على ما لا يدخل تحت حساب، ولا يمكن أن يستفاد من قراءة كتاب، وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء] (25). ثم ذكر النبهاني تماذج من مواقفه فيها مشاهد الأمير لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مقترنة بتلقي آيات قرآنية خلال حالات من يقظة الوعي في عالم الصفاء الروحاني.

- المثال الثاني: ما استشهد به الداعية الأديب العلامة الهندي أبو الحسن علي الندوي في كتابه (ربانية لا رهبانية) من كلام الأمير شكيب أرسلان في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) (ج II ص172) وهو قوله [وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلعاً في العلم والأدب، سامي الفكر، راسخ القدم في التصوف، لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً، ولا يحن إليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً، وله في التصوف كتاب سماه (المواقف)، فهو في هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ، ربما لا يوجد نظيره في المتأخرين].

11 - ما هي ترجمات المواقف؟

- لعل ماسنيون (ت: 1962م) هو أول مستشرق ذكر كتاب المواقف، وذلك في كتابه المشهور حول الحلاج (الجزء الثاني ص: 350). وقد ترجم كلمة المواقف

بلفظة "Les reposoires" وهي ترجمة خاطئة مبنى ومعنى. والترجمة الأصح هي لفظة Les haltes. ثم بتكاثر الدراسات حول الأمير تفطن بعض المستشرقين لأهمية الكتاب حتى أن العلامة جاك بارك Jacques Berque قال في كتابه L'intérieur du Maghreb داخل المغرب: (إنّ الروعة الأدبية للعديد من فقرات المواقف قد تقلب عدة مسلمات، وأن النهضة الحقيقية - بلا ريب - قد لا توجد حيث يبحث عنها

La splendeur littéraire de maints passages des Mawaquif risque de renverser bien des hiérarchies reçues et que la vrai nahda n'est sans doute pas ou on la cherche (26).

- وفي سنة 1982 ترجم المستشرق الفرنسي المسلم العلامة ميشال شودكيفيكس (واسمه الإسلامي علي عبد الله) 38 موقفاً ترجمة ممتازة، مع مقدمة وتعليقات في غاية الجودة، كل ذلك تحت عنوان Ecrits spirituels (مكتوبات روحية). ولقيت هذه الترجمة قبولاً كبيراً عند المثقفين الغربيين المهتمين بالإسلام عموماً والتصوف خصوصاً.

- وفي سنة 1983: ترجم مستشرق فرنسي مسلم آخر وهو شارل أندري جليس (واسمه الإسلامي يحيى عبد الرزاق) القصائد التي في مقدمة المواقف.

- ثم في سنة 1996 واصل الأستاذ خورشيد عمل شودكيفيكس فترجم 51 موقفاً، غير المواقف التي ترجمها شودكيفيكس.

وأخيراً عام 2000 بذل القسيس الفرنسي ميشار لاقارد مجهوداً كبيراً فترجم جميع المواقف في ثلاثة مجلدات ضخمة ختمها بفهارس دقيقة، ونشرها في ليدن بهولندا وفي بوسطن وكولونيا.

مراجع وتعقيبات حول فصل التعريف بكتاب المواقف

- ت: كتاب «تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر» لمحمد بن الأمير عبد القادر - طبعة الإسكندرية 1903.

Ecrits spirituels:Es- بالفرنسة لميشال شود كيويكز. دار النشر ساي سنة 1982.

- م: كتاب المواقف للأمير عبد القادر - دار اليقظة العربية بدمشق 1386هـ.

- مو: كتاب المواقف للأمير عبد القادر طبعة الجزائر 1996.

(1) ت II:267 .

(2) ت II: 304.

(3) طبع بدمشق عام 1308هـ

(4) ينظر هذا الموضوع في كتاب (الحدائق الوردية) المذكور: ص282 وفي ت II: 304.

(5) مو III: 98 - 99.

(6) طبع بدار اليقظة العربية بدمشق سنة 1966: ص20، 24، 89.

(7) حول هذا الموضوع ينظر مجلة مسالك رقم: 5 «الأمير عبد القادر الجزائري مع الشيخ الأكبر محيي الدين محمد ابن العربي» لمفتاح عبد الباقي ص: 21 - 28.

(8) م: 872.

(9) م: 528.

(10) م: 589.

(11) م: 616.

(12) م: 1337.

(13) ينظر (تاريخ الجزائر الثقافي) لسعد الله بلقاسم ج: 5 ص521 - 522.

(14) ينظر كلام الأمير حول هذه الآية في المواقف: 252/137/132/78.

(15) Es: 26- 27، 185.

(16) Es: 186. ونسخة القاسمي في الظاهرية رقمها 5323 (عام 1308 هـ) ولا تتألف إلا من المجلد الأول للمواقف.

(17) ينظر معنى المواقف في الفتوحات المكية لابن العربي - طبعة دار صادر بيروت: I ص392 - II ص609.

(18) ينظر ما ذكر الشيخ الأكبر في الفتوحات حول النفري في الأبواب التالية: 41 (I ص613) /74 II ص142 / 279 III ص147. وقد طبع كتاب (المواقف والمخاطبات) للنفري في القاهرة سنة 1934 وأشرف على تحقيقه وترجمته إلى الإنكليزية المستشرق A. J. Arberry ونشر ترجمته في كمبريدج سنة 1935.

(19) ينظر النص الكامل لمواقف ابن قضيب البان في كتاب (الإنسان الكامل في الإسلام) لعبد الرحمٰن بدوي، نشر وكالة المطبوعات الكويت، الطبعة الثانية، سنة 1976، (ص151 - 219).

(20) أرقام المواقف المتعلقة بالأجوبة عن مسائل من الفتوحات هي التالية:

250: جواب السؤال السابع من أسئلة الحكيم الترمذي حول مسألة (أنه لا يجب على الله شيء بإيجاب موجب غير نفسه) (الباب 73).

285: الباب 73 حول معنى الأقطاب والأئمة. والجواب عن السؤال 97 للترمذي: إطلاق الشيئية على الحق تعالى.

288: باب الرسالة القشيرية (159/158) حول عصمة الرسول.

289: باب الولاية الملكية (160) حول المشيئة والإرادة والاختيار الإلٰهي.

292: شرح ما ذكره الشيخ الأكبر في حضرة الخلق والأمر وهي للاسم الخالق: الباب 559.

295: الباب 346 عن دورة زمان الأمة المحمدية.

298: الباب 69 عن مسألة الجوارح والعذاب في الآخرة.

308: الباب 523 حول معاني الاسم الرب.

309: حول مسألة التكليف ومقولة: (الرب حق والعبد حق).

311: باب الصلاة: باب (69) والآية: (فأجره حتى يسمع كلام الله).

352: حول الباب السادس من الفتوحات وقبضتي السعادة والشقاء.

356: حول الباب 373 من الفتوحات وما يتعلّق بالمشيئة الإلٰهية.

366: شرح خطبة الفتوحات.

(21) المواقف: 29/30/76/74/84/112/199/265/372.

(22) الموقف 25: شرح حكمة ابن عطاء الله السكندري (ت: 709): (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين).

الموقف 57: شرح قول الشيخ عبد السلام بن مشيش (ت: 625هـ) في صلاته على النبي صلى الله عليه وسلم: (واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحه سر حقيقتي).

موقف 290: شرح البيتين:

رأت قمـــر الـــسماء فذكرتنـــي	ليالـــي وصـــلها بالـــرقمتين
كلانـــا ناظـــر قمـــراً ولكـــن	نظـــرت بعيـــنها ورأت بعينـــي

موقف 345: شرح لخمسة أبيات منها:

ولــدت جــدي وجدتــي وبعهــدهما	أبــي تــولد عـــن أمـــي وأي أب

موقف 364: جوابه عن سبب انكباب المسلمين على استحسان أحوال النصارى.

موقف 368: شرح رسالة الغيب لصدر الدين القونوي (ت: 672).

موقف 371: شرح البيت المنسوب للشيخ أبي مدين (ت: 589) وهو منسوب أيضاً لغيره:

عـرفنا بهـا كـل الوجـود ولـم نـزل	إلـى أن بهـا كـل المعـارف أنكـرنا

موقف 372: جوابه عن مسألة الرؤيا والمنام.

موقف 369: شرحه لكلمة الغزالي (ت: 505) (ليس في الإمكان أبدع مما كان).

(24) عن الشيخ عبده والتصوف ينظر كتاب «تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا» ج ص20 وما بعدها، ص106 وما بعدها، ص926 وما بعدها. والجملة المذكورة في النص توجد في ص929، والكلام الذي يتلوها في ص1032.

(25) حول هذا الموضوع ينظر العدد الخاص بالملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر والقيم الإنسانية (سنة 2001) محاضرة (علاقات الأمير عبد القادر بعلماء وصوفية) لمفتاح عبد الباقي (ص110 - 111).

(25) (جامع كرامات الأولياء) للنبهاني - دار الكتب العلمية ببيروت - لبنان 1471هـ ص: 179 - 180 - 181 - 182.

(26) Es 186: - 187.

(23) من المواقف الذي يبدي فيها الأمير اختلافاً مع الشيخ الأكبر بدون أن يناقضه:

- الموقف 11 في مسألة الوجوب الإلٰهي.
- الموقف 44 في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنتم أعرف بدنياكم».
- الموقف 56 في تكليمه تعالى لموسى عليه السلام تكليماً خاصاً.
- الموقف 108 في حديث الحجب التي لولاها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه.
- الموقف 116 في معنى الخبر: «ادعوني بألسنة لم تعصوني بها».
- الموقف 187 في معنى الخبر الرباني: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن ».
- الموقف 212 في معنى قول الملائكة لله تعالى: «أتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» البقرة 30.

فهرس المحتويات

هذا الكتاب

بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي

في زمن العولمة وتدفق المعلومات واختلاطها وعدم تبين الصالح من الأصلح، والطالح من الأطلح، وفي الوقت الذي يعرف فيه العالم الإسلامي هجوماً شرساً على رموزه ومقدساته وحضارته، وفي الوقت الذي دخلت فيه الإسلاموفوبيا إلى ميدان العلم بعد أن كانت صوراً نمطية في بعض الأوساط التي تمجد الكراهية، وصارت الأفكار العنصرية تتبوأ مكانة مرموقة لدى المؤسسات الرسمية ووسائل الإعلام الغربية، كان لا بد من إعادة إنتاج التراث الحضاري الإسلامي وفق قراءة متأنية ونابهة. ويأتي هذا السفر ضمن هذه الرؤية الجديدة ليقدم للقارئ المستوفز لهذه النباهة مفاتيح لقراءة أحد أعلام هذا التراث ممن تبوأ مكانة كبرى في تاريخ هذه الأمة، والذي تضاربت الآراء حوله بسبب عدم إدراك جُلّ ما يرمي إليه. فأنصفه المنصفون وافتتن به المغرضون وجلُّهم جاهلون لمكتوباته وأفكاره وآرائه في مسائل دقيقة تستعصي على الإدراك.

إن شخصية ابن العربي الحاتمي شخصية مركزية في التراث الإنساني لا بسبب ما قد يعتقده البعض خطأ من أن صاحبنا يقول بالاتحاد والحلول أو برفع التكليف أو بتكافؤ الأديان، بل لكونه الترجمان الحقيقي عن المعارف الإسلامية في عمقها وسطوتها.

والأبحاث التي جمعها صاحبها في هذا الكتاب تهدف إلى تجسير الهوة بين القارئ ومكتوبات الشيخ، وتحيله على المفاتيح القرآنية والوجودية لهذه المكتوبات حتى لا يدخل إلى هذا العالم الفسيح ويتيه فيه، فلا بد من مرشد يقوده إلى البناء العام والهندسة الروحانية لهذه الكتب التي اتخذت القرآن مرجعها الأول والأخير سواء من حيث حروفه أو آياته أو سوره.

من تقديم الدكتور عبد الإله بن عرفة



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban
هاتف 12/11/ 804810 5 961+
فاكس 804813 5 961+
ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
DKi www.al-ilmiyah.com